

مكتبة التاريخ الوسيط

ورثة الأباطورية الرومانية

الغرب الجرماني - العالم الإسلامي - الدولة البيزنطية

تأليف

ريتشارد أ. ساليقان

ترجمة وتقديم
الدكتور هوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة أليكساندريه

١٩٨٥

الناشر
مؤسسة كتاب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
٣٩٤٧٢٢ إكسبريس

ورثة الأمبراطورية الرومانية الغرب الجرماني - العالم الإسلامي - الدولة البيزنطية

تأليف
ريتشارد إ. ساليقان

ترجمة وتقديم
الدكتور هوزيف نسيم يوسف
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٨٥

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
٢٩٤٧٢ - الإسكندرية

الطبعة الأولى

١٩٨٥

هذه ترجمة كتاب :

Sullivan, R.E., Heirs of the Roman Empire, .Ithaca,

New York (Cornell University Press), 1960.

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب ، في لغته الأصلية .

سنة ١٩٦٠ ، وتولت طبعة مطبعة جامعة كورنل

بالولايات المتحدة الأمريكية .

تصدير

الطبعة الأولى للترجمة العربية

عنوان هذا الكتاب في طبعته الأصلية باللغة الانجليزية « ورثة الامبراطورية الرومانية » ، تأليف ريتشبارد أ . ساليغان ، بجامعة متشيجان الحكومية بالولايات المتحدة الأمريكية . وقد قمنا بنقله الى اللغة العربية ، مع التقديم له ، وتزويده بكشاف بأسماء الأعلام والأماكن والمصطلحات . وأضفنا الى العنوان الأصلي عنوانا فرعيا هو « الغرب الجرمانى — العالم الاسلامى — الدولة البيزنطية » ، ليعبر بدقة عن محتوى الكتاب ومضمونه . كما زدنا الترجمة بعدد قليل جدا من الكلمات أو العبارات القصيرة المركزة بهدف الايضاح أو التعريف ، ووضعنا كل كلمة أو عبارة منها بين حاصرتين .

والكتاب يعطى صورة حية نابضة ، أمينة محايدة ، عن الحضارات والقوى الثلاث التى برزت على مسرح الأحداث عقب انهيار وسقوط الامبراطورية الرومانية القديمة ، وحتى أواسط القرن العاشر الميلادى . وهذه القوى هى : الممالك الجرمانية التى قامت على أنقاض العالم الرومانى فى الغرب ، والدولة البيزنطية أو الدولة الرومانية الشرقية ، والدولة الاسلامية .

ومنهج ساليغان يقوم — باختصار — علىلقاء نظرة طائر ، موضوعية شاملة ، على الحضارات الثلاث التى برزت ونمت ، ورسخت وتوطدت ، ثم ضعفت وتفتتت ، فوق سواحل البحر المتوسط على أنقاض الامبراطورية الرومانية ، منذ بداية العصور الوسطى وحتى أواسط القرن العاشر الميلادى . ويقسم هذه الفترة الى ثلاثة أدوار ، لكل منها سماته ومميزاته وخصائصه . الدور الاول ويمتد من سقوط الامبراطورية الرومانية وبداية العصور الوسطى حتى عام ٧٥٠م .

وفيه بدأت تظهر وتتشكل المجتمعات والحضارات الجديدة • أما الدور الثاني ، فيشغل الفترة من حوالى عام ٧٥٠ م وحتى عام ٨٥٠ م تقريبا • ويمتاز بصفة عامة بطابع الوحدة الذى اتسمت به كل قوة من هذه القوى الثلاث • ويبدأ الدور الثالث بعد عام ٨٥٠ م ويستمر حتى حوالى عام ٩٥٠ م • ويتميز بالانقسام والتفكك الذى أصاب هذه القوى ، مع بيان أسبابه والنتائج المترتبة عليه فى الأحقاب التالية • والمؤلف فى كل دور من هذه الأدوار الثلاثة يربط بين القوى والحضارات الثلاث التى ورثت العالم الرومانى القديم ، فى تناسق وانسجام تامين ، وفى دراسة مدققة متعمقة مقارنة •

هذا ، وقد تولت مؤسسة شباب الجامعة بالاسكندرية نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة « مكتبة التاريخ الوسيط » •

والله أسأله السداد ،

الاسكندرية فى أول يوليو ١٩٨٤

جوزيف نسيم يوسف

مقدمة المترجم

يستعرض ريتشارد ساليبان في مؤلفه فترة الانتقال من التاريخ القديم الى العصر الوسيط ، وفترة العصور المبكرة ، عندما كان كل شيء في تغير تدريجي مستمر ، ولم يكن هناك أى شيء ثابت على حاله . وكان الرأي السائد لفترة غير قصيرة أن أصول أوروبا الحديثة ، كما نعرفها ، انما ترجع الى العصر الكارولنجي . وكان المؤرخون المتخصصون يتناولون هذا العصر — عادة — باعتباره تطورا قائما بذاته ، ومستقلا عن كافة المؤثرات الخارجية من حوله . ولكن ساليبان حاول ابقاء الضوء على التغييرات الخطيرة التي كان الغرب الأوروبي مسرحا لها خلال تلك القرون ، وذلك في سياق الحديث عن العالم الروماني — الهلينيستي ، حيث أخذت تتشكل وتتبلور بعد سقوط الامبراطورية الرومانية ثلاثة مجتمعات جديدة مستقلة عن بعضها ، وليس مجتمعا واحدا فقط . ومع ذلك ، فقد تفاعلت فيما بينها ، بأساليب متشابهة تثير الدهشة والغربة .

والكتاب يقع في ثلاثة فصول طوال تسبقها مقدمة : الأول بعنوان « ورثة الحضارة الرومانية » ، والثاني بعنوان « نهضة الغرب » ، والثالث بعنوان « الانقسام الداخلي في الحضارة الجديدة » . وواضح أن المؤلف ينظر نظرة موضوعية شاملة على المجتمعات الثلاثة والحضارات الثلاث التي تلونت فوق أنقاض الامبراطورية الرومانية القديمة ، وذلك عندما أنهار الجerman البرابرة داخل جوفها ، وقضوا عليها في وقت كانت فيه الأزمات العنيفة من سياسية واجتماعية واقتصادية ودينية وفكرية وعسكرية تهدد كيانها وتقوض بنيانها .

استهل ساليبان مؤلفه بمقدمة أشار فيها الى مرثاة البابا جريجودي الكبير (٥٩٠ — ٦٠٤) التي ينوح فيها على ما أصاب روما والغرب على أيدي البرابرة ، مبينا أن بقايا التراث اليوناني — الروماني كانت لاتزال موجودة حتى نهاية القرن السادس الميلادي ، وأن الدولة الرومانية

الشرقية التي ورثت روما القديمة تراثها وحضارتها لم تصل في أقصى اتساع لها الى ما وصلت اليه الدولة القديمة ، وأن الامبراطورية الرومانية الشرقية في القرن السادس الميلادي لم تكن بحال الامبراطورية القديمة . ثم ذكر أن الديانة المسيحية كانت الرباط المتين لوحدة العالم المسيحي في بداية العصر الوسيط ، وعاملا من عوامل وحدة حوض البحر المتوسط . ولكن التمزق والخلافات الدينية والمذهبية أفقدت المسيحية دورها كرباط متين لوحدة هذا العالم . وأصبحت — على العكس من ذلك — عاملا من عوامل تفتته وتمزقه . وبالنسبة للوحدة الثقافية ، فقد غدت غير ذات موضوع بسبب الحاجز اللغوي بين شقي العالم المسيحي . وأما عن العلوم فنجد تضاعلت وأنكملت ، وإن كان قد تم الحفاظ على قدر ضئيل منها داخل جدران الأديرة وغيرها من المؤسسات الدينية في الغرب .

وفي الفصل الأول الذي جعل عنوانه « ورثة الحضارة الرومانية » ، تحدث عن التطور التاريخي الذي طرأ على العالم الروماني بعد انهياره وسقوطه ، خلال الفترة الممتدة من حوالي عام ٦٠٠ م حتى أواسط القرن الثامن الميلادي . فذكر أن العالم الواحد ، ويعني بذلك الامبراطورية الرومانية القديمة ، قد انقسم الى ثلاثة عوالم هي : العالم البيزنطي ، والعالم الاسلامي ، والغرب الجرمانى . وبالنسبة للعالم البيزنطي ، فقد أشار الى الامبراطور جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥) ، وسياسته في الداخل والخارج ، ومدى ما حققه فيها من نجاح أو فشل . وتوصل الى أن جستنيان كان لا يزال رومانبا ، وأنه حتى عهده لم تكن هناك دولة بيزنطية بالمعنى المفهوم ، اذ كانت السمة العامة التي تميز بها حكمه هي طابع الوحدة ، أى إعادة وحدة العالم الروماني التي قضى عليها الجرمان البرابرة . ولذلك فهو في نظره آخر الأباطرة الرومان ، وأنه لم يصبح بيزنطيا بعد .

وانتقل الى الحديث عن خلفاء جستنيان ، والمشاكل التي واجهتهم على حدود الدولة الشمالية والشرقية والغربية ، وكذلك صراع الامبراطور

هرقل (٦١٠ — ٦٤١) ضد الفرس والآفار والسلاف والعرب ، والنتائج التي ترتبت على ذلك فيما يتعلق بضعف الدولة البيزنطية وانكماش رقعتها ، خاصة بعد انسلاخ مصر والشام وجانب من آسيا الصغرى وشمال افريقية عنها ، حتى أصبحت حدودها لا تتعدى العاصمة وما حوالها . وحتى القسطنطينية ، فقد تعرضت لهجمات العرب عليها في عهد الخلافة الأموية ، وكادت أن تسقط في قبضة الأمويين في بدايات القرن الثامن الميلادي (بدايات القرن الثاني الهجري) لولا تصدى الامبراطور ليو الثالث الأيسوري (٧١٧ — ٧٤٠) للهجوم البري والبحري الذي تعرضت له العاصمة في عهد سابغ الخلفاء الأمويين سليمان ابن عبد الملك، والذي شهد عصره أيضا بداية الصراع اللأأيقوني الذي تركت آثاره أوخم العواقب على العالم الأوروبى المسيحى بشقيه . وهكذا أخذت ملامح الحضارة البيزنطية فى الوضوح بعد أن اصطبغت بالصبغة المسيحية على المذهب الأرثوذكسى ، وبعد أن استمدت جذورها من التراث اليونانى القديم ولغته اليونانية .

وبينما كانت الدولة البيزنطية تعيش فى ظل الفوضى والاضطرابات التي انهكتها عسكريا وماليا ، الى جانب مشاكلها الأخرى العديدة فى الداخل والخارج ، فقد ظهر الاسلام فى شبه الجزيرة العربية فى أوائل القرن السابع يدعو الناس بعامّة والعرب بخاصة الى نبذ عبادة الأصنام والى وحدانية الله لا شريك له . ووجدت فيه القبائل العربية المتصارعة رمزا لوحدها وأملا لمستقبلها ، فدخلت فيه أفواجا . وخرجت من شبه الجزيرة نشرا لدعوتها ، وتأمينا لها من مناوشات جيران لها يتأخمونها الحدود ويناصبونها العداء . وهكذا قامت حركة الفتوحات الاسلامية على أساس فكرة الجهاد ، باعتباره مبدأ وعقيدة ، وضرورة سياسية وحربية ، اقتضتها سلامة وأمن الدولة العربية الفتية التي أخذت تتكون آنذاك ، والتي أخذت تمتد وتتسع لتشمل خلال فترة قصيرة من الزمن المنطقة الممتدة من المحيط الى الخليج .

عظيمة وقديمة ، مثل حضارات مصر والشام والعراق والفرس واليونان والرومان ، فضلا عن حضارات الشرق الأقصى مثل الهند والصين . وأفاد العرب من كل تلك الحضارات ، وعملوا على التنسيق بينها . وكانت الثمرة النهائية هي انصهار حضارات كل البلاد المفتوحة مع حضارة العرب في بوتقة واحدة أنتجت حضارة جديدة شامخة ، لها مقوماتها وكيانها وخصائصها ومميزاتها ، هي الحضارة العربية الاسلامية التي قامت على دعامين أساسيتين هما اللغة العربية والديانة الاسلامية ، ومن هنا اشتقت اسمها المركب . ولا شك أن وحدة اللسان الى جانب وحدة العقيدة الجديدة ، أوجدا رباطا قويا وحد بين الفاتحين العرب وأهالي البلاد المفتوحة .

وأما الغرب الأوروبى ، فقد كان خلال القرون الأولى من العصور الوسطى مسرحا عجيبا للفوضى والقلق التي نتجت عن غزوات الجرمان البرابرة وسقوط الامبراطورية الرومانية . ويلاحظ أن العناصر الجرمانية المبكرة لم تقض على الحضارة والأنظمة الرومانية تماما ، بل أخذت بها ، وعملت على تكييفها لتلائم الوضع الجديد . مثال واضح لذلك ثيودوريك Theodoric زعيم القوط الشرقيين (٤٩٣ — ٥٢٦) الذي أسس دولة في ايطاليا استمرت حتى أواسط القرن السادس . فقد واصل التقاليد الرومانية القديمة ، مع الاحتفاظ بشيء من عنف النظام المتبربر . وكان ينظر الى المدينة الرومانية كمثل أعلى يجب أن يقتدى به . وعلى هذا استوزر شيوخ الرومان ، واستخدم كثيرا من الرومانيين في ادارة دفة الحكومة في البلاد . لقد تقبل المثل والتقاليد الرومانية القديمة ، مع ايمانه بقوة روما وعظمة الامبراطورية الرومانية . وساعد على ذلك استخدام الرومان في أواخر عهدهم القوط كجند مرتقة في جيوشهم . فكانوا على علم بكل كبيرة وصغيرة في العالم الرومانى ، وعاشوا في ظل حضارته . وما يقال عن ثيودوريك في هذا الشأن ، يقال أيضا عن كلوفيس

Clovis ملك الفرنجة في غالة (٤٨١ — ٥١٠) • فقد حصل كل منهما على لقب الملك الشرعى على أراضيه من أباطرة الدولة الرومانية الشرقية وريثة الامبراطورية الرومانية القديمة • ويدل هذا على أنه بالرغم من اسهام الجرمان في القضاء على الامبراطورية الرومانية ، الا أنها مع ذلك لم تندثر تماما • لقد ظلت التقاليد والقوانين الرومانية ، كما عاشت روما بعد سقوط الامبراطورية القديمة ، ولكن في قالب مغاير يتلائم والأوضاع الجديدة التى طرأت على مسرح الأحداث في الغرب وقتذاك •

وكان استقرار الفرنجة في غالة بقيادة كلوفيس بداية لتأسيس الدولة الميروفنجية (٤٨١ — ٧٥١) التى كانت تنقسم الى قسمين : أحدهما شرقى جرمانى الصبغة ، والآخر غربى رومانى الطابع ، وعلى كل منهما حاكم يسمى « أمير القصر » • وتعاقب على حكم هذه الدولة بعد موت مؤسسها عدد من الملوك الضعاف ، في وقت اشتد فيه ساعد وزراء القصر ، الى أن انتهى الأمر في أواسط القرن الثامن أن أصبح أحد وزراء القسمين وهو بين القصير الحاكم الأوحده للدولة بقسميها ، بينما الملوك الميروفنجيون الضعاف العوبة لا حول لهم ولا طول • وبين هذا هو آخر وزراء الميروفنجيين وأول ملوك الأسرة التى أعقبتها وهى الأسرة الكارولنجية التى نسبت الى شارلمان أو شارل العظيم (٧٦٨ — ٨١٤) ابن بين القصير ، وذلك بفضل قوة شخصيته واتساع فتوحاته •

على أية حال ، يلاحظ أن العناصر المتبربرة التى قضت على الامبراطورية الرومانية القديمة ، وفى مقدمتها القوط والفرنجة ، والتى أسست على أنقاضها دولا وممالك جرمانية ، كانت تختلف عنها فى نواح عديدة • فبينما كانت الامبراطورية الرومانية البيروقراطية الصبغة والطابع مركزية الحكم والادارة ، زالت فى ظل الدول الجرمانية البيروقراطية الرومانية القديمة ، وزالت معها مركزية الحكم والادارة • كذلك زالت الطبقة الرومانية القديمة صاحبة الأرض • وظهرت طبقة حاكمة جديدة قوامها الغزاة الجرمان استمدت قوتها من الأرض التى استولت عليها •

كذلك أصبحت القرية بحضارتها الريفية الزراعية هي العمود الفقري للمجتمع ، بعد أن كانت المدينة بسكانها الأحرار ونشاطها التجارى والصناعى وحضارتها المدنية هي صلب هذا المجتمع •

وفى غمرة هذه الأحداث التى ألت بالغرب ، وما صاحبها من تغير فى النواحي السياسية والاجتماعية والفكرية ، ظهرت البذور الأولى للاقطاع الذى يعتبر من الملامح المميزة للمجتمع الغربى الوسيط ، ويعبر عن روح هذا المجتمع أصدق تعبير • وهو — باختصار — عبارة عن علاقة بين سيد ومسود قوامها الأرض وماتغله من خيرات ، بموجب واجبات والتزامات يؤديها التابع لسيده المتبوع • وقد أدت الى ظهوره عوامل مختلفة متعددة ترتبط بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط، تتمثل فى علاقات التبعية الشخصية التى كانت موجودة عند الجرمان حتى قبل استقرارهم فى جوف الامبراطورية الرومانية ، ونظام الحماية عند الرومان فى أواخر عهدهم • وقد حافظ الجرمان ، وهم فى الأصل قوم رعويون زراعيون ، على هذه الأوضاع بعد غزواتهم • وكان هذا أساسا لنظام الاقطاع الذى ساد الغرب فى العصور الوسطى • وقد ارتبط هذا النظام بسياسة الاقتصاد الطبيعى Natural Economy

أو الاقتصاد الاقطاعى Manorial Economy ، بدلا من الاقتصاد النقدى أو المالى Money Economy الذى كان عماد الدولة الرومانية القديمة • وهذا يعنى — باختصار — أن المجتمع الغربى فى ظل الاقطاع واقتصاده الطبيعى ، لم توجد فيه دولة أو أمة أو قومية أو غيرها من لزوميات الأمم والدول الحديثة والحكومات الشرعية ، مثل اللغة والآداب والتقاليد الموروثة والجيش القومى المدرب أحسن تدريب والمزود بالسلح والأسطول المزود بأطقم من البحارة • كذلك لم يوجد فيه ما يعرف بالثروة العامة ، أو رعوس الأموال النامية ، أو الجهاز الادارى الذى يدير دولاب العمل ، أو الموارد المالية الثابتة ، لان العلاقة بين الأفراد فى ظله أساسها الأرض ، والأرض لا تلد مالا يسمح بالانفاق على كل هذه النواحي •

وكنتيجة لما تقدم ، نما الاتجاه نحو المحلية بدل المركزية ، وأصبح أى سيد اقطاعى هو ملك فى دائرة اقطاعه ، بينما غدا الملك هو الأول بين أقرانه فحسب ، ليس له من سلطان على غيره من السادة الأشراف الا بمقدار ما يملك من الأرض ، فى وقت أصبح أساس هذا المجتمع هو الأرض ، أو حسبما قال المؤرخ الفرنسى جيرار Guerard « من كان صاحب أرض صارت له بالتبعية أحقية فى السلطة » ويكفى للتدليل على ذلك أن شارلمان ، على الرغم من اتساع فتوحاته وامتداد رقعتها ، لم يكن عنده فى الخدمة سفينة واحدة أو جيش قائم من القوات المرتقة، بما يسمح بالابقاء على الامبراطورية التى تم احيائها فى عهده .

وترتب على ما تقدم أن الأرض أصبحت أساس الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الغرب . وأصبح اقتصاد هذا المجتمع كما يقول العالم البلجيكى هنرى بيرين H. Pirenne فى كتابيه « مدن العصور الوسطى » و « تاريخ أوروبا الاقتصادية والاجتماعى فى العصور الوسطى » ، اقتصادا زراعيا بعد عودة المجتمع الأوروبى الى حضارة الريف . كذلك تدهورت المدن الرومانية ، وانغلقت على نفسها ، وقف سكانها ، وتدهورت التجارة فيها ، وأصبحت شبه معدومة فى القرون الأولى من العصر الوسيط . وغدت هذه المدن مجرد مراكز دينية متدهورة تعيش فى سبات عميق ، ولا يدب فيها النشاط الا أيام المواسم والأعياد، لتعود بعد ذلك الى وحدتها وعزلتها القاتلة . وقد تحدث عن ذلك بالتفصيل ارشيبالد لويس A. Lewis فى مؤلفه « القوى البحرية فى حوض البحر المتوسط » .

• وإذا كان هذا التطور قد شمل الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فقد امتد ليشمل أيضا الحياة الدينية ، وكانت المسيحية وقتها قد تأصلت فى أوروبا بعد صراع عنيف مع الديانة الوثنية ، وبعد الاعتراف الرسمى بها . وأصبحت الكنيسة الرومانية الغربية ، بحكم الظروف التى أحاطت بنهاية التاريخ القديم وبداية العصر الوسيط ، مستقلة عن الدولة ،

وبكلمة أدق في التعبير ، أصبحت دولة داخل الدولة ، وليست جزءا منها كما كان الحال في الامبراطورية البيزنطية . لقد اعتبرت نفسها الوريثة الشرعية للامبراطورية الرومانية القديمة ، وورثت الأباطرة الرومان مركزهم ونفوذهم بعد أن أصبح الكرسي الامبراطوري في الغرب شاغرا بأفتقال الأباطرة الى الشرق وتأسيس القسطنطينية لتصبح عاصمة لدولة جديدة هي الدولة الرومانية الشرقية أو الدولة البيزنطية .

ولم تنس روما أبدا أن القسطنطينية هي « روما الجديدة » أو « روما ثانية » بعد انتقال الأباطرة الرومان اليها ، وأنها هي التي ورثت التراث الروماني القديم ، بينما انهار الغرب تحت ضربات الجرمان البرابرة . وبدأت روما تشعر بالغيرة والحسد والكراهية من سميتها ، وظل هذا ماثلا أمام أعين البابوية . هذا ، بينما اصطبغ الغرب بصبغة لاتينية جرمانية واضحة ، وارتبطت حضارته باللغة اللاتينية ، وانطبع الشرق بطابع هليني ملموس وارتبطت حضارته باللغة اليونانية . وكان هذا هو بداية الخلاف والانشقاق المذهبي بين الكنيستين الشرقية والغربية . وتجلى في المجامع المسكونية الأولى التي عقدت للنظر في البدع والهرطقات التي تعرض لها العالم المسيحي وقتذاك . ففي المجمع الثاني الذي عقد في مدينة القسطنطينية عام ٣٨١ م ، ظهر التنافس واضحا بين روما والقسطنطينية . ففيه جعل لأسقف روما الأسبقية والمكان الاول ، وجعل لأسقف القسطنطينية المقام الثاني بين أساقفة العالم المسيحي وقتها . ونتيجة لذلك بذرت بذور العداء والبغضاء بين كنيسة روما والقسطنطينية ، وازداد عامل الغيرة والكراهية الذي تفاقم مع الزمن . وقد اتضح ذلك في المجمع المسكوني الثالث الذي عقد في مدينة افسس بآسيا الصغرى عام ٤٣١ م للنظر في بدعة نسطور أسقف القسطنطينية القائلة بأن العذراء أم للمسيح الانسان فحسب . وفي هذا المجمع وقف أسقف روما ضد النسطورية باعتبارها هرطقة . وهكذا زادت الهوة اتساعا بين روما والقسطنطينية ، وساعد الزمن وتطور الظروف والأحوال في العالم الأوروبي بشقيه على ذلك .

وبمضى الوقت أخذت كنيسة روما تتفوق تدريجيا على كنيسة القسطنطينية وباقي الكنائس المسيحية ، وأصبح لأسقفها مركز الصدارة بين أقرانه ، خصوصا بعد أن خلا له الجو بسقوط روما في أخريات القرن الخامس وانتقال الأباطرة الى القسطنطينية ، وبعد أن ورث القياصرة الأقدمين سلطانهم ونفوذهم ، وبعد نجاحه في تخفيف آلام الناس وأحزانهم في أوقات الفوضى والاضطراب التي صاحبت غزوات البرابرة ، وبعد نشاطه في التبشير بالدين الجديد . وهكذا أخذت أسقفية روما في النمو حتى تحولت في أخريات القرن السادس الى بابوية لها هيبتها وكيانها ومقوماتها وطابعها الخاص بها . وكان ذلك أيام جريجورى الكبير أول بابوات روما . وكان هذا البابا قد وضع الأساس الذى بنى عليه نفوذ بابوية روما في الأمور الدينية والدنيوية على السواء . وكان يهدف من وراء ذلك استقلال الكنيسة الغربية عن زميلتها الكنيسة الشرقية في الناحية الدينية . وكانت الخلافات القديمة السابقة عاملا يساعد على تدعيم هذه السياسة الانفصالية عن الكنيسة البيزنطية التى كانت تنظر هى الأخرى بحق وجودها في القسطنطينية عاصمة الأباطرة الشرقيين كراعية للكنائس المسيحية الأخرى .

كان هذا بداية الانشقاق المذهبى الخطير بين الكنيستين ، الذى استمر طوال العصور الوسطى ، والذى عانت منه المسيحية الأمرين . وقد اتسعت هوته وازدادت حدته بعد موت جريجورى الكبير عام ٦٠٤م . اذ كانت معالم الطريق واضحة تماما أمام خلفائه الذين نهجوا نهجه واقتفوا خطاه . فنجد البابا مارتين الأول (٦٤٩ — ٦٥٥) يقف في أواسط القرن السابع موقفا صلبا تجاه الكنيسة الشرقية واتجاهاتها السياسية والمذهبية . بينما يواجه البابا جريجورى الثانى (٧١٥ — ٧٣١) مشكلة الحركة اللايقونية التى قام بها الامبراطور البيزنطى ليو الثالث الأيسورى (٧١٧ — ٧٤٠) ، ويتحداه تحديا صريحا ، ويشجع الغربيين على اهمال قراراته . وأخذت الشقة تزداد بعدا بين الكنيستين

وبين اللاتين والإغريق ، حتى بات كل منهما ينظر الى الآخر على أنه عدوه اللدود ومهرطق لأنه على غير مذهبه .

ولكن اذا كانت هذه الخلافات قد أساءت الى العالم المسيحي أكثر مما أفادته ، فقد كان لنشأة الرهبنة وسرعة انتشارها في الغرب ، بسبب الظروف التي ألت بالعالم وقتها في فترة الانتقال من التاريخ القديم الى العصر الوسيط ، أهميتها . وكان أول نشأتها في مصر على هيئة حركة توحيدية ، ثم تطورها الى حركة حياة اجتماعية للرهبان وانتقلت الى اوروبا على يد اثناسيوس الذي كان أسقفا للاسكندرية ، ثم نفى من كرسيه ورحل الى روما سنة ٣٤٠م . وساعد ، أيضا ، على سرعة انتشارها كتابات عدد من المفكرين والقديسين أمثال القديس أوغسطين أوف هيبو St. Augustine of Hippo ، والقديس جيروم St. Jerome وبالأديوس Palladius ، وكاسيان Cassien . وكان هؤلاء وغيرهم قد زاروا الأديرة المصرية في القرن الرابع ، وعاشوا بين الرهبان ، واستمعوا اليهم والى اقوالهم وتعاليمهم . وسجلوا ذلك كله في مؤلفات ساعدت على انتشار الرهبنة في الغرب .

ولم تتحقق الحركة الديرية على الوجه الأكمل في الغرب الا في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلادي على يد القديس بندكت St. Benedict of Nursia الذي أدخل الديرية هناك على أساس الحياة الاجتماعية للرهبان في أديرة لها قوانينها وتقاليدها وأنظمتها .

وما يهمنا هو دور هذه الأديرة في الحفاظ على بقايا العلم القديم . اذ وجد في كل دير منها نواة لمكتبة ، ومكان لنسخ الكتب ، ليواصل كل من يلمس في نفسه نزعة علمية أو أدبية نشاطه العلمي والأدبي . وقد حفظت هذه الأديرة الكثير من التراث الكلاسيكي والكتب القديمة التي كانت في خطر الزوال أثناء غزوات البرابرة . وداخل هذه المكاتب واصل

النساخ والؤلّفون تحرير الكتب التاريخيّة والأدبيّة واللاهوتيّة والقانونيّة التي لا يزال الكثير منها متداولاً حتى اليوم • وأخذت هذه النزعة العلميّة والأدبيّة في النمو والانتساع في الأديرة البندكتيّة ، في وقت كان الناس فيه يغطون في نوم عميق • ومع الزمن تأسست بعض المدارس في تلك الأديرة هدفها تعليم الأطفال الذين أعدوا لكي ينخرطوا في سلك الكهنوت فيما بعد • وعلى هذا كانت الديرية البندكتيّة منبعاً للعلم ، وأدت خدمة واضحة للفكر والحضارة في غرب أوروبا في العصور الوسطى المبكرة ، التي تعارف بعض المؤرخين الغربيين الحديثين ، ومن بينهم و • ب • كير W.P. Ker ، على تسميتها بالعصور المظلمة •

تلك هي الأوضاع منذ سقوط الامبراطورية الرومانيّة وظهور قوى جديدة على أنقاضها ، وحتى أواسط القرن الثامن الميلادي تقريباً • وتلك هي أهم معالم هذا الدور الأول للقوى التي برزت على أنقاض العالم الروماني والحضارات التي ارتبطت بها • وأما عن الدور الثاني الذي يشغل قرناً من الزمان ، من حوالي عام ٧٥٠ م حتى حوالي عام ٨٥٠ م ، فقد رسخت فيه الأوضاع التي أشرنا إليها في الدور الأول • وهو موضوع الفصل الثاني من كتاب ساليبان الذي جعل عنوانه « نهضة الغرب » •

ففيما يتعلق بالغرب ، فقد تميز الفرنجة بأهميتهم التاريخيّة الفائقة ، لأنه بدخولهم في حظيرة الدول الأوروبيّة قامت حكومات جديدة في غرب أوروبا لها طابعها وكيانها ومقوماتها • وعلى هذا الأساس قامت دولة فرنسا ودولة المانيا اللتان كان لهما شأن عظيم في تاريخ العصور الوسطى و في التاريخ الحديث حتى يومنا هذا • وكانوا قد ارتحلوا من أواسط آسيا ، وعبروا نهر الراين ، واستقروا غرباً في غالة • ومؤسس دولتهم هو كلوفيس الذي نجح في تأسيس الأسرة الميروفنجيّة ، التي أعقبتها الأسرة الكارولنجيّة نسبة إلى شارلمان • وقد شن شارلمان حروبه

في كل اتجاه : ضد المسلمين في اسبانيا ، وضد العناصر الوثنية الجرمانية المتاخمة لحدوده ، وضد اللمبارديين في شمال ايطاليا استجابة لاستغاثة كك من البابا ادريان الأول (٧٧٢ — ٧٩٥) والبابا ليو الثالث (٧٩٥ — ٨١٦) به . وكان الثمن هو أن وضع البابا ليو الثالث التاج فوق رأس شارلمان في ليلة عيد الميلاد من سنة ٨٠٠ م . وبذلك تم احياء امبراطورية القياصرة الأقدمين ، ولكن تحت اسم جديد هو « الامبراطورية الرومانية الغربية المقدسة » .

وقد ثارت نظريات عديدة حول تأسيس تلك الامبراطورية ، وترتبت آثار بالغة الخطورة حول احياؤها ، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقاتها بالامبراطورية الرومانية الشرقية ، في وقت كانت فيه عوامل الخلاف كامنة وقائمة . ولقد تم احياء الامبراطورية في الغرب في عهد الامبراطورة البيزنطية ايرين (٧٩٧ — ٨٠٢) وكان ايذاها بفصم الارتباط الواهي الذي كان قائما بين روما والقسطنطينية منذ القدم ، وزوال التبعية الشكلية التي كانت تدين بها روما للقسطنطينية . وغير خاف أن النزاع اللاأيقوني الذي بدأت فيه الأسرة الأيسورية زمن مؤسسها ليو الثالث ، فضلا عن وجود امرأة على العرش الامبراطوري ، الى جانب الخلافات القديمة المزمنة — كان كل ذلك من أهم الأسباب التي اتخذها البابا الروماني دفاعا عن عمله هذا . والمهم أنه منذ ذلك التاريخ أصبحت توجد امبراطورية رومانية غربية بجانب الامبراطورية الرومانية الشرقية أو الامبراطورية البيزنطية بكلمة أدق وأوضح في التعبير . ويعتبر كل من جيمس برايس J. Bryce ، وجوفري باراكلوف G. Barraclough من أفضل من تناولوا بالدراسة والتحليل موضوع الفكرة الامبراطورية في العصور الوسطى ، والآراء والنظريات المتعلقة بها .

لقد أثار هذا الحدث الكثير من الجدل والخلاف بين المؤرخين والكتاب الحديثين المعنيين بالفكر السياسي وفلسفته في العصور الوسطى . واعتبره برايس بداية الامبراطورية الرومانية المقدسة . واختلف

بارا كلاف معه في الرأي ، قائلا بأنه لم تكن هناك آنذاك سوى امبراطورية واحدة فقط هي الامبراطورية الرومانية التي كانت قائمة فعلا ، والمقصود بها الامبراطورة البيزنطية . ويزيد الأمر وضوحا ، فيقول انه لم تكن هناك أى فكرة تتعلق بتأسيس امبراطورية جديدة في الغرب منذ سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة وقيام الممالك الجرمانية على أنقاضها ، وأن كل الذى حدث هو انتخاب امبراطور آخر في ذات الامبراطورية القائمة . والخلاصة أنه ترتب على احياء الامبراطورية في الغرب قيام المنافسة والعداء بينها وبين الامبراطورية في الشرق وريثة روما القديمة . وهكذا أدى تأسيس امبراطورية أخرى في الغرب الى ازدياد عوامل الحقد والبغضاء بين شقى العالم المسيحى . وان المفاوضات التي دارت بين الجانبين أيام شارلمان وخلفائه ، وتردد الرسل والمبعوثين بين القسطنطينية وآخن ، هي خير دليل على ذلك .

ووسط هذه الأحداث كانت البذرة الاقطاعية تنمو بسرعة في الغرب آنذاك بعد أن وجدت المناخ الملائم لها . وبدأت الملامح الجذيدة التي طبعها الاقتصاد الطبيعي على المجتمع الغربى في الوضوح ، بينما أخذت الدولة شكلا مغائرا يتلائم وأوضاع عالم متغير . اذ انتزع الفرنجة املاك الطبقة الرومانية القديمة صاحبة الأرض . وكانت النتيجة الطبيعية أن حل محل الدولة الرومانية نبت جديد قوامه الغزاة الجرمان ، وقد ارتبط ارتباطا وثيقا بالأوضاع التي أحاطت بأوروبا في فترة الانتقال فزالت ضريبة الأرض التي عرفها الرومان ، ولم يعد هناك مكان للجند المرتقة ، ويات الجيش اقطاعيا في تكوينه ، وانهارت البيروقراطية الرومانية من أساسها ، واختفت تبعا لذلك طبقة الاداريين العلمانيين المرتبطة بها . واندثرت مع الزمن الطبقة الرومانية القديمة صاحبة الأرض لتحل محلها طبقة جديدة من الغزاة الجرمان التصقت بالأرض التي انتزعتها من أصحابها الرومان المهزومين الذين جعلتهم أتباعا لها بصورة أو بأخرى . ونتج عن كل هذا نمو الاقطاعيات الكبيرة وتطورها ،

حتى أنها أصبحت تشكل الوحدة الأساسية للنظام الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع الغربي الوسيط منذ ذلك الحين ولقرون عديدة لاحقة .

هكذا قامت الدولة في الغرب على أساس اقتصاد طبيعي يرتبط بالأرض وما تنتجه من محاصيل وغللات . وأى هذا الى وجود مجتمعات محلية ، ووحدات اقتصادية مغلقة غير متطورة تعتمد على سياسة الاكتفاء الذاتي . ولم يعد ثمة ما يعوق النمو الاقطاعي والتقسيم الطبقي بين الأحرار وغير الأحرار . اذ كانت التربة ممهدة لنمو هذه البذرة الجديدة في مجتمع أصبحت الغلبة فيه للقوى ، وأصبح من يملك الأرض يملك معها السلطة والنفوذ . وترتب على ذلك أن حلت المحلية محل الحكومة المركزية ، وبات المجتمع طبقياً في تكوينه ، يتألف من طبقات أفقية تتسع تدريجياً كلما نزلنا الى أسفل . على قمته السادة الاقطاعيون من رجال الدنيا والدين ، وفي قاعدته العريضة أغلبية ساحقة من العبيد والأقنان والأرقاء وصغار المستأجرين . وكان هؤلاء الافراد يتبعون من فوقهم وليس لهم من متبوعين دونهم . وفي هذا الهرم الطبقي كان أفراد كل طبقة يدينون لمن فوقهم بواجبات والتزامات معينة عرفت في المصطلح الاقطاعي باسم واجبات الخدمة والتبعية الاقطاعية . كما كانت لهم امتيازات وحقوق خاصة على غيرهم عن هم دونهم ، حتى اذا أتينا الى قاعدة الهرم العريضة نجد رقيق الأرض والأقنان يدينون لمن فوقهم بواجبات التبعية ، ولكن ليس لهم حقوق أو امتيازات على غيرهم عن هم دونهم .

ونتيجة لهذه الأوضاع التي استجدت على الغرب ، استقلت الكنيسة الرومانية اللاتينية عن الدولة تماماً ، وأصبحت بمثابة دولة داخل الدولة باعتبارها الوريثة الشرعية للامبراطورية الرومانية القديمة كما يقول جورج-جوردون كولتون G.G. Coulton في كتابه « عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة » . لقد اتسع نفوذها ، وازدادت هيبتها ، وارتبطت مصالحها بالدولة الكارولنجية الجديدة . ومع تحول

اقتصاد الغرب من اقتصاد نقدي يتصل بالمدن والتجارة الى اقتصاد طبيعي أو اقطاعي يتصل بالقرية والزراعة ، أصبح رجال الدين من كبار ملاك الأرض • فكانوا يكتنون العبيد ، ويتصرفون فيهم بالبيع والشراء ، ويتبادلونهم ويقتسمونهم فيما بينهم ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من الحكام العلمانيين ، وذلك وفقا لما ذكره لودو موريتز هارتمان L.M. Hartmann في مقاله المعنون « الدولة في العصور الوسطى المبكرة » وحتى الديرية البندكتية أخذت هي الأخرى تسير نحو التدهور ، عندما ازدادت ثرواتها ، وعندما رأى الرهبان أن الفائض منها يغنيهم عن العمل فأخذوا في التكاسل الذي أعقبه الفساد والتدهور ، وتركوا أمور الفلاحة لاتباعهم من الفلاحين يقومون بها تحت اشرافهم • وباتت ديرية بندكت في أمس الحاجة الى الاصلاح •

هكذا دب الفساد في الجهاز الكنسي بأكمله • ولكن استقرار الأحوال في غالة بصفة خاصة ، وفي الغرب بوجه عام ، في عصر شارلمان بعد أن هدأت غزوات البرابرة وخفت حدتها ، ساعدت على احياء نهضة دينية • اذ سعى شارلمان الى رفع المستوى العلمي لرجال الدين ، ووجه عناية زائدة الى الأديرة وغيرها من المؤسسات الدينية ، وعمل على رفع المستوى الثقافي للرهبان الذين أخذوا وقتها يهتمون أصول العلم والتعليم • وآية ذلك الخطابات التي كان يبعث بها بين وقت وآخر الى رؤساء الأديرة والوعاظ وغيرهم من رجال السلك الكهنوتي ، يستحثهم فيها على التزود بالثقافة الأدبية ، ومواصلة العلم والتعليم ، الى جانب الاهتمام بالشئون الدينية والأمور الروحية • وقد نص في هذه الرسائل على ضرورة الاهتمام بالنطق السليم والكتابة الصحيحة الخالية من الأخطاء • كما دعا الى تدريس الفنون الحرة بجميع الكنائس ، وتنقية الكتب المقدسة من الشوائب العالقة بها • وطالب بالاكثار من المدارس التابعة للمؤسسات الدينية ، وأن تفتح تلك المدارس أبوابها لكل من يرغب في تلقي العلم وبدون استثناء •

ولشارل العظيم الفضل في احياء نهضة علمية شاملة نسبت اليه
فعرفت باسم النهضة الكارولنجية. ويرى الكاتب شاتوبريان Chateaubriand
أن أولى جامعات العصور الوسطى في الغرب ، وهي جامعة باريس ، انما
ترجع أصولها وجذورها الى تلك النهضة المبكرة . ولاشك أن شخصية
شارلمان ، الى جانب نفوذه وطموحه وآماله العريضة ، كان لها أكبر الأثر
في تدعيم هذه النهضة التي تعتبر ، حسبما يقول جون لامونت J. LaMonte
في مؤلفه « عالم العصور الوسطى » ، من أهم مظاهر عصر شارلمان ، أن
لم تكن أهمها على الإطلاق . فقد قامت بفضل رعايته وتشجيعه ، ولم
تتحصر في عاصمة ملكه اكس لاشابل فحسب ، وانما امتدت لتشمل باقى
أجزاء دولته المترامية الأطراف . فقد استدعى الى عاصمته كثيرا من
علماء عصره من مختلف أنحاء القارة الأوروبية ، من الأدباء والفلاسفة
واللاهوتيين والمفكرين والمؤرخين ، وذلك للاستغلال بأمور العلم والتعليم
في مدرسة البلاط التي أسسها في عاصمته لتعليم أبنائه وأبناء كبار رجال
حاشيته . وكانت هذه المدرسة بمثابة مركز علمي متنقل ، اذ أمر شارلمان
بانتقالها معه أينما ذهب ، حتى وهو في حملاته الحربية . كذلك اهتم
بجمع المتبقى من الكتب القديمة التي ظلت باقية ولم تعد عليها عوادي
الزمن من مؤلفات اللاتين القدامى . كما وجه عناية خاصة الى المكتبات .
كذلك احتل التاريخ مكانة مرموقة في النهضة الكارولنجية . اذا انتعشت
حركة التدوين التاريخي ، وتقدم فن الكتابة التاريخية ، وظهر العديد
من المؤلفات التاريخية . وعرف نظام الحوليات الديرية التي سجلت
الكثير من الأحداث التاريخية الهامة ، والحوليات الملكية التي تناولت
تاريخ الكارولنجيين وكانت تدون تحت اشراف رجال البلاط .

المهم أن النهضة الكارولنجية في القرن التاسع امتدت لتشمل شتى
نواحي العلم والمعرفة، ولتصبح خطوة أولى ومتواضعة الى الامام في سبيل
التقدم ، بعد قرون طويلة من الفوضى والظلام . وذلك خلافا لما ذكره
كل من البرت ماليه A. Malet وجيل ايزاك J. Isaac ، من أن
النهضة المذكورة كانت تعوزها صفات الجمال والحرية والجرأة التي

انتسبت بها الحركة الانسانية في عصر النهضة ، وأنها كانت حركة للاحياء أكثر منها خلقا وابتكارا • لقد كان طبيعيا أن تقوم النهضة الكارولنجية على الاستيعاب والنقل والمحاكاة ، لتعقبها مرحلة الابداع والابتكار • ولكنها ، على أية حال ، تحدد بشكل واضح الملامح المميزة لمجتمع اوروبى غربى ناهض من بين ركام العالم الرومانى •

وفى هذا الوقت الذى تبلور فيه شكل الدولة فى الغرب الأوروبى من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، واتضحت سمات الحضارة الجديدة ، كانت الدولة الاسلامية التى تأسست عقب ظهور الاسلام ، واتسعت لتشمل المنطقة الممتدة من المحيط الى الخليج ، تمر هى الأخرى بمرحلة تغير وتطور • فلم تعد حركة الفتوحات اعتبارا من أواسط القرن الثامن الميلادى (أواسط القرن الثانى الهجرى) تسير على نفس معدلها السابق • ومنذ ذلك الحين وجه المسئولون فى المجتمع الاسلامى عنايتهم وجهودهم لوضع أنظمة داخلية تركز عليها الدولة • وصاحب ذلك بداية الخلافة العباسية سنة ٧٥٠ م على أنقاض الدولة الأموية التى أدت ظروف عديدة متداخلة متشابكة فى بعضها الى الثورة ضدها والقضاء عليها •

وهكذا أصبحت بغداد هى عاصمة العالم الاسلامى بدلا من دمشق • وكان هذا يعنى بكلمة أدق انحسار الصبغة الهلينية وزيادة المؤثرات الفارسية • وكان من حسن حظ العباسيين أن تولى الحكم فى الفترة الأولى من دولتهم عدد من الخلفاء الأقوياء مثل هارون الرشيد الذى كانت له صلات مع العاهل المسيحى المعاصر له الامبراطور شارلمان • وكان أبرز ما قام به بنو العباس هو تأكيد الطابع الدينى للدولة بحيث أصبح الخليفة هو أمير المؤمنين • وقد ترك هذا بصماته على الحضارة العربية الاسلامية التى أخذت مميزاتها وخصائصها وشكلها النهائى وقتذاك • وكان من أهم معالمها البيروقراطية ، فيما يتعلق بنظام الحكم والادارة ، وتغلب العنصر الفارسى فى كل مرافق الدولة ، وحياة الفخفة والأبهة والبهاء التى عاشها الخلفاء وعلية القوم • وقد زودنا ساليقان بصورة حية نابضة

عن بغداد عاصمة العباسيين ، وجامعة المأمون ، ودور الأغنياء ، والأسواق ، والمدارس ، والحركة والحياة عن طريق التجارة الصادرة والواردة • وبين كيف أنها نعمت بالرضاء والاستقرار اللذين جذبا إليها الرحالة والزوار والتجار من مختلف بقاع العالم •

لقد ذاع صيت بنى العباس حتى امتد من الشرق الى الغرب • وتم الاتصال بين عاهلى الاسلام والمسيحية : هارون الرشيد وشارلمان وتبودلت السفارات والهدايا بينهما • لقد كان هارون الرشيد يسعى لتأييد الفرنجة له ضد مسلمى اسبانيا ، مقابل حصول شارلمان على تفويض من الخليفة العباسى بحماية مسيحي فلسطين وتأمين طريق الحج الى بيت المقدس • وكان من أثر ذلك تخفيف الضغط الاسلامى على الغرب الأوروبى ، وتوقف الحملات العسكرية ضد الدولة البيزنطية ، فيما عدا بعض الجزر فى البحر المتوسط التى استولى عليها المسلمون من بيزنطة مثل كريت وصقلية •

وهكذا تميزت الخلافة العباسية ، وبخاصة فى عصرها الذهبى ، بعالميتها وبيروقراطيتها ، كما نعمت عاصمتها بالاستقرار والأمن والرخاء والازدهار الاقتصادى ، الامر الذى أدى الى اتساع دائرة الاسلام بدخول أعداد غفيرة فيه بفضل محاسنه ومزاياه ، بحيث أصبح الدين رباطا قويا للوحدة بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها • والحقيقة أن العصر العباسى ، وبخاصة الفترة الممتدة من أواسط القرن الثامن الى أواسط القرن التاسع الميلادى (من أواسط القرن الثانى الى أواسط القرن الثالث الهجرى) ، فترة هامة بالنسبة للدين الاسلامى • فقد تم دراسة وتفسير الأحاديث النبوية الشريفة ، ومحاولة التوفيق بين الاسلام والمفاهيم الدينية والفلسفة للبلاد المفتوحة بمالا يتعارض وتعاليم الاسلام • وبدأ الاهتمام كذلك بدراسة الفقه والشريعة •

وصاحب الرابطة الروحية للعالم الاسلامى نهضة ثقافية • ولا نغالى اذا قلنا ان القرن الأول من العصر العباسى يعتبر المولد الحقيقى لحضارة اسلامية متميزة • حقيقة ان هذه النهضة بدأت فى العصر الأموى ، ولكنها

لم تتألق الا في العصر العباسى الأول • وقد أدت الى نقل كثير من مؤلفات الفرس والهنود والاعريق القدامى ، في الفلسفة والطب والكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلك والجغرافية والأدب ، الى اللغة العربية • وساعد على ذلك اتساع عقول ومدارك الحكام المسلمين • وكان من أهم ثمار هذه النهضة جمع الكتب والمخطوطات ، وانشاء المكتبات ، ونشاط حركة الترجمة ، وظهور أسماء لامعة من المترجمين • فضلا عن بقاء جانب كبير من التراث القديم ، وبخاصة التراث اليونانى ، حيا في التراجم العربية ، وعليها دراسات وتعليقات العرب • واذا كانت هذه الحركة قد بدأت بالترجمة ثم التقليد والمحاكاة ، فقد أعقب ذلك التجديد والابتكار فالخلق والابداع في نواح عديدة في المعرفة الانسانية • وهى في هذا تشبه نهضة أخرى زاملتها وزاملتها في الطرف الآخر من العالم ، وهى النهضة الكارولنجية المعاصرة لها •

واذا اتجهنا الى الدولة الرومانية الشرقية فسوف نجد أن الصراع اللاأيقونى كان على أشده وقتذاك • لقد بدأت هذه الحملة زمن الامبراطور ليو الثالث مؤسس الأسرة الأيسورية • وكانت مقاومة البابوية والغرب لها شديدة ، وكان البابا على رأس الحزب المعارض للامبراطور اللاأيقونى • وأخذ أهل الغرب يشنعون على ليو ، ويتهمون به بالعمل على القضاء على المسيحية • وترتب على هذه الحركة في ايطاليا أن ضعفت سلطة الامبراطور البيزنطى فيها ، وأصبح ممثله في روما مجرد ظل لا قيمة له • وانتهزت البابوية هذه الفرصة لتدعيم نفوذها واستقلالها على حساب القسطنطينية تنفيذا للسياسة الاستقلالية والانفصالية التى وضع خيوطها جريجورى الكبير ، والمقصود بذلك الاستقلال عن الامبراطورية البيزنطية وكنيستها الشرقية • ولهذا السبب قاوم بابوات روما حركة تحطيم الصور والتماثيل تحقيقا لمصالحهم الخاصة • وبلغ بهم الأمر أن تحالفوا مع اللباردين في شمال ايطاليا في سبيل طرد الحاميات البيزنطية من الجنوب الايطالى ، وقد تم لهم ذلك •

لقد كان طبيعيا أن تجد حركة الامبراطور ليو الثالث أثرا معاديا في غرب أوروبا الذي تمسك بالأيقونية • ويجب ألا يغرب عن البال أن عوامل هذا التمسك كانت متوافرة في الغرب الذي ظل لفترة ما وثنيا حتى بعد ظهور المسيحية وانتشارها هناك • لقد عارض الحركة اللايقونية بشدة حسبما أسلفنا • وبلغت المعارضة ذروتها عندما أصدر بابا روما جريجورى الثالث (٧٣١ — ٧٤١) قرارا بحرمان الامبراطور ليو الثالث وبادر ليو بالرد على قرار حرمانه بحرمان بابوية روما من كافة حقوقها وأملاكها في صقلية وجنوب ايطاليا • كما فصل جميع الكراسى الأسقفية عن بابويه روما ، وحولها الى بطريق القسطنطينية • وواضح أن هذه الخطوة من جانب الطرفين كانت عاملا جديدا يضاف الى العوامل السابقة ، مما زاد من حدة الخلاف والشقاق بين العالمين البيزنطى والأوروبى الغربى ، وبين الكنيستين الشرقية والارثوذكسية والغربية الكاثوليكية • ولعل هذا يفسر موقف كل من اللاتين والبيزنطيين حيال الآخر في الأحقاب التالية •

لقد تركت هذه الحركة آثارها طوال حكم الأسرة الأيسورية ، وخلال حكم الأسرة العامورية التى جاءت بعدها • فبعد وفاة ليو وحتى نهاية البيت الأيسورى حكم سبعة أباطرة ما بين مؤيد للحركة مثل قسطنطين الخامس وليو الرابع ونقفور الأول الخامس ، وما بين معارض لها مثل الامبراطورة ايرين وميخائيل الأول • ويلاحظ بصفة عامة أن المذكور من أفراد هذه الأسرة كانوا من مؤيدى الحركة فيما عدا ميخائيل الأول ، بينما كانت الاناث ممثلة في ايرين من معارضيها • ولهذا شهدت الدولة اضطرابات دينية عنيفة انعكست على علاقاتها بالغرب ، تلك العلاقات التى كانت سيئة ومتدهورة بالفعل ، فازدادت سوءا وتدهورا • ويتمثل ذلك عندما استولى اللمبارديون على مدينة رافنا عام ٧٥٠ م ، وعلى باقى ممتلكات بيزنطة في وسط ايطاليا ، تشجعهم على ذلك بابوية روما ، حتى اذا كان عام ٧٥١ م لم تعد بيزنطة تمتلك شيئا شمال

مقاطعة كالابريا • وكان لهذا التطور في العلاقات بين شقى العالم المسيحى نتائج البعيدة المدى ، بينما وجد بابوات روما في الفرنجة في غالة خلفاء جدد وأقوياء لهم ، بعد أن ساءت العلاقات بينهم وبين اللبارديين • وبالرغم من دعوة ايرين المجمع المسكونى السابع والأخير للانعقاد في مدينة نيقية عام ٧٨٨ م للعمل على ارجاع عبادة الصور ، فلم يمنع هذا التصرف من جانبها البابا الرومانى ليو الثالث (٧٩٥ — ٨١٦) من تقويض شارلمان امبراطورا على الغرب عام ٨٠٠ م • وبذلك حول اليه تلك التبعية الشكلية التى كان حتى ذلك التاريخ يعترف بها للقسطنطينية • وكانت هذه نقطة أخرى على طريق التباعد بين روما والقسطنطينية ، وايدانا بفصم كل ما تبقى من ارتباط بينهما • ومنذ ذلك التاريخ أصبحت توجد امبراطورية رومانية غربية بجانب الامبراطورية الرومانية الشرقية •

واستمر الصراع اللاأيقونى في عصر الأسرة العامورية (٨٢٠ — ٨٦٧) ، وكان موقف أباطرتها من الحركة امتدادا لموقف الأسرة الأيسورية فكان ميخائيل الثانى وثيوفيلوس من المؤيدين لها ، بينما كانت ثيودورا — التى كانت وصية على ابنها ميخائيل الثالث فيما بين عامى ٨٤٢ و ٨٥٦ — من المعارضين لها •

وأما عن سمات الحضارة البيزنطية آنذاك ، فيمكن القول ان الدولة البيزنطية استمدتها لكونها وريثة روما القديمة وحضارتها • كان بيزنطة بيروقراطية الصبغة والطابع ، مركزية الحكم والادارة • وقد ارتكز هذا النظام البيروقراطى المركزى على قاعدة اقتصادية متينة هى الضرائب حسبما يقول لودو موريتز هارتمان • ومون النظام الضرائبى خزانة الامبراطور ، أى خزانة الدولة ، بفيض لا ينقطع من المال ، مكنه من مواصلة العمل دون توقف بهيئة موظفيه الضخمة ، مع الاحتفاظ بجيش دائم ثابت وأسطول بحرى كبير • وقد أهتم بهذه الناحية عدد من المؤرخين الحديثين المعنيين بالتاريخ البيزنطى ، وعلى رأسهم ستيفن

رانسييمان S. Runciman ، ونورمان بينز N. Baynes
وموس Moss ، وجورج اسنزوجورسكى G. Ostrogorsky

والخلاصة أن نجاح البيزنطيين في تنظيم جيوشهم وأساطيلهم ، الى جانب جهازهم الدبلوماسى النشط وحكومتهم البيروقراطية المركزية ، فضلا عن الاهتمام المتزايد بنظام الثيمات وهو تنظيم عسكري قوى في مناطق الحدود المعرضة للخطر — كل هذا مكن الدولة من الصمود أمام الهزات العنيفة التى تعرضت لها • ويرجع الفضل الأول في ذلك الى نظامها المالى المتين القائم على سياسة الاقتصاد النقدى حسبما يرى كل من شارل ديل Ch. Diehl وهارتمان •

أما الكنيسة البيزنطية فقد ظلت جزءا لا يتجزأ من الدولة • وكان الامبراطور هو رأس الكنيسة منذ أن اعترف قسطنطين الكبير بالمسيحية في أوائل القرن الرابع ، وبكنيستها باعتبارها الدولة ، وبالامبراطور باعتباره الرئيس الدينى الأعلى لها • وقد رفع هذا من شأن الامبراطور ومقامه • فالامبراطور ، حسبما قال ليو الثالث الأيسورى ، هو «حارس أبواب السماء وراعى القطيع مثل بطرس كبير الرسل » • وقد حال الوضع دون قيام صراع مكشوف بين الكنيسة والدولة في بيزنطة ، بعكس الحال في الغرب حيث كانت الكنيسة الرومانية دولة داخل الدولة ، الأمر الذى ترتب عليه قيام الصراع العنيف بين البابوية والامبراطورية حول المسائل العلمانية والأمر الدنيوية •

وفيما يتعلق بقانون الايكوجا Ecloga الذى أصدره ليو الثالث عام ٧٣٩ وبصماته على الحضارة البيزنطية ، فيمكن تلخيصه بأن القصد منه ، كما يقول ليو نفسه ، هو إدخال المبادئ المسيحية في القانون البيزنطى • لقد كان ليو رجلا متدينا ، وقاده تدينه من زاوية علم اللاهوت الى الحركة اللايقونية ، كما قاده الى العمل على صبغ الدستور بصبغة انسانية • ويبدو هذا في القانون المدنى والقانون

الجنائي . اذ تم تخفيف عقوبة الاعدام ، وتقييد الطلاق ، واعطاء المرأة حقوقا لم تكن تتمتع بها من قبل .

كذلك شاهدت الدولة البيزنطية — بالاضافة الى ما تقدم — نهضة عامية وفنية كبيرة ، أثرت فيها الى حد بعيد حضارة العباسيين في بغداد .

كل هذا جعل الدولة البيزنطية ، في هذا الدور الثاني ، في مركز أفضل من أى دولة جرمانية في الغرب ، كما جعلها تقف ندا لجارتها الخلافة العباسية في بغداد .

عرفنا أن الامبراطورية الرومانية بعد انحلالها وسقوطها انقسمت في أوقات متفاوتة الى حضارات ثلاث هي : الحضارة البيزنطية ، والحضارة الاسلامية ، وحضارة الغرب الجرمانى . وخلال قرن من الزمان ابتداء من أواسط القرن التاسع الميلادى (أواسط القرن الثالث الهجرى) ، كانت هذه الحضارات قد رسخت وبدأت في النمو والتطور . ومع ذلك فقد استحدثت أحداث جعلت طابع الوحدة الذى كان من أبرز خصائصها في الدور الثانى ، ينهار ليفسح المكان للانقسامات والصراعات والخلافات ، وهى السمة العامة للدور الثالث الذى يطلق عليه ساليبان عنوان « الانقسام الداخلى في الحضارة الجديدة » .

ففيما يتعلق بالعالم الاسلامى ، أدت الخلافات الدينية والمذهبية الى تفككه وقيام دول مستقلة متنافسة متنافرة . ولم يأت القرن العاشر الميلادى (القرن الرابع الهجرى) حتى أصبح العالم الاسلامى يتكون من عدة دويلات . فقد أصاب الوهن الخلافة العباسية في بغداد ، وضعفت الحكومة المركزية فيها ، وأصبح الخليفة العباسى العوبة في يد الترك الذين تغلغل نفوذهم . كما أصبح البلاط مسرحا للمؤامرات ، واستشرى الفساد ، ولم تعد بغداد هى مدينة السلام كما كانت من قبل . وساعد على تفكك الخلافة الحركات الانفصالية التى ترتب عليها قيام

دويلات جديدة • والنتيجة أنه لم تعد توجد دولة اسلامية كبرى ، بل حلت محلها دويلات عديدة مستقلة متافسة ومتصارعة •

وهكذا بدأ العالم الاسلامى الذى كان متحدا قويا ، وقد تقطعت أوصاله وتفككت عراه • ومع ذلك ، فقد ساعدت الوحدة الدينية والرابطة الثقافية على سد الفجوات بين مختلف أجزاء هذا العالم • فرغم الانقسامات المذهبية العديدة داخل الاسلام ، إلا أن المسلمين جميعا تمسكوا بكتاب الله الذى استمدوا منه قوانينهم الدينية والسياسية • بل ان الاسلام — فى حد ذاته — أوجد فكرا واحدا فى مختلف أرجاء العالم الاسلامى ، حتى بعد تجزئته وتفتته • أما الرابطة الثقافية فتتمثل، امتدادا لما سبق ذكره ، فى أن الحضارة العربية الاسلامية بلغت ذروتها فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد (القرنان الثالث والرابع الهجريان) • وقد شملت نواح عديدة فى المعرفة الانسانية •

وقد عمل الاسلام على تكييف كل هذه المعارف والعلوم لبتلائم وحاجاته ، مع نبذ كل ما لا يقبل التكيف • وأحسن المسلمون اختيار العناصر الصالحة من الحضارات التى صادفوها ، ومزجوها ببعضها مزجا سليما ، وسدوا فجواتها • وخرجوا من ذلك كله ببناء حضارى شامخ لا يمكن أن يوصف الا بأنه عربى اسلامى كما يقول جوستاف جرونباوم G. Grunebaum فى مؤلفه « حضارة الاسلام » • وعلى هذا ، يمكن القول انه على الرغم من انقسام العالم الاسلامى وتفتته السياسى اعتبارا من أواسط القرن التاسع الميلادى فصاعدا (اعتبارا من أواسط القرن الثالث الهجرى فصاعدا) ، فإن وحدة اللسان ، والوحدة العقلية ، الى جانب وحدة العقيدة ، أوجدت رباطا متينا بين مختلف أجزاء هذا العالم •

ولقد انتقلت هذه الحضارة المزدهرة اليانعة الى العالم الأوروبى عن طريق مراكز الاشعاع الحضارى المعروفة وهى : : الأندلس وصقلية

وجنوب ايطاليا • وعندما قامت الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادى عشر الميلادى (أواخر القرن الخامس الهجرى) ، أصبحت مصر والتسام المعبر الرابع الذى عن طريقه انتقلت المعارف العربية الاسلامية الى اوروبا • وكانت هذه هى الشرارة التى أدت الى انطلاقة اوروبا وكسر قيودها التى عاشت أسيرة لها عدة قرون • ولا خلاف أن نهضة القرن الثانى عشر فى اوروبا المعروفة بالنهضة العلمية الأولى تميزا لها عن عصر النهضة ، ترتبط ارتباطا وثيقا بحركة الترجمة والمعارف الاسلامية • وليس هنا مجال بيان أثر الحضارة العربية الاسلامية على المدنية الأوروبية فى مختلف الميادين والمجالات ، فهذا موضوع يطول شرحه ويحتاج الى مجلدات ومجلدات ، وسبق أن كتب فيه متخصصون فى الشرق والغرب على السواء •

سوف يطول بنا الحديث اذا أردنا تتبع أفضال الحضارة العربية الاسلامية ومآثرها على العالم الأوروبى • ويكفى أن أحد الكتاب الغربيين الحديثين وهو ول ديورانت W. Durant ، يؤكد أن أعظم الأطباء والجغرافيين وعلماء البصريات والكيميائيين فى العصور الوسطى كانوا من المسلمين • وقد ترجمت معظم مؤلفاتهم ومقالاتهم الى اللاتينية ، وكانت تدرس فى جامعات اوروبا آنذاك ، وأصبحت الأساس المتين الذى بنت عليه اوروبا نهضتها •

واذا انتقلنا الى الدولة البيزنطية ، فسوف نجد أنها كانت فى هذا الدور سعيدة الحظ • اذ بدت الدولة آنذاك بيزنطية تماما بعد انتهاء النزاع اللاأيقونى ، واستقلال الكنيسة البيزنطية عن الكنيسة اللاتينية ، وبعد تخلصها — ولو مؤقتا — من العناصر المتاخمة لها على الحدود مثل السلاف والبلغار والروس بدخولها فى المسيحية على المذهب الشرقى • كما تولت عرش بيزنطة أسرة من أقوى الأسرات هى الأسرة المقدونية (٨٦٧ — ١٠٥٧) • وبلغت الدولة ذروة مجدها فى عهد هذه الأسرة التى أنتجت أباطرة اشتهروا فى السياسة والأدب والحرب • ونجحت — الى

حد بعيد — فى التخلص من مشاكلها فى الداخل والخارج • كما خدم أباطرتها فى كل الميادين ، فأثبتوا استحقاقهم للوظيفة واللقب الامبراطورى • واهتموا بتنمية ثروة البلاد وانفاقها فى الوجه الصحيح • وكانت النتيجة أن الدولة البيزنطية أصبحت هائلة وأعظم دولة فى الشرق •

ففى الوقت الذى كانت فيه الخلافة العباسية تسير سريعا نحو الضعف والانحلال ، بدت الامبراطورية البيزنطية قوية متماسكة • وساعد هذا أباطرتها على اتخاذ سياسة الهجوم ضد المسلمين ، بعد أن تغير ميزان القوى فى الصراع بينهما لصالحها • فقد انتهت الحروب التى قامت بين مؤسس الأسرة بازيل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦) وبين المسلمين فى شرقى البحر المتوسط وغربيه فى صالح بيزنطة • واستمرت هذه الانتصارات فى عهد قسطنطين السابع (٩١٢ — ٩٥٩) الذى استولى على مدينة حلب لفترة قصيرة عادت بعدها الى المسلمين • وفى عهد رومانوس الثانى (٩٥٩ — ٩٦٣) استعادت بيزنطة جزيرة كريت • ووصلت قوة الدولة مداها أيام نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩) الذى استولى على صقلية وقبرص وانطاكية وبعض المدن فى آسيا الصغرى ، بينما بلغت القوات البيزنطية حدود بيت المقدس وبغداد فى عهد سلطه يوحنا تريمسكيس (٩٦٩ — ٩٧٦) • واستمرت حملات بيزنطة على الحدود الشامية أيام بازيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥) حيث تقدمت جيوشه حتى طرابلس •

كانت الدولة البيزنطية آنذاك فى حالة استقرار وانتعاش داخلى ، مما هيا لها اتخاذ سياسة المبادأة والهجوم ضد المسلمين الذين التزموا بسياسة الدفاع عن انفسهم وعن بلادهم ، ومما سهل لها تحقيق بعض الانتصارات على حساب الضعف الذى استشرى فى جسد الخلافة العباسية وانسلاخ العديد من ولاياتها عنها • وقد زامن ذلك وصاحبه ازدياد الصيغة البيروقراطية والنزعة المركزية فى الدولة • اذ أخرجت

الأسرة المقدونية عددا من الأباطرة الذين يعتبرون حجة في هذا الميدان ، أمثال ليو السادس (٨٨٦ — ٩١٢) صاحب مؤلفات « المحتسب » و « البروتوكول الامبراطورى » و « فن الحرب » ، وقسطنطين السابع مؤلف « كتاب الأقاليم » وكتاب « تنظيم الادارة في الامبراطورية » و « مراسم القصور » وكتاب عن حياة جده بازيل المقدونى • ويدل هذا على تلك الصبغة التى اصطبغت بها الدولة البيزنطية كنتيجة لسياسة الاقتصاد النقدى التى أخذت بها •

ولايعنى ما تقدم أن بيزنطة قد استراحت تماما من مشاكلها ، وبخاصة مع جيرانها فى الخارج • فقد كان البلغار — على الرغم من اعتناقهم المسيحية على المذهب البيزنطى — مصدر متاعب متقطعة بالنسبة لها ، وبخاصة منذ أواخر القرن التاسع الميلادى فصاعدا • كذلك سبب الروس الكثير من المضايقات للدولة ، فى عهد كل من يوحنا تريمسكيس وبازيل الثانى • وأما عن علاقة بيزنطة بالغرب الأوروبى فلم تكن بأفضل مما كانت عليه من قبل • إذ واجه مركزها فى ايطاليا خطر جديد منذ أواخر القرن العاشر الميلادى فصاعدا • وتمثل الخطر فى العنصر النورمانى التى بدت أطماعه واضحة فى الدولة البيزنطية نفسها خلال القرن الحادى عشر • وتأكدت هذه الأطماع أثناء الحركة الصليبية •

وأما عن علاقة كنيسة بيزنطة بالبابوية فى روما فقد كانت ، هى الأخرى ، تسير من سيىء الى أسوأ • وكان الأمل فى وحدة الكنيستين أمرا مستحيلا ، ولم يتبق سوى صبح الانفصال بينهما بصبغة رسمية وبشكل نهائى • وقد وقع هذا فى أخريات عهد الأسرة المقدونية فيما عرف بحكم النساء ، عندما ضعفت الدولة وأصبحت مرتعا خصيبا للفوضى والمؤامرات • وفى زحمة هذه الظروف ، وقعت القطيعة الدينية الكبرى سنة ١٠٥٤ بين الكنيستين الشرقية والغربية ، والتى تعتبر وفقا لرواية ستيفن رانسيمان وصمة عار فى جبين المسيحية • وقد ترك هذا الحدث

الخطر أكبر الأثر في التاريخ البيزنطى ، وفي تاريخ العلاقات بين العالمين اللاتينى والاعريقى ، بل وفي تاريخ المسيحية كلها . ويعتبر الحصيلة المنطقية للخلافات المتفاقمة بين اللاتين والاعريق ، والتي ترجع أصولها وجذورها الى أوائل القرن الرابع الميلادى ، ولا زالت المسيحية تعاني من آثارها حتى اليوم .

وكما تصدعت الخلافة العباسية ، وضعفت الدولة البيزنطية ، كذلك تفتت الامبراطورية الكارولنجية بعد موت شارلمان سنة ٨١٤ م ، بسبب العودة الى التقاليد الجرمانية القديمة الخاصة بتقسيم الملك بين أبناء الملك باعتباره ملكا شخسيا له يوزع على ورثته من بعده . فضلا عن سيادة الاقتصاد الطبيعى فى الغرب وقتذاك ، الذى بموجبه قامت الدولة على أساس ريفى زراعى بحت ، بينما بدأت البذرة الاقطاعية فى الغرب فى النمو والقرع .

لقد خلف شارلمان ابنه لويس الصالح (٨١٤ — ٨٤٠) الذى قام بتقسيم دولته بين أبنائه الثلاثة . ونظرا لمحاباته ابنه الأصغر على حساب أخويه الكبارين ، فقد نشبت بعد موته حرب دامية بين الاخوة الثلاثة انتهت بعقد معاهدة فردان سنة ٨٤٣ م ، انقسمت الامبراطورية بمقتضاها الى أقسام ثلاثة هى : القسم الغربى ويشمل فرنسا ، والقسم الشرقى ويشمل المانيا ، والقسم الثالث عبارة عن ممر طويل بينهما يشمل مقاطعات فريزيا ولوثارنجيا وبرجنديا وبروفانس ولبارديا وبقية ايطاليا من بحر الشمال الى البحر المتوسط . وحصل المتولى على هذا القسم الأخير ، وهو لوثير ، لقب الامبراطور . ولكن أسرة لوثير انقرضت بسرعة ، وذهبت أملاكها الى ممثلى الأسرتين الباقيتين . وهكذا ظل الغرب مسرحا للفوضى وعدم الاستقرار فتسرة من الوقت الى أن قامت أسرة كاييه بفرنسا (٨٨٨ — ١١٣٧) وأسرة السكسون بألمانيا (٩١٩ — ١٠٥٦) . وقد أدت هذه التقسيمات المترايدة للغرب ، فى وقت أصبح فيه الاقطاع أساسا لنظام الحكم والحياة ، الى تأصل المحلية والبعد

نهائيا عن فكرة الحكومة المركزية ، وقيام أسرات اقطاعية كبيرة تحول ولاء الجماعات اليها .

وفي ظل هذا النظام أصبح المجتمع الغربى الوسيط مجتمعا هرميا على قمته الامبراطور ، ويأتى بعده الملوك ، فالكونتات ثم الفيكونتات ، ثم النبلاء فالبارونات فصغار الفرسان . وكان هذا الهرم يتكون من طبقات أفقية تتسع دائرتها كلما نزلنا الى أسفل ، الى أن نصل الى طبقة الأتقان ورقيق الأرض فى قاعدته العريضة . وأصبح كل سيد اقطاعى له نظمه وقوانينه وعملته ومحكمته الخاصة به التى يحتكم اليها أتباعه . كما أصبح له طواحينه وأفرانه ومعاصره التى تلجأ اليها أتباعه لطحن غلالهم وعصر كرومهم وخبز عيشهم . بمعنى أن الاقطاعية أصبحت وحدة اقتصادية مغلقة مكتفية ذاتيا بما تنتجه من مأكى وملبس ومشرب . وكان الفلاح يعيش داخل هذه الدائرة الضيقة من المهد الى اللحد ، دون أن يعرف شيئا عن العالم المحيط به .

وفي غمرة هذه الظروف تأكدت سلطة الجهاز الكنسى البابوى فى الغرب ، وانغمس فى الاقطاعية ، وأصبح رجاله رجال دين ودنيا فى نفس الوقت . وقد أدى هذا ، فى نهاية الأمر ، بجانب عوامل أخرى متعددة متفاوتة التأثير ، الى دخول البابوية فى صراع عنيف ضد القوى العلمانية وعلى رأسها الامبراطورية ، فى سبيل النفوذ والسلطان .

ومع كل ذلك ، يجب ألا ننسى دور هذا الجهاز فى احياء العلم والتعليم ، واحتكاره للحياة الثقافية فى الغرب وقتذاك . فلا شك أن المدارس العامة التى ألحقت بالمؤسسات الدينية ، من كنائس وأديرة وكاتدرائيات وابروشيات ، كانت المشعل الذى أضاء ظلمات العصور الوسطى المبكرة . كما ارتبطت بحركات الاصلاح العديدة التى ظهرت فى أوروبا . وقد ارتبط تأسيس تلك المدارس بالدين ، لأن الغرض الأصلى منها كان تثقيف الصغار ثقافة دينية بحثة تخدم أولا وأخيرا أهداف

الدين المسيحى ، واعدادهم لكى يصبحوا قساوسة فيما بعد ويخدمون فى سلك الكهنوت حسبما اسلفنا . وقد لقيت هذه المدارس لشجيع كبار رجال الدين والدنيا ، وعلى رأسهم البابوات والأباطرة والملوك .

أما الأديرة ، فقد ظلت ، بعد الاصلاح البندكتى ، تؤدى رسالتها التعليمية والثقافية كما كان الحال من قبل . وكانت الأديرة البندكتية لا تزال من أهم المراكز التى اعتنت بالدراسات الكلاسيكية القديمة ، لأنها كانت أقدم الأديرة التى تأسست بالغرب ، فضلا عن انتقال النهضة الكارولنجية إليها . وفيها نمت وازدهرت النزعة العلمية والأدبية والثقافية . وألحقت بها مدارس أصبحت مع الوقت معاهد علمية يشغل فيها الكثير من الرهبان بالنسخ والتأليف والمحافظة على ما تبقى من التراث القديم ، الى جانب مهنة التعليم . وعندما جاء الاصلاح الكلونى فى القرن العاشر ، لم يغفل القائمون على أمره هذه النزعة العلمية والأدبية التى تميز بها الاصلاح البندكتى ، انما شجعوها ورعوها .

ولكن احتكار الجهاز الكنسى فى الغرب لأمر الثقافة والعلم والتعليم ، وللنواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، وانزلاقه الى الاقطاعية ، أدى به فى النهاية الى تدهور وانحلاله ، وزوال هيئته ، وفقدان قدسيته ، وانفضاض الناس من حوله ، ودخولهم أفواجا فى المذاهب الدينية الجديدة التى طالبت باصلاح البابوية والكنيسة اللاتينية من المفاصد التى تغلغت فيهما ، ابتداء من أصغر قس حتى البابا نفسه . وكان هذا ايذانا بتخلخل الأوضاع والمفاهيم التى قامت عليها العصور الوسطى الأوروبية ، وتهيئة الجو لعصر جديد بمفاهيم جديدة مغايرة ، وهو عصر النهضة الذى يرتبط بالتاريخ الحديث والمعاصر ومدنيته الزاهرة العملاقة .

ورثة الامبراطورية الرومانية

الغرب الجرمانى – العالم الاسلامى – الدولة البيزنطية

مقدمة المؤلف

في عام ٥٩٣ أو ٥٩٤ م كتب البابا جريجورى الأول المراثاة التالية يصف فيها الحالة التى وصل اليها العالم (آنذاك) :

« اننى اتساءل : هل ثمة جديد يبعث على الرضا والسرور فى هذا العالم ؟ ففى كل مكان نلاحظ النزاع والصراع ، وفى كل مكان نسمع الآهات والأنين • وهاهى المدن تدمر ، والقلاع تهدم ، والحقول تقفر من سكانها • وأصبحت الأرض خاوية ، فخلت الحقول من الفلاحين ، ولا يكاد يوجد سكان فى المدن • أما الباقون على قيد الحياة ، فهم حثالة فقيرة للانسانية يتم سحقها دون انقطاع • ومع ذلك فضربات العدالة الالهية لا نهاية لها ، لأنه بين هذه الضربات لم ينصلح المذنبون الذين يقترفون المعاصى والآثام • فالبعض وقعوا أسرى ، بينما فقد البعض الآخر أطرافهم ، وقتل البعض • وها أنا ذا ، مرة أخرى ، أسأل اخوتى: ماذا قد تبقى من بهجة ؟ أن نحب عالما مثل هذا ، فليس ذلك لاننا نحب أفراحه ، بل أتراحه وبلاياه • أنظروا ما حدث لروما التى كانت فى يوم ما سيدة العالم • لقد انهارت تحت وطأة فيض من الأحزان ، كما أنهكها هجر مواطنيها لها وهجمات أعدائها عليها ، فضلا عن مختلف أنواع الدمار التى ألت بها • وهكذا نرى أنه قد تحقق ما جاء على لسان (حزقيال) النبى منذ أمد بعيد عن مدينة السامرة • »

وبعد اعطاء جريجورى حقه الانسانى فى تضخيم متاعب عصره ، نجد أن هذه الجمل القليلة (التى فاه بها) تمدنا بنظرة دقيقة لحالة العالم المتمدين فى نهاية القرن السادس الميلادى ، وكذلك مشاعر الناس أصحاب الحس المرهف حيال هذه الأوضاع •

وان تحذير جريجورى لقرائه « أن يروا ما قد أصاب روما التى كانت فى وقت ما سيدة العالم » انما يشير ضمنا الى وجود اتجاهين

متصارعين أقلقا المجتمع في عصره • فكان ثمة في حوض البحر المتوسط نظم وأفكار قد انحدرت اليه رأسا من العصر الروماني وهي في أوج عظمتها • وقد خلقت هذه المخلفات في عقول بعض معاصري جريجورى وهما مشوبا بالغرور بأن حضارة روما مازالت قائمة • ومع ذلك فقد كانت هناك علامات واضحة بأن شيئا ما قد « أصاب » روما القديمة ، وأن بقايا الحضارة الرومانية قد فقدت كثيرا من حيويتها وسط تفاعل القوى الجديدة • وان فهم التاريخ بعد بابوية جريجورى ليحتاج الى معرفة هذا التفاعل بين القديم والجديد •

ولقد كان استمرار بقاء حكومة الامبراطورية الرومانية واحدا من المخلفات الرئيسية للحضارة الرومانية القديمة في القرن السادس الميلادى • فكان الحاكم في عصر جريجورى لا يزال يلقب نفسه امبراطورا Imperator أو اوغسطس Augustus (أى العظيم) • وأصبحت القسطنطينية ، مركز الحكومة الامبراطورية ، هي عاصمة بعد أن نقلها (الامبراطور) قسطنطين (الكبير) من روما عام ٣٣٠ م • ولم يكن هذا بمثابة اعتراف بأنهيال الامبراطورية الرومانية ، وانما كوسيلة للتغلب على مشاكلها (بما يتفق ومقتضيات الظروف والأوضاع الجديدة) اذ غزت القبائل الجرمانية بعض أقاليم الامبراطورية النائية • ومع ذلك فلم تستطع هذه الغارات الفاجحة التى شنها البرابرة اقناع معظم سكان العالم الرومانى بأن روما قد « سقطت » بأى حال من الأحوال • ذلك أن البرابرة الذين تركزوا بصفة رئيسية في الغرب ، قد اتحدوا مع الامبراطورية بوصفهم حلفاء للحكومة الرومانية ، وبذلك اعترفوا بسيادة امبراطور القسطنطينية • وكان الامبراطور جستنيان Justinian (٥٢٧ — ٥٦٥ م) قد استعاد قبيل بابوية جريجورى (الكبير) مباشرة بعض المقاطعات الغربية من حكامها الجرمان ، دالا بطريقة عملية على أن روما مازالت على قيد الحياة ، حتى وان كان مركزها قد أصبح على البسفور ، وان كانت بعض أراضيها قد وقعت في قبضة البرابرة دون

رجعة • وفوق ذلك ، فقد استمر أباطرة القرن السادس الميلادى فى ادارة
نسئون الدولة طبقا للأساليب السياسية التقليدية • فقادوا الفرق
العسكرية دفاعا عن الامبراطورية ، وأحاطوا أنفسهم بهالة من العظمة
والأبهة ، فضلا عن الطقوس والاحتفالات المتعلقة بمنصبهم القديم • كما
فاموا بالعديد من الأعمال لضمان السلام والرخاء لرعاياهم • ومازال
الأباطرة يسيرون دفعة بيروقراطية منظمة تنظيما جيدا ، ويجمعون دخلا
هائلا ، وينظمون الحياة الاقتصادية والاجتماعية لشعب كبير • كل هذه
العوامل مجتمعة جعلت الامبراطور الرومانى شخصية لها أهميتها فى
عالم البحر المتوسط •

وكان المسيحية رباطا ظاهريا آخر للوحدة التى تربط شعوب حوض
البحر المتوسط • وقد اعترفت الدولة الرومانية أخيرا بالمسيحية بعد
صراع طويل (بينها وبين الوثنية وعبادة الامبراطور) ، تمكن خلاله أتباع
المسيح من تكييف عقيدتهم لتلائم احتياجات العالم الرومانى • وكان
اعترافها بها مبكرا يرجع الى أوائل القرن الرابع الميلادى • وفى نهاية
ذلك القرن أصبحت الدين الرسمى للدولة، وغدت الامبراطورية الرومانية
« امبراطورية رومانية مسيحية » • وبالرغم من المشاحنات المريرة التى
قامت بين المسيحيين وبعضهم البعض ، الا أن الدين الجديد زود عالم
البحر المتوسط فى القرون الرابع والخامس والسادس الميلادية بعنصر
قوى من عناصر الوحدة • وكانت العقيدة المسيحية وطقوسها وتنظيمها
أساسا عاما استطاع أن يلتقى عنده جميع الناس على اختلاف أجناسهم •

وفى النهاية كان ثمة بقايا لها دلالتها وأثرها من التراث الثقافى
اليونانى — الرومانى السابق ، لاتزال موجودة فى نهاية القرن السادس
الميلادى • وهذه قوة أخرى شديدة تدفع الناس الى التفكير بأن العالم
القديم لا يزال على قيد الحياة • فما زال الأدب والفلسفة والفن والعمارة
المرتبطة بالعصر الكلاسيكى تلعب دورا حيويا فى حياة رجال العلم فى كل
مكان حول البحر المتوسط • ومازالت مستويات التفوق والابداع ،

والأسلوب ، والجمال ، تقاس بمعايير يونانية رومانية • وثمة حقيقة دعت الى استمرار بقاء هذا التراث الثقافى على وجه الخصوص ، هى أن المسيحيين قد وجدوا أنه ضرورى لمواجهة الأفكار الوثنية والتصدى لها ، ولتوضيح فلسفتهم اللاهوتية وتدعيمها • ولم تستطع حتى أعنف الهزات التى سببتها غزوات البرابرة أن تقض تماما على التراث الثقافى القديم •

لذا كان من الممكن الاعتقاد بأن الحضارة الرومانية بخصائصها السياسية والدينية والثقافية مازالت قائمة تجلب « البهجة والسرور فى العالم » ، ولتكون أساسا وجود ثقافى يحيط بعالم البحر المتوسط ، وهو الأمر الذى يمكن تبريره تبريرا جزئيا لبعض معاصرى البابا جريجورى • ومع ذلك تعكس مراثاة جريجورى الحقيقة الرهيبة بأن آلاما وبلايا عديدة قد قوضت بقايا الحضارة الرومانية ، الأمر الذى أثار شكوكا خطيرة فى أذهان المعاصرين عن قدرة روما فى تجنب الانهيار النهائى التام • وقد ثار الخلاف بين العلماء حول فترة المرض الذى أصاب الحضارة الرومانية ، وكذلك الحد الفاصل للازمة النهائية • ولكن وجدت بكل تأكيد علامات قوية تشير بأن الموقف كان محفوفًا باليأس فى نهاية القرن السادس الميلادى •

وكانت الحالة السياسية للامبراطورية الرومانية قد هيات أسباب القلق • فمع أن الأباطرة الذين حكموا فى القسطنطينية قد طالبوا بممارسة سلطتهم على جميع بلاد الامبراطورية القديمة ، وقد مارسوها بالفعل فى بعض المناطق والجهات ، الا أن قوتهم الفعلية لم تكن تعادل دعاويهم • ففى الغرب استقرت عدة شعوب جرمانية استقرارا تاما فى أراض كانت فى يوم ما جزءا من الامبراطورية الرومانية ، ولم تعبأ على الإطلاق أثناء حكمها لادعاءات امبراطور القسطنطينية بالسيادة والسيطرة فقد أقام الفرنجة فى غالة وغرب المانيا ، والقوط الغربيون فى اسبانيا ، والمبارديون فى ايطاليا ، والأنجلو سكسون فى بريطانيا • ونادرا ما أقام

هؤلاء السادة الجرمان حكومة مستقرة يسودها السلام كتلك التي ميزت النظام الرومانى الامبراطورى . فعندما شكّا جريجورى من الخراب والبؤس (اللذين حلا بالعالم الرومانى) ، انما كان فى الواقع يشير الى أنوار الدمار التى أحدثها اللبارديون الجرمان فى ايطاليا الذين تحدوا الأباطرة الرومان فى سيطرتهم على شبه الجزيرة الايطالية بعد عام ٥١٨م . وكان لابد للفوضى والصراع فى الغرب أن يثيرا الشكوك العنيفه الجادة فى عقول أولئك الذين مازالت تراودهم فكرة استمرار الحضارة الرومانية وكنتيجة للاستقلال الذى تتمتع به سادة الغرب الجرمان ، أصبح أمرا تقليديا عند مناقشة التاريخ السياسى للقرن السادس أن يتطرق الحديث الى « امبراطورية رومانية شرقية » « Eastern Roman Empire » أكثر من الكلام عن « امبراطورية رومانية » « Roman Empire » . ولقد واجهت السلطة الامبراطورية ، حتى فى الشرق ، مشاكل رهيبه . وكان أشدها خطرا هو الدفاع ضد الفرس والسلاف والآفار . وواجهت الحكومة الامبراطورية مزيدا من الصعاب فى سبيل جمع الأموال وحشد القوى البشرية للتصدى لهذه التهديدات . ورغمما عن كل تقاليدنا المجيدة وادعاءاتها الضخمة ، لم تكن الامبراطورية الرومانية فى القرن السادس الميلادى هى نفس الامبراطورية القديمة .

ولم يكن هناك شيء شبيه بالوحدة الدينية بالرغم من الحقيقة المعروفة وهى أن المسيحية كانت قد أصبحت دين جميع الناس تقريبا فى حوض البحر المتوسط ، لانه فى جيل جريجورى الأول كان رداء المسيح المكون من قطعة واحدة قد تمزق من نواح عدة . فقد تصارع كثير من كبار رجال الكهنوت من أجل زعامة العالم المسيحى . وكان أساقفة روما والقسطنطينية والاسكندرية وأنطاكية أشدهم اصرارا على هذا المطلب ، وقد اتخذوا جميعا لقب « البطريرك » ، دالين بذلك على تفوقهم على غيرهم من الأساقفة . وتولدت الخصومات نتيجة لهذه الادعاءات ، واشتدت المشاحنات وزادت مرارتها ، وبخاصة بين روما والقسطنطينية ،

والتي اشعلتها الخلافات حول ممارسة الطقوس الكنسية التي فرقت بين الجماعات المسيحية وبعضها البعض . ولكن أكثر الأسباب مدعاة للانقسام والفرقة ، تلك النزاعات المذهبية التي اشتد أوارها في العالم المسيحي . وأخصها بالذكر ذلك الخلاف الذي استمر طويلا حول الثالوث وطبيعة المسيح . ولقد بدأ هذا النزاع في القرن الرابع الميلادي ، وتمخضت عنه العديد من المذاهب المسيحية خلال الأجيال المتعاقبة . كما طالب أباطرة القسطنطينية بأن يكونوا هم رؤساء الكنيسة ، وأبدوا رغبتهم في التمسك بالوحدة الدينية والمحافظة عليها ، وسعوا مرارا وتكرارا في سبيل الوصول الى حل يرضى الأطراف المتنازعة . ولكنهم نجوا فقط في توسيع رقعة هذا الشقاق . ذلك أن الاختلافات المعقدة العامة في النواحي التنظيمية والطقسية والعقائدية جعلت المسيحي يقف ضد أخيه المسيحي . وهكذا أثبت النزاع بطلان القول بأن الايمان بالمسيح يجمع جماعة المؤمنين معا في مجتمع واحد .

أما الوحدة الثقافية التي تباها بها الى حد المغالاة ، فقد تحولت هي الأخرى من كونها حقيقة الى مجرد خيال . اذ مضى الوقت الذي كان يتميز فيه الرجل المتعلم في عالم البحر المتوسط بقدرته على استخدام اللغتين اللاتينية واليونانية بسهولة . ولم يكن جريجوري العظيم يتكلم اليونانية ، مع أنه كان بلا شك واسع العلم وفقا لمعايير الغرب . وخلال القرن السادس بدأت اللغة اليونانية تحل محل اللغة اللاتينية ، وذلك باعتبارها لغة الادارة الامبراطورية في القسطنطينية . وازداد هذا الأمر تأكيدا رسميا بوجود حاجز لغوي عمل على انقسام الحياة الفكرية لمجتمع البحر المتوسط . أما في الغرب فقد جعل نفوذ الجرمان البرابرة من الصعب جدا الاحتفاظ بروابط مع الثقافة اللاتينية الكلاسيكية . وغدت الأديرة أكثر فأكثر الملاذ الوحيد الذي يمكن بداخله مزاولة أى مظهر من مظاهر النشاط الأدبي أو العلمي . فقد كان الرهبان الذين نذروا أنفسهم أساسا لخدمة الله ، وهم الفئة المنتقاة فيما يتعلق بوجهات

نظرهم حيال الثقافة الكلاسيكية ، وكانوا يميلون الى الابقاء على ما يساعد على النهوض بالدين واذكاء روح التقوى والتصوف . أما في الجهات الشرقية النائية من العالم الرومانى القديم ، فكانت توجد فورة من التقاليد الثقافية المذهبية الخاصة بمصر وسورية وفارس التى قدمت اضافات لها وزنها الى ما يطلق عليه الآن الثقافة اليونانية الرومانية ، وبخاصة فى العصر الهلينستى الذى جاء بعد أعمال الاسكندر الأكبر فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد . ولقد بدت هذه المؤثرات الشرقية ، لفترة ما على الأقل ، عندما كانت القوى الرومانية فى أوجها ، وقد امتزجت فى وحدة ثقافية سادت جميع أنحاء عالم البحر المتوسط . أما شعوب الشرق الأدنى فلم تفقد أبدا شخصيتها أو ذاتيتها ، ولم تقبل أسلوب الحياة اليونانية الرومانية بحذافيره . فعندما بدأ الثقل الداخلى والضغط الخارجى يضعفان من الروابط السياسية للامبراطورية الرومانية عادت التقاليد القديمة لتؤكد وجودها ، مبينة أن الوحدة الثقافية السابقة كانت ظاهرة أكثر منها حقيقية .

وبناء على ذلك ، فان مرثاة جريجورى تعكس حالة مجتمع وصل الى نقطة دقيقة فاصلة فى تاريخه ، كما تعكس عالما سادته حالة شديدة من التوتر . فكانت التقاليد القديمة الخاصة بالوحدة السياسية والدينية والثقافية لا تزال قائمة فى القرن السادس ، وقد بثت فى الناس روح الأمل فى أن العناصر الجوهرية للنظام القديم قد تستمر (بعد زوال الامبراطورية الرومانية) . ومع ذلك ، فان مظاهر البؤس البادية للعيان والسائدة فى ذلك العصر ، وبعضها يرجع الى قرون طويلة مضت كانت قد غمرت قلوب بعض الناس باليأس بشكل واضح . وربما اتفق الكثيرون مع جريجورى فى أن تلك الكروب والأحزان البالغة الشدة استطاعت فقط أن تبين أن يد الله كانت تعمل بلا رحمة أو هوادة فى سبيل اسقاط « سامرة » عصر جريجورى ، أى روما . وكان الأمل واليأس هما القطبين اللذين تعلقت بهما أفئدة الناس أصحاب الحس المرهف فى القرن السادس . وكان لا بد أن تتمخض عن عقول هذه شأنها

فى العصر التالى ، سلسلة كاملة من التطورات التى فكت قيود التوتّر ،
وقررت الى الأبد مصير العالم القديم •

وهدف هذه الدراسة الكشف عن القوى التى وضعت نهاية للوهم
الذى عاش فيه أناس القرن السادس الذين تصوروا أن الحضارة
اليونانية الرومانية كانت لا تزال قائمة ، والتى جعلت الوعى المعاصر
لفجر عصر جديد حقيقة واقعة • فلم تكن ثمة وسيلة يتعرف بها جريجورى
العظيم على ما يخبئه القدر للعالم المشتت المتدهور من حوله • اذ شهد
حوض البحر المتوسط فى القرون الثلاثة التى تلت بابويته ثلاثة مجتمعات
جديدة فريدة فى نوعها حلت محل الحضارة الرومانية التى تميزت بطابع
الوحدة ، واحتل كل مجتمع منها جزءا من أجزاء الامبراطورية الرومانية
القديمة ، وكان متجانسا معها الى حد ما • ومع ذلك ، فقد امتدت رقعة
كل من هذه المجتمعات فيما وراء حدود روما ، وشملت مظاهر جديدة لم
تكن معروفة للعالم القديم • وقد عرفت هذه الحضارات الثلاث الجديدة
عادة ، بالحضارة الأوروبية الغربية ، والحضارة البيزنطية ، والحضارة
الاسلامية • وربما كانت بعض الظواهر والتطورات القليلة فى تاريخ
العالم ذات أهمية تفوق قيام الحضارات الثلاث من أعماق عالم تدل
سماته على أنه أصبح قديما وجديدا (فى ذات الوقت) • وقد ترك
الازدواج فى أصل هذه الحضارات آثاره على العالم الحديث ، وجعل
من الأهمية بمكان أن نتعرف على القرون التى قامت فيها عوالم جديدة
فوق أنقاض روما وحطامها •

الفصل الأول

ورثة الحضارة الرومانية

التغيير الذى طرأ على الامبراطورية الرومانية الشرقية :

- الأراضى المفقودة
- اعادة تنظيم الامبراطورية من الداخل
- التغييرات الدينية

مولد الحضارة الاسلامية :

- بلاد العرب قبل الاسلام
- النبى محمد (ﷺ)
- الدين الاسلامى
- الفتوح الاسلامية
- التطور الداخلى

المجتمع الأوروبى الغربى :

- الفوضى السياسية
- التطور الاقتصادى والاجتماعى
- الحياة الدينية فى غرب اوروبا
- التطور الثقافى

تتناول هذه الدراسة التطور التاريخي الذي يشغل الفترة الممتدة من حوالي عام ٦٠٠ م وحتى عام ٧٥٠ م • ففي خلالها تهاوت الوحدة لتفسح المجال أمام أنقسام ثلاثي في منطقة البصر المتوسط • وهكذا أصبح العالم الواحد ثلاثة عوالم • وأول ما يتميز به هذا العصر هو تقلص الامبراطورية الرومانية على طول الخط ، وما ترتب على ذلك من تحول داخلي عنيف لتلك الدولة • وقد بلغ من عنف هذه التغيرات أن بعض المؤرخين الحديثين وجدوا أنه ليس من الدقة بمكان التحدث عن « امبراطورية رومانية » ، أو حتى عن « امبراطورية رومانية شرقية » في القرن الثامن الميلادي • وحاولوا أن يحلوا محلها الاصطلاح المعروف بـ « الامبراطورية البيزنطية » نسبة الى بيزنطة «Byzantium» المدينة الاغريقية القديمة التي اختارها قسطنطين (الكبير) مقعاً لعاصمته الجديدة ، وأطلق عليها اسم القسطنطينية • وكان المحاربون العرب هم العامل الأساسي الفعال لهذا التحول ، وهم الذين غزوا بعد قرن من انتقال الرسول ﷺ الى جوار ربه سنة ٦٣٢ م مبراطورية ضخمة تمتد من موطنهم في الجزيرة العربية غرباً عبر افريقية الى اسبانيا ، وشرقاً الى بلاد الهند والصين • ولم يكن الهجوم الغربي ، ببساطة ، غزوة بربرية أخرى كتلك الغارات التي تعرضت لها روما من قبل • فالغزاة الجدد كان يدفعهم الاسلام ، ذلك الدين الجديد الذي نادى به محمد ﷺ • وكان الاسلام يمثل قاعدة خلاقة مبدعة نتجت عنها حضارة جديدة • وفي تلك الأثناء كانت أوروبا الغربية تعاني من الركود والتخلف • وقد حارب بعض حكامها الجرمان وعدد قليل من قادتها ، في مجال الأمور الروحية والثقافية ، معركة خاسرة ضد الفوضى والبربرية • ويمكن أن نطلق على هذا العصر ، في شيء من الانصاف ، أنه « عصر الظلام » في الغرب • ومع ذلك ، فان الجهود الضعيفة الأولى التي بذلت لتطوير النظم والافكار ، حتى في غمرة هذا الظلام ، كانت مناسبة للأوضاع التي كانت قائمة وقتها في الغرب • وانبثقت من هذه الجهود أصول حضارة جديدة هي حضارة الغرب الأوروبي •

التغير الذى طرأ على الامبراطورية الرومانية الشرقية

طالما اعتبر حكم جستنيان الأول (٥٢٧ — ٥٦٥ م) نقطة تحول فى الانتقال من حضارة « رومانية » قديمة الى حضارة « بيزنطية » جديدة وان الشواهد المرتبطة بهذا العصر تشير فى الواقع الى أن جستنيان المحافظ الذى كان يرجع بناظره الى الوراء ، لم يكن يقلقه شيئا أكثر من أن يتهم باسهامه فى انهيار النظام الرومانى القديم . فقد كانت جهوده الرئيسية موجهة نحو ارجاع الامبراطورية الى ما كانت عليه أكثر من الخلق والابداع . وقد تميز حكمه بالنشاط الذى دب فى صميم المجتمع الرومانى ، والذى افتقده منذ القرن الرابع الميلادى .

وكان جل اهتمامه يكمن فى استعادة الأراضى التى اغتصبها الغزاة الجرمان من الامبراطورية الرومانية . وبعد أن قام بتعبئة جميع موارده المالية والعسكرية والدبلوماسية ، استطاع أن يوجه جيوشه لاعادة غزو شمال افريقية من قبضة الوندال Vandal ، وايطاليا من قبضة القوط الشرقيين Ostrogoths ، وجزءا صغيرا من اسبانيا من قبضة القوط الغربيين Visigoths . وبذلك أعاد من جديد السيطرة المباشرة على المناطق الخصبة التى بدا أنها انتقلت من أيدي الرومان الى أيدي الجرمان . ومع أن مطامع جستنيان فى استعادة كل اسبانيا وغالة لم تتحقق الا أنه ظل يحكم امبراطورية ضخمة تشمل شمال افريقية ومصر وسورية وفلسطين وآسيا الصغرى وشبه جزيرة اليونان وشبه جزيرة البلقان جنوب الدانوب وايطاليا وجزءا صغيرا من اسبانيا وقد طبق البيروقراطيون الذين يحملون الألقاب الرومانية القديمة ، والذين كانوا يعملون طبقا للأساليب الادارية الرومانية القديمة — طبقوا الأوامر الامبراطورية فى هذه الولايات . وكان الامبراطور العظيم يقبض على أعنة الحكم من قصره المقدس فى القسطنطينية ، وقد أحاط نفسه بهالة من العظمة والفخامة التى كانت فى تزايد تدريجى بطىء اعتبارا من القرن التالى . ونفذت هيئة من الموظفين المدنيين المتخصصين

الشديدى التنظيم ، والذين كان « القصر المقدس » عامرا بهم ، كل رغبة من رغباته . فكان موظفو الامبراطور يجمعون الضرائب ، ويحشدون الجند ، ويوجهون الحياة الاقتصادية ، ويتراأسون المحاكم ، ويحفظون الأمن والنظام ، وفقا لنفس الاسلوب الذى اتبعه الأباطرة الذين جاءوا بعد اصلاحات دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م) . فكان جمع وتنسيق القانون الرومانى تحت اشراف جستينيان ، الى حد كبير ، محاولة لحفظ تقاليد روما القديمة ، خاصة تلك التى انبثقت من العصر الذى أصبحت فيه المسيحية هى دين الدولة ، وذلك بهدف خدمة حكومة شديدة المركزية ذات كفاءة ممتازة . وكان جستينيان أيضا ، جريا وراء الأسلوب الذى اتبعه معظم أسلافه منذ قسطنطين ، يعتبر نفسه امبراطورا مسيحيا وامبراطورا رومانيا فى نفس الوقت . أما فيما يختص باضطراره بمسؤولياته الدينية ، فقد جعل كافة الأمور الدينية تحت اشرافه . فحاول فرض صيغة دينية موحدة (تستهدف القضاء على النزعة المذهبية الانفصالية التى بدت واضحة بين الكنائس المسيحية وقتها) على جميع رعاياه ، مع التأكيد من أن شاغلى الوظائف الكنسية الكبرى هم رجال مؤهلون يمكن الاعتماد عليهم ، وكذلك اجتثاث الهرطقة والانشقاق الدينى أينما وجدا . كما نجحت جهود جستينيان فى النهوض بالتجارة والصناعة والزراعة . وكان الامبراطور لا يقل عن أسلافه حماسة فى مناصرته للعلم والفن . وهكذا خلف لنا آثارا مثل الجامعة المسيحية ، وكاتدرائية أيا صوفيا العظمى بقبتها الفخمة وداخلها الموشى بالذهب بهدف تجميل القسطنطينية وتمجيد اسم الامبراطور . وفى منتصف القرن السادس الميلادى كانت « روما الجديدة » لا تقل اطلاقا عما كانت عليه « روما القديمة » ، من حيث اتساعها وغناها ونظام حكمها الجيد . وربما كانت المقاطعات الخاضعة لحكمها أقل ، وربما كان ينقصها شيئا من الحماسة القديمة للحضارة اليونانية الرومانية ، بين جماهير الشعب ، وربما كانت المؤثرات اليونانية أقوى مما كانت عليه من قبل — الا أنها

مع كل ذلك ظلت رومانية في جوهرها وصميمها • وكان من المقدر لها أن تظل باقية السنوات الطوال لتؤكد نجاح جستنيان كباعث لها من جديد •

الأراضي المفقودة

أدرك خلفاء جستنيان أن ما قام به الامبراطور العظيم في سبيل استعادة ولايات الامبراطورية لم يدم طويلا ، بل أدركوا أنه أمر جد خطير • ذلك لأن الموارد (المالية) التي أنفقت على غزو افريقية وإيطاليا قد أضعفت الامبراطورية أمام أعداء أشد خطرا كانوا ينتشرون على طول حدودها الشرقية والشمالية • فقد منيت امبراطورية جستنيان خلال قرن ونصف بعد حكمه بهزائم عسكرية منكرة الواحدة تلو الأخرى

ونشبت أول أزمة خطيرة خلال النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ، عندما وجه اليها الأعداء الخطرون الضربات من الغرب والشمال والشرق • ففي عام ٥٦٨ م ، أي بعد وفاة جستنيان بثلاث سنوات فقط ، غزا اللمبارديون الجرمان إيطاليا واستولوا على معظمها ، ماعدا الجزء الجنوبي منها وصقلية وحزام يمتد منحرفا عبر وسط إيطاليا من رافنا الى روما • وتوالى هجمات اللمبارديين لمدة قرنين من الزمان على الجزء المتبقى من الأراضي البيزنطية في إيطاليا • وقام الآفار على حدود الدانوب ، الذين كانوا يمثلون قوة جديدة ، بتكوين امبراطورية لهم نحو عام ٥٨٠ م ، وسرعان ما هددوا حدود الامبراطورية • وبينما كان خطر الآفار آخذا في الازدياد ، تسربت جماعات من السلاف حاولت الهروب من سيطرة الآفار ، عبر الحدود واستقرت في البلقان ، وتسببت في أضعاف قبضة الامبراطورية هناك • أما في الشرق ، فقد بدأت الامبراطورية الفارسية التي خلدت الى السلام أثناء حكم جستنيان بما أغدقه عليها من مال ، لتستأنف سياسة الهجوم • وركزت الحكومة الامبراطورية مواردها على هذه الحدود بدرجة متزايدة ، ولكنها لم تستطع الجيلولة دون ضياع أرمينية وسورية وفلسطين ومصر مع بدايات القرن السابع الميلادي •

ان أزمة العقود الأولى من القرن السابع لم يكن مرجعها كلية الى
عنف الهجمات التي شنّها اللامبارديون والآفار والسلاف والفرس • فقد
كانت الأعباء الثقيلة التي فرضها جستنيان على رعاياه شديدة الوطأة
عليهم ، و خلقت مشكلات داخلية داخل نطاق الامبراطورية الرومانية
الشرقية • كما أزعجت حكومته الاستبدادية عناصر هامة من السكان ،
وعلى الأخص طبقة الأرستقراطية التي حالت دسائسها على الدوام دون
قيام الدولة بعملها على خير وجه • وكثيرا ما شجعت العناصر المعارضة
داخل الجيش هذه الدسائس والمؤامرات • وكانت أشدها خطرا على وجه
الخصوص تلك الفتن والاضطرابات الدينية التي لم تتوقف ، والتي
أثارتها جهود الأباطرة المستمرة لفرض الوحدة الدينية في أمور العقيدة •
ووجد الأباطرة أن كل اعلان يتعلق بالشئون العقائدية يبعد قطاعا من
سكان الامبراطورية • وعلى العموم ، فقد اتبعت الحكومة سياسة دينية
سببت نفور المسيحيين في المناطق الشرقية من الامبراطورية ، وبخاصة في
كل من مصر وسورية ، وجعلتهم يرحبون بالغرباء الذين قد يحررونهم
من هذا النير الديني الذي فرضه عليهم الامبراطور وخادمه بطريك
القسطنطينية • وهكذا فان الضربات الى انهالت كالسيل الجارف من
جميع الجهات على الامبراطورية التي « أعادها » جستنيان فخورا قبل
ذلك الوقت بنصف قرن من الزمان ، هزت بعنف النظام الداخلي في
النواحي الاجتماعية والسياسية والدينية • وقد بد أن بدايات القرن
السابع كانت تحمل نذر شئوم تنبئ بأنهيـار الامبراطورية السريع •

ومع ذلك ، عندما اعتلى الامبراطور العظيم هرقل (٦١٠ — ٦٤١م)
العرش ، اكتشفت الامبراطورية ، القوة الكامنة فيها لتجنب كارثة تامة •
فعمل هو وخلفاؤه على اعادة تجميع موارد الامبراطورية وصد هجمات
الغزاة • وبدأ هرقل سياسته الدفاعية الجديدة ببعض العمليات القوية
ضد الفرس والآفار • وأنزلت القوات الامبراطورية بالجيش الفارسي
فيما بين عامي ٦٢٢ ، ٦٢٨ م هزيمة ساحقة • واستعادت بذلك ولاياتها
الشرقية الغنية في سورية وفلسطين ومصر ، والتي قد اكتسحها الفرس

فيما بين عامي ٦١١ ، ٦١٩ م ، في الوقت الذي كان فيه هرقل يعمل على تنظيم الجيش والادارة • وفي غمرة الحروب الفارسية كان الآفار قد توغلوا كثيرا في البلقان ، برهنجموا القسطنطينية نفسها • ولكن تم دفعهم عنها عام ٦٢٦ م وسط مشاهد مثيرة من الوطنية الشعبية والحماسة الدينية التي كانت نتيجة لجهود البطريك الذي أقام صلوات ليلية مستمرة ، فضلا عن الخطب والعظات والمواكب الدينية • وبذلك لم يعودوا يهددون أمن الامبراطورية أو يعرضون سلامتها للخطر •

ولم يكن الكفاح ضد الآفار والفرس سوى مقدمة لمعارك دفاعية أشد ضراوة شنتها الحكومة الامبراطورية • فحوالي عام ٦٣٤ م بدأ العرب أتباع محمد (ﷺ) أولى هجماتهم مندفعين من موطنهم في قلب الصحراء وما لبث هؤلاء المحاربون المتمسكون بأهداب دينهم أن استولوا على أقاليم حيوية من الامبراطورية الرومانية الشرقية بسرعة مثيرة للدهشة • وأقاموا بفتوحاتهم دولة جديدة استمرت تهدد جيرانها في منطقة البحر المتوسط فترة طويلة من الزمن • وفيما بين عامي ٦٣٤ و ٦٣٨ م سقطت سورية وفلسطين في قبضة العرب على الرغم من جهود هرقل العسكرية المستميتة (للابقاء عليهما) • وتعزى الهزيمة ، الى حد ما ، الى سياسة الامبراطور الدينية • لقد انفض أهالي هذه البلاد من حول الامبراطور بسبب جهوده الرامية الى البحث عن توفيق لاهوتي في المبادئ الدينية يمكن به مصالحه أتباع المذهب المونوفيزي في الولايات الشرقية ، وهو المذهب القائل بأن للمسيح طبيعة لاهوتية واحدة • هذا ، بينما كان رأى المسيحيين الآخرين في الامبراطورية هو أن المسيح له طبيعتان احدهما انسانية أو بشرية والأخرى الهية أو لاهوتية • وبذلك فضل كثير من المسيحيين الذين يقطنون في تلك الجهات حكم العرب عن سياسة القهر التي فرضتها عليهم القسطنطينية • وعندما مات هرقل عام ٦٤١ م كان العرب يوجهون هجماتهم ضد مصر ، ولم يستطع خلفه كونسطنس الثاني (٦٤١ — ٦٦٨ م) أن يحول دون ضياع

تلك المقاطعة الغنية • وفي أواخر عام ٦٤٠ م بدأ المسلمون في التحرك غربا عبر شمال افريقية • وعند نهاية القرن كانوا قد استولوا على المقاطعات الخاضعة للامبراطورية في افريقية ، وأصبح بوسعهم مهاجمة أوروبا عن طريق اسبانيا • ومع ذلك لم تستطع حكومة القسطنطينية مقاومة المسلمين في ذلك الميدان البعيد ، لأنهم كانوا يقرعون أيضا أبواب القسطنطينية ذاتها • وبينما كانت جيوش العرب تتقدم منتصرة ، بدأ العرب في انشاء قوة بحرية لهم ، وبذلك دخلوا في نضال من أجل السيطرة على البحر المتوسط • وهكذا وجدت القوات الامبراطورية نفسها تقف موقف الدفاع • وازدادت قوة المسلمين البحرية بدرجة هائلة ، حتى أنها تمكنت بالفعل أثناء حكم قسطنطين الرابع (٦٦٨ — ٦٨٥ م) من سد المسالك البحرية المؤدية الى القسطنطينية ، بينما أخذت القوات العربية في الاغارة على آسيا الصغرى سنويا • وفي النهاية نجح قسطنطين الرابع عام ٦٧٨ م في الحاق الهزيمة بالمسلمين الذين كانوا يحاصرون عاصمته ، وأجبرهم على طلب الهدنة • وكان العامل الحاسم في صد الأسطول العربى هو استخدام القوات البيزنطية للنار الاغريقية المخيفة ، وهى عبارة عن خليط كيميائى أمكن القاءه وسط حشود العدو البحرية بواسطة آلة خاصة تفجر لها مستعرة لا يطفئها الماء • وكانت هذه من أولى الهزائم التى منيت بها جيوش العرب المظفرة •

ومع ذلك ، فإن صد المسلمين عام ٦٧٨ م لم يتح للامبراطورية المحاصرة من جميع الجهات سوى مهلة بسيطة • ذلك لان قوة جديدة كانت آخذة في الظهور في الشمال وهى مملكة البلغار • وكان الضغط على الحدود الشمالية أثناء حكم هرقل قد خفت وطاقته بهزيمة الآفار عام ٦٢٦ م • وأخذ كثير من السلاف في السنوات التالية في الاستقرار في شبه جزيرة البلقان ، ولكنهم قلما كانوا يمثلون تهديدا عسكريا مباشرا • أما بالنسبة للبلغار فقد كان الوضع مختلفا تماما • اذ استقر هذا الشعب الآسيوى الذى يتعشق الحرب عند مصب نهر الدانوب حوالى عام ٦٥٠ م

وكان الأباطرة (البيزنطيون) في ذلك الوقت سعداء لاستخدامه ضد الآفار • ولكن سرعان ما دب الخلاف بين البلغار والقسطنطينية • وفي عام ٦٧٩٠م هزموا قسطنطين الرابع وأرغموه على التنازل لهم عن بعض الأراضي ، وعلى الاعتراف بدولتهم كمملكة • ثم واصل البلغار هجماتهم ضد أراضي الامبراطورية في السنوات التالية • وأصبحوا ، وقد ازدادت قوتهم باندماج السلاف في مملكتهم ، يشكلون خطرا دائما بالنسبة للقسطنطينية • وبذلك أثقلوا كاهل الأباطرة الذين ذاقوا مرارة التجربة بهذا العبء الاضافى الخاص بالدفاع عن الدولة •

وأخذ العرب يهددون الامبراطورية تهديدا خطيرا مرة أخرى في القرن الثامن الميلادى • اذ بلغ المسلمون في ذلك الوقت ذروة قوتهم العسكرية • وقد أعدوا أنفسهم اعدادا تاما للسيطرة على العالم المتحضر بأجمعه • وكانت قوة الامبراطورية قد انهارت بسبب سقوط أسرة هرقل، جددت الجيوش والقوات البحرية العربية هجومها على القسطنطينية، بعد أن تمكنت بالفعل من احتلال آسيا الصغرى والعبور كذلك الى اوروبا •

ومرة أخرى ظهر منقذ آخر في شخص ليو ذلك القائد العسكرى السورى الأصل الذى كان يتكلم العربية ، والذى كان يلقب عادة بلقب « الأيسورى » لتأكيد أصله الشرقى • ففى عام ٧١٧م قبض ليو الثالث (٧١٧ — ٧٤١ م) على أعنة الحكم ، في الوقت الذى كانت فيه القسطنطينية المحاصرة على وشك السقوط • ولكن قيادته الماهرة والتي تتميز بالعزم والتصميم ، أنقذت العاصمة عام ٧١٨م • واستطاع ليو في السنوات التالية اخراج العرب من آسيا الصغرى ، كما تمكن من اعداد دفاع يكفى لصد الخطر العربى لعدة سنوات ، وذلك بتقسيم كثير من الاقطاعات الكبيرة في الأراضي التى تم تحريرها الى مزارع صغيرة تقوم بأود الفلاحين الأحرار الذين يمكن تجنيد الجنود منهم • وحوالى منتصف القرن الثامن الميلادى عانى العالم الاسلامى من القلاقل

والاضطرابات الداخلية التي بلغت ذروتها بتغير الأسرة الحاكمة في عام ٧٥٠ م ، ثم توقف سيل التوسع الاسلامي السريع ، وخلال القرن الحادي عشر الميلادي قام الأتراك المسلمون بهجوم نشط هدد وجود الامبراطورية البيزنطية ذاته مرة أخرى .

وفي أواسط القرن الثامن الميلادي استطاع رعايا الامبراطورية استرداد أنفاسهم بسهولة . اذ تم انقاذ الامبراطورية الرومانية الشرقية من هجمات اللبارديين والآفار والفرس والسلاف والعرب والبلغار . ولكن فرحتهم كانت تشوبها الحقيقة التي أقاموا عليها ، وهي أن الامبراطورية قد انكمشت الى درجة ملحوظة ، كما أصابها التغير في تكوينها السلالي أثناء السنوات السابقة فكانت قد فقدت سورية وفلسطين ومصر وشمال افريقية ومعظم ايطاليا وجزءا من شبه جزيرة البلغار . وبينما كانت امبراطورية جستنيان الأول تتكون من عناصر جنسية وثقافية كثيرة متعددة ، غدت الامبراطورية المتقلصة في القرن الثامن يونانية في لغتها واتجاهها الثقافي . وكان هذا التغير الذي طرأ على حجمها وتكوينها ، في حد ذاته ، تبريرا للقول بأن امبراطورية « جديدة » يونانية في غالبيتها قد حلت محل الامبراطورية القديمة . وحل ، عادة ، اصطلاح « الامبراطورية » البيزنطية محل « الامبراطورية الرومانية الشرقية » للتدليل على هذا التغير .

اعادة تنظيم الامبراطورية من الداخل

عمل الحكام الذين تربعوا على العرش في الفترة الواقعة بين حكم كل من هرقل وليو الثالث ، أي بين عامي ٦١٠ و ٧٤١ م ، على النهوض بالامبراطورية بأقصى ما يستطيعون من مجهودات ثورية تستهدف تنظيم مصادر الدفاع المتاحة . وأدت جهودهم الى صبغ المجتمع البيزنطي بصبغة عسكرية . وكانت الحكومة الامبراطورية قد اعتمدت ، لفترة طويلة ، على الجند المرتقة الذين أثقلوا كاهل الدولة بعبء مضاعف في

سبيل الحصول على القوات القادرة وجمع الدخل الكافى للانفاق عليها . ولقد أجبرت الحروب المستمرة (التى عانت منها الامبراطورية) خلال القرنين السابع والثامن ، والتي نتج عنها فقدان المقاطعات الغنية والدخل الوفير ، أجبرت الأباطرة على البحث عن مصدر جديد للقوة العسكرية . وتمثل الحل فى وضع العبء العسكرى على عاتق الفلاحين الأحرار . وأمكنهم تحقيق هذه الغاية بمنح فئات معينة من الفلاحين ملكيات زراعية مقابل أداء الخدمة العسكرية . وأصبحت العادة المتبعة تتلخص فى توطين الفلاحين الجنود على طول الحدود المهددة لضمان خدماتهم عند الضرورة . وبذلك أصبح الفلاحين الجنود بسرعة هم عصب الامبراطورية . وقام هذا النظام الجديد على وجه الخصوص على امتداد الحدود الشرقية ، وبذلك زاد الدور الذى لعبه السكان فى الجزء الشرقى من آسيا الصغرى فى تاريخ الامبراطورية .

وحتى يمكن الافادة من هذا النظام العسكرى الجديد الى أقصى حد ممكن ، قام الأباطرة بوضع نظام حكومى جديد فى المقاطعات . وكان النظام القديم للولايات ، الذى تطور الى خليط من الموظفين الرسميين من مدنيين وعسكريين ، قد تم تنسيقه باعطاء قائد عسكرى يطلق عليه اسم ستراتيجوس Strategos سلطات عسكرية ومدنية كاملة على مساحة معينة من الأرض أطلق عليها اسم « ثيم » Theme وجمعها ثيمات (أى ألوية الحدود أو ولايات الثغور) . وهكذا أصبح كل قائد قوى يتعامل مباشرة مع الفلاحين الجنود الذين فى ولايته ، يمثل حصنا منيعا ضد الغزاة الأجانب الذين يهددون الثيم الخاص به . وامتاز هذا النظام فى كفاءته عن النظام القديم الذى كان يعتمد الى حد كبير على الجند المرتقة . وقد أتاح دخول البيروقراطية المدنية فى طاعة أولئك القادة ، توجيه كافة موارد الدولة بكفاءة لمواجهة المتطلبات العسكرية الملحة .

ونتيجة الاصلاحات العسكرية والادارية التى صاحبت انشاء هذا

التنظيم الإداري المعروف بالثيمات ، أصبحت طبقة الفلاحين تتمتع بمركز حيوي في الدولة البيزنطية . فأتخذ الأباطرة اجراءات مشددة لحماية الفلاحين الأحرار بهدف ضمان أداء خدماتهم للدولة ، مع كبح جماح الطبقة الأرستقراطية مالكة الأرض عند استغلالها لهم . وتعتبر التشريعات والقوانين التي تم اصدارها لتحقيق هذا الغرض واحدا من أعظم الخصائص البناءة للسياسة الامبراطورية خلال تلك الحقبة من الزمن . فقد نصت هذه الاصلاحات على اتجاه مبكر كان يستهدف تحويل الفلاحين الى عبيد يرزحون تحت رحمة ملاك الأرض . وبذلك أوجدت تناقضا ظاهرا فيما يتعلق بمصير الفلاحين في الغرب الأوروبي في العصور الوسطى المبكرة . وكان اعادة بناء النظام الاجتماعي لمصلحة طبقة الفلاحين النشطة ، أثره الكامل على ازدياد سلطة الحكومة المركزية في تعاملها مع الطبقة الأرستقراطية .

التغيرات الدينية

لقد شهد القرن السابع وبواكير القرن الثامن الميلادي نقطة تحول بارزة في الحياة الدينية للامبراطورية البيزنطية . وكانت هذه التغيرات تميل الى تأكيد انفصال الفرع المسيحي الذي اتخذ من القسطنطينية مركزا له . وربما كانت هيمنة الامبراطور المتزايدة على أمور الدين هي الاتجاه الأكثر وضوحا . ولم يكن هذا التطور جديدا بطبيعة الحال ، طالما أن جميع الأباطرة الرومان السابقين كانوا يتصرفون في الغالب باعتبارهم بابوات وقيصرة (في نفس الوقت) . وقد ضموا الى جانب عملهم كحكام مدنيين ، ادارة محكمة للحياة الدينية مع الاشراف على هيئة رجال الدين والتدخل في المنازعات المذهبية . وعلى أية حال ، فقد ازداد اشراف الأباطرة التدريجي على الكنيسة خلال القرنين السابع والثامن للميلاد . وكان نجاحهم يعزى ، الى حد ما ، الى مبالغة رجال الدين اليونانيين في تكريم امبراطورهم كقائد ضد الفرس والعرب والسلاف والبلغار . فقد استطاع هرقل ، مثلا ، أن يثير نوعا من

الحماسة الصليبية في حروبه ضد الفرس ، وذلك بأن ضرب على الوتر الحساس برغبته في استعادة الصليب الحقيقي الذي اغتصبه الفرس من مدينة بيت المقدس عندما استولوا عليها عام ٦١٤ م . وقد قويت سيطرة الامبراطور على الحياة الدينية ، أيضا ، باتخاذ قرار نهائى في النزاع المذهبى الطويل الخاص بطبيعة المسيح . فكثيرا ما أضعف هذا النزاع من سلطة الأباطرة الدينية ، باجبارهم على محاولة ايجاد توفيق لاهوتى بين العناصر العديدة المتنازعة . وكثيرا ما أثارت هذه المحاولات للمصلح ثورات عاتية في القسطنطينية ومدن الامبراطورية الأخرى . وهى ، أيضا ، التى أثارت الفتنة والشقاق بين رجال الدين والموظفين المدنيين والجنود تحديا للسلطة الامبراطورية . ولم يكن الحل النهائى لهذه المشكلة ممكنا الا بعد استيلاء العرب على الولايات الشرقية . وما أن ضاعت هذه الولايات ، التى كثيرا ما عارضت اتجاه القسطنطينية في هذا الصدد معارضة عنيفة ، حتى استطاع الأباطرة أن يضعوا تحديدا لطبيعة المسيح قبله المسيحيون الباقون تحت سيطرة الامبراطورية . وقد تحقق هذا على يد الامبراطور قسطنطين الرابع في المجمع المسكونى السادس الذى عقد في القسطنطينية عام ٦٨٠ م ، والذى أمر جميع المؤمنين أن يقبلوا المذهب القائل بأن طبيعة المسيح ناسوتية ولاهوتية . ولم يعارض هذا التعريف للفقيدة الحققة سوى عدد قليل من رعايا الامبراطورية . ونتيجة لذلك عظم دور الأباطرة في المجال الدينى .

ومع ذلك ، فاننا نستطيع أن نضرب مثلا بأن سياسة الاملاء الدينى التى حاول الأباطرة فرضها ، لم تصل الى حد الكمال الذى كانوا ينشدونه ، بذلك الصراع المرير ضد الأيقونات Iconoclasm الذى ظهر بعد سنوات قليلة فقط من النزاع حول طبيعة المسيح . وسنتناول النتائج المعقدة المترتبة على النزاع ضد الأيقونات بالتفصيل فيما بعد . ويكفى الآن القول بأن التصادم بدأ في عام ٧٢٦ م عندما أصدر ليو الثالث (الأيسورى) أمرا الى رعاياه بعدم استخدامهم جميع الأيقونات

والصور أثناء اداء الخدمات الدينية • وحينئذ واجهت المراسيم التي صدرت (في هذا الخصوص) عاصفة من الاحتجاج والمعارضة من جانب رجال الدين والعلمانيين على السواء • ومع أنه لجأ الى وسائل العنف لتحقيق غايته ، الا أنه لم يكن باستطاعته القضاء على المعارضة بل لقد مزق الصراع اللاأيقوني المجتمع البيزنطى طوال قرن من الزمان بعد حكمه • وكان هذا تذكيرا بأن الامبراطور لا يستطيع دائما فرض مطالبه باملاء سياسته الدينية •

وان جهود أباطرة كل من أسرة هرقل والأسرة الأيسورية: في الهيمنة على السياسة الدينية التي كانت ناجحة بصفة عامة واوتوقراطية الى حد بعيد — ان هذه الجهود كان لها تأثيرها البالغ الفعال في تباعد أسقف روما الذى كان آخذا في الظهور كممثل لمسيحيى غرب اوربا • فمنذ عهد بابوية جريجورى الكبير (٥٩٠ — ٦٠٤ م) وحتى منتصف القرن الثامن الميلادى كان النزاع مستمرا بين الامبراطور (البيزنطى) والبابوية (في روما) • ولما كانت روما خلال هذه الفترة من الزمن لا تزال ، من الناحية السياسية ، جزءا من الامبراطورية البيزنطية ، فقد اتجه البابوات بأنظارهم الى القسطنطينية لحمايتهم من هجمات اللمباردين • وحاول الأباطرة البيزنطيون استغلال هذه التبعية باجبار انبابوات بالموافقة على قراراتهم المذهبية وقبول الرئاسة الروحية لبطريارك القسطنطينية • وبلغ الصراع بين روما والقسطنطينية ذروته في منتصف القرن السابع الميلادى ، عندما حاول الأباطرة مستميتين الوصول الى حل بخصوص مسألة طبيعة المسيح • وبدأ هذا الصراع ، مرة أخرى ، في بدايات القرن الثامن الميلادى عندما قامت الحركة اللاأيقونية • وحتى تتفادى البابوية قبول توجيهات من الشرق ، فقد سعت الى لم شمل مسيحيى الغرب تحت رايتها ومذهبها • وبذلك تمكنت من الحصول على درجة أكبر من الاستقلال (الدينى عن كنيسة القسطنطينية) • ومع أن الخطوات التي أحرزتها البابوية في سبيل تدعيم

استقلالها كانت بطيئة ومتعثرة ، الا أنها كانت كافية للتمهيد للقطيعة الدينية التامة بين مسيحي الشرق والغرب (في أواسط القرن الحادى عشر الميلادى) •

ومما لا شك فيه أنه كان لظهور الكنيسة البيزنطية التى يهيمن عليها الامبراطور ، والمحددة جغرافيا فى شبه جزيرة البلقان وآسيا الصغرى وجنوب ايطاليا وصقلية ، أهمية كبرى • ولما كان الانكماش الاقليمى للامبراطورية قد وقع فى نفس الوقت الذى تم فيه صبغ النظام الاجتماعى بصبغة عسكرية ، وانحلال رومانية الشعب ، واعادة التنظيم الاجتماعى الاقتصادى وفقا للاصلاحات العسكرية — فقد أدى هذا التطور الى تكوين الطابع الفريد الذى اتسمت به الحضارة البيزنطية الجديدة ، التى أخذت تحل محل الحضارة العالمية التى كانت تتمركز فى القسطنطينية فى المراحل الأخيرة من التاريخ الرومانى •

مولد الحضارة الاسلامية

من المحتمل أن يكون العامل الرئيسى الذى أدى الى تحول الامبراطورية الرومانية الشرقية الى امبراطورية بيزنطية ، هو ذلك الهجوم العنيف الذى شنته قوة جديدة خرجت من شبه الجزيرة العربية • فقد كانت الانتصارات العربية فى القرن السابع وبدايات القرن الثامن الميلادى تمثل مولد حضارة ديناميكية صامدة ، قدر لها أن تترك آثارها على تاريخ حوض البحر المتوسط بصفة رئيسية • ذلك أن العرب الذين نشأوا فى أول الأمر كمحاربين غير منظمين فى الصحراء ، سرعان ما تطوروا الى مجتمع قوى يؤلف بين رجاله الدين الإسلامى بمبادئه الواضحة ومفاهيمه الأخلاقية • فقد كان مولد هذا الدين وتأثيره الشديد على العرب أهم حدثين فى القرن السابع للميلاد •

بلاد العرب قبل الاسلام

عندما ظهر الاسلام كانت الصحراء العربية بسكانها تمثل صورة غير متناسقة ، فكان غالبية السكان في تلك البلاد المقفرة من الرحل الذين يتمتعون بقدر ضئيل من الحضارة ، وقد انتظموا في قبائل متحاربة . وكانت كل قبيلة ترعى بحماسة قطعان ماشيتها ، وتتمسك بغاداتها وآلتها واستقلالها الذي تتفاخر به . وكانت الحياة بين تلك القبائل بسيطة يسودها الفقر بدرجة أليمة ، اذا ما قورنت بحضارة كل من روما وبلاد الفرس ، التي تغمرها ألوان الترف والتي ازدهرت فيما وراء حدود الصحراء . ويبدو أنه لم تكن ثمة قوة بوسعها التغلب على روح الفرقة والشقاق التي عانى منها سكان الصحراء . ومع ذلك ، لم تكن حياتهم كقوم رحل هي الطابع الوحيد المميز لمعيشتهم في شبه الجزيرة . لقد كانت أطرافها واقعة تحت المؤثرات السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية لكل من روما وفارس . وكانت بداية تطورات جديدة نتجت عنها أزمات جديدة .

ولقد ظهر دين العرب الجديد في مكة ، وهي الملتقى الرئيسى لسكان الصحراء بالعالم الخارجى . وكانت مكة مقر قبيلة مستقرة يتزعمها شيوخها ، وفقا لما هو متبع بين العرب . وكانت أيضا ، مركزا تجاريا هاما يمر بها التجار تاركين منتجاتهم وأفكارهم في نفس الوقت . ونتيجة لنمو التجارة والتأثر بالعادات والتقاليد الأجنبية الوافدة من الخارج ، تحول أسلوب الحياة لدى عرب مكة تدريجيا عن أسلوب العرب الرحل . وأصبحت مكة ، في نفس الوقت ، أحد المراكز الدينية الكبرى ، أكثر من كونها مركزا تجاريا بالنسبة لأولئك العرب الرحل . ففيها توجد الكعبة الشهيرة ، وهي معبد صغير به الحجر الأسود الذى يعتقد العرب أنه سقط من السماء رمزا للحماية الالهية . وفي البقعة الشريفة حيث توجد الكعبة ، كانت هناك أشياء كثيرة غير ذات أهمية تخص الآلهة التي تعبدتها قبائل الصحراء . وكان كثير من تلك القبائل يحج سنويا الى مكة اعرابا

عن ولائها وخضوعها لآلهتها • كما كانت تشدهم اليها بضائع التجار الذين أقاموا فيها أو مروا بها • وبذل حكام مكة كل جهد في سبيل جعل مدينتهم مركزا للحياة العربية • وبذلك انبثقت عن الحياة المعقدة في مكة قوى تتميز بأهميتها البالغة ، لما فيها من متع ومغريات مادية وثقافية خاصة بالحضارات الأجنبية • هذا ، الى جانب اتجاه مكة السياسى لفرض زعامتها على العرب الرحل ، والميزة الناتجة عن عبادة دينية عامة • وقد ألهب تفاعل هذه القوى انطلاقة العرب التى مكنتهم من التغلب على قسوة الصحراء ، والنهوض فجأة للقيام بدور بارز على مسرح الأحداث فى حوض البحر المتوسط •

النبي محمد (ﷺ)

كان الرسول محمد (ﷺ) من مواطنى مكة هو الذى حرر العرب • ولد حوالى عام ٥٧٠ م من أحد أسباط القبيلة الحاكمة فى مكة • ولكنه فقد أبويه فى سن مبكرة ، وتولى رعايته وتنشئته أقاربه الذين وجهوه للعمل فى التجارة • وتزوج أخيرا من أرملة ثرية ، وأصبح غنيا واحتل مركزا مرموقا فى مجتمع مكة • ولكن نجاحه فى الدنيا قد يبدو ذا أهمية ضئيلة ، اذا ما قورن بتدينه وكثرة تأمله وتقشفه ونظراته الفاحصة فى أعماق الانسان وفكره • ولا جدال فى أن محمدا وجد فى الدين عزاءه وقدره •

ان صحابه كثيفة من الأساطير تحول بيننا وبين تعقب الفترة المبكرة التى قام فيها الرسول بنشر رسالته • فربما كانت الأديان الأجنبية كاليهودية والمسيحية أو الزاردشتية ، وكلها معروفة فى مكة ، هى التى جعلته ينظر الى المعتقدات والخرافات المحلية السائدة فى بلاد العرب على أنها مجلبة للخزى والعار • كما أصر كثير من العلماء على أن الأحاديث النبوية تتضمن تنسيقا ماهرا للأفكار الأجنبية التى تم اختيارها لتناسب حاجات أتباعه العرب • ولسنا فى حاجة الى القول بأن اتباع محمد (ﷺ)

كانوا يعتقدون أن هذا الاستنتاج ما هو الا محض كفر والحصاد • فهم يعتقدون ، على العكس من ذلك ، أن محمد (ﷺ) قد تلقى رسالة الدين الجديد من الملاك جبريل مباشرة ، مع الوحي الالهي . بأنه أصبح رسول الله على الأرض • وبدأ الوحي يهبط على محمد (ﷺ) عندما كان في حوالي الأربعين من عمره • ومنذ تلك اللحظة علم بأنه الرسول الذي اختاره الله ليعلن كلمته . ويحول أتباعه الى عبادة الله •

ولم يجد محمد (ﷺ) عندما أخذ في نشر رسالته قبولا حسنا في مكة • وترك الآيات المبكرة التي هبطت على الرسول على واجب عبادة الاله الواحد الذي لا شريك له • وتتضمن ، أيضا ، وصفا ليوم الدنيونة حيث ينال الناس جميعا للثواب أو العقاب • وهكذا تكشف عن الحاجة الملحة للتجديد الروحي ، وتبث مثالا وقيما خلقية جديدة • ولم تلق الدعوة استجابة كافية لدى أهل مكة الذين عرفوا بميولهم الفرديّة • بل أكثر من ذلك قاوموا هجومه على الشرك بالله ، وبصفة خاصة أولئك الذين كانوا ينتفعون الى حد بعيد من حج قبائل الصحراء السنوي الى مزارات الآلهة القديمة في مكة • وبدأ وكأنه قد كتب على الرسول بالفشل بسبب المعارضة واللامبالاة اللذين ووجه بهما •

وبعد أن مضى على دعوة الرسول لأهل مكة الذين لم يستجيبوا له ، أكثر من عشر سنوات ، قرر أن يترك مكة الظالمة الى منافستها يثرب التي أظهر أهلها اهتماما بتعاليمه ، ودعوه للقدوم اليها كحكم بينهم لتهدئة طوائفهم المتصارعة • وكانت هجرة الرسول الى يثرب في عام ٦٢٢ م ، وكان ذلك سببا في تسمية يثرب من جديد باسم « المدينة » ، أي مدينة الرسول • وتعتبر هجرة الرسول نقطة تحول في التاريخ الاسلامي • فقد أصبح محمد (ﷺ) بعد ذلك زعيما لدولة ، ولو أنها كانت دولة صغيرة للغاية في بادئ الأمر • وبدأ للوحي الذي كان ينزل على الرسول يتخذ لونا جديدا ، اذ عالجت الآيات المنزلة القرارات السياسية أكثر من المفاهيم الدينية المجردة • وبذلك تحول المبشر البسيط الذي كان

يدعو الناس للدين الجديد الى هاد لجماعة منظمة من المؤمنين بالله •
ولما كان هؤلاء المؤمنون يعيشون بمنآى عن بقية العالم ، يطيعون الله
ويفوضون أمورهم له ، فقد عرف جماعة أتباع الرسول باسم المسلمين ،
وعرف الدين الجديد باسم الدين الاسلامى • وقد حث محمد (ﷺ) أتباعه
على قتال الكفار تمجيذا لله • وفى احدى المناسبات خاطب الله محمد (ﷺ)
قائلا : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون
صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا
بأنهم قوم لا يفقهون » • وان هذا المغزى ، الى جانب عادة الحرب
والقتال التى يتميز بها طابع الحياة العربية أصلا ، قد أطلقا الشرارة
لفكرة الجهاد فى المجتمع الجديد • وبهذه القوة المنظمة تحت رايته ،
تحول محمد (ﷺ) الى مواجهة أولئك الذين قاسى على أيديهم فيما مضى •
وفى عام ٦٣٠ م استطاع دخول مكة منتصرا ، فحطم أصنامها وأدخل
عبادة الله الواحد الأحد • وبهذا النصر بدا للمؤمنين أن الطريق المستقيم
هو طريق الخلاص • فكثير من القبائل العربية ، بما فيها زعماء مكة
وشيوخها دخلوا فى دين الاسلام مقتنعين بتعاليم الرسول • ولكن كثير
آخرين تأثروا بما أبداه محمد (ﷺ) من بسالته كزعيم منتصر ، فأسرعوا
فى الدخول فى زمرة المؤمنين • وعندما انتقل الرسول الى جوار ربه فى
عام ٦٣٢ م كان قد اصبح زعيما لمجتمع من القبائل العربية المتحالفة
التي أرست وحدتها على قبول زعيم قوى ودين واحد • وأخيرا ، بعد
أن تغلب العرب على فرقته التقليدية ، بدأوا فى الاستعداد لمواجهة
العالم الخارجى •

الدين الاسلامى

لقد نما الاسلام وتطور خلال قرون عدة • ومع ذلك ، فمثله مثل
غيره من الديانات العظمى يستمد حيويته الحقيقية من معتقدات وطقوس
أساسية معينة يرجع تاريخها الى بداية ظهوره • وبذلك ، منذ انتقال

الرسول الى ربه ، التزم أتباعه بالمعتقدات الراسخة والطقوس المعروفة التي كانت تمسك بزمام الدعوة للدين الجديد .

وربما كان أحسن تعريف للإسلام هو ما تحويه هذه الكلمات في القرآن الكريم « يأيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله ، والكتاب الذي نزل على رسوله ، والكتاب الذي أنزل من قبل . ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضللا بعيدا » . فالاله الواحد الذي لا شريك له هو المحور الأساسى الذى تدور حوله العقيدة الصحيحة . وان الشرك بالله لهو أشد المعاصى والخطايا وأكثرها هولا . وقد تناول الجانب الأكبر من الأحاديث النبوية الشريفة صفات الله . ومع أنها كثيرة عديدة ، فان الله جل جلاله فوق كل شىء وقبل كل شىء ، وهو الاله الواحد الأحد القادر على كل شىء . اذ يفوق وصفه كل ما يستطيع الانسان تصويره . لذلك وجب على الانسان أن يسلم له أمره . وقد كشف الله عن ذاته للناس بالتحدث عن طريق ملائكته الى سلسلة متتابعة من الأنبياء . ومن بين الكثيرين « الذين أرسلهم الله من قبل » كان الأنبياء العبرانيون والمسيح ، وجميعهم يعتبرون ناطقين بكلمة الله . ولكن آخرهم وأعظمهم هو محمد (ﷺ) . وان الأنبياء الأوائل الذين نطقوا بكلمة الله كانوا قد تلقوا جانبا من الحقيقة فحسب ، وكان أتباعهم قد غابت عن أبصارهم كلمة الله سواء بطريق الصدفة أو عن عمد . وفوق هذا وذاك ، فقد احتضنت التعاليم المحمدية الجميع ، وامتازت بتسامحها . ذلك أن الرسالة التى نزلت بالوحى على محمد (ﷺ) ، لم تكن موجهة الى العرب فقط ، أو اليهود والمسيحيين الذين كانوا قد تلقوا قسطا من الحقيقة من قبل ، بل كانت موجهة الى الناس قاطبة . ولهذا السبب ارتبط المسلمون بكل حرف ورد فى « كتاب الله » أو « القرآن » . وقد أصبح القرآن الكريم الذى تم جمعه بعد انتقال الرسول الى ربه بفترة قصيرة ، هو المصحف المتضمن الآيات المنزلة من عند الله . وثمة عقيدة واحدة جوهرية من بين العديد من الافكار تزود الديانة الجديدة بطابع خاص فريد ، ألا وهى الحقيقة المتعلقة باليوم الآخر الذى يثاب فيه الصالحون

ويعاقب الطالحون • ويذكر كتاب الله بتفصيل حى المسرات التى تنتظر الصالحين ، وألوان العذاب التى هى من نصيب الطالحين • وقد أوجد محمد (ﷺ) لدى أتباعه احساسا هائلا بالضرورة الملحة للطاعة الدينية والاستقامة الخلقية • ومع أن هذه الأساسيات الأولى للدين قد اتسع نطاقها بعد وفاة الرسول بضم مجموعة كبيرة من الأحاديث النبوية ، فقد ظل الاسلام عقيدة دينية خالصة تخضع الانسان مباشرة لمشئئة الله تعالى ، كما تمد البشرية بالتوجيهات الالهية للسلوك الانسانى فى كتاب سماوى منزل •

هذا ، ومن الفروض الدينية الواجبة على كل مسلم قادر النطق بالشهادتين « لا اله الا الله محمد رسول الله » • وعلى المسلم أداء الصلاة خمس مرات يوميا طبقا لنظام موضوع ، وتعتبر هذه الصلاة أمرا خاصا ومع ذلك ، فقد بدأت صلاة الجماعة تتطور فعلا زمن الرسول ، وبصفة خاصة فى يوم الجمعة • ولهذا الفرض أقيمت المساجد حيث يتجمع المؤمنون ويؤمهم امام لأداء فرائض العبادة لله • وكثيرا ما كان الامام يلقى عليهم خطبة بعد الصلاة • ومن الفرائض الأخرى الواجبة على كل مسلم الزكاة لمساعدة الفقراء والمعوزين ، والصوم طوال شهر رمضان كعمل تكفيرى ، والحج الى مكة المكرمة مرة طوال حياة المسلم ان استطاع الى ذلك سبيلا • ولم تكن هذه الواجبات بحاجة الى هيئة دينية منظمة وتنظيم دينى كبير • بل ظلت العبادة بين المسلمين أمرا شخصيا تحركها تقوى الفرد ويذكىها ورعه •

وطالما كان باستطاعة المؤمنين أن يفعلوا بحياة أبدية اذا عملوا على مرضاة الله ، فقد أرسى الرسول المبادئ الأساسية لدستور أخلاقى مفصل واسع النطاق • وقد تضمنت هذه الشريعة أمورا كثيرة لا يتسع لها المقام هنا • ولكنها ، على وجه العموم ، نهت المسلمين بشدة عن تناول أصناف معينة من الطعام ، وعن المسكرات ، والميسر ، والقسم زورا وبهتانا ، والعديد من أعمال العنف • وأشارت الى كل ما يتعلق بأمور

الزواج بعناية ، وذلك في سبيل تحديد وتنظيم تعدد الزوجات عند العرب .
وقد اعترف الاسلام بالرق ، ولكن مع ضوابط صارمة - وقيود شديدة .
كما فرضت الشريعة الاسلامية على العرب قواعد أشد صرامة من تلك
التي كانوا قد تعودوا عليها قبل محمد (ﷺ) . فقد كانت الشريعة المحمدية
تتمسك بالطهر ، وهي بذلك تماثل ما جاء في التوراه . فهي تفرض على
المؤمنين نفس الفروض ، كالامتناع عن المسكرات ، وكبح جماح النفس ،
والبساطة في الحياة ، والحيولة دون ارضاء الشهوات أو اشباع اللذة
الحسية . وكانت الدعوة الأخلاقية القوية ، على الدوام ، مظهرا من مظاهر
الدين الاسلامي المبهرة للعقل .

وباستقرار الاسلام ، اكتسب العالم ثالث دياناته السماوية
المنزلة التي تدين باله واحد . والأديان الثلاثة هي : اليهودية والمسيحية
والاسلام . وهي الديانات الكبرى فقط ، وكلها متصلة ببعضها اتصالا
متشابكا بموجب نشأتها التاريخية . فقد كانت اليهودية هي أقدم الديانات
التي ظهرت ، ثم قامت المسيحية كتحقيق للوحي اليهودي ، واستوعبت
بين ثنايا تعاليمها وطقوسها كثيرا من مظاهر اليهودية . ثم ظهر الاسلام
كصورة كاملة للوحي المسيحي ، واعترف بالخلفية اليهودية التي قامت
المسيحية عليها . وبذلك نجد ، مرة أخرى ، أن كثيرا من تعاليم وطقوس
كل من اليهودية والمسيحية قد امتزجت في الدين الاسلامي . ومما يفسر
الصلة الوثيقة بين هذه الديانات الثلاث ، السهولة الشديدة التي تحول بها
الناس من أحد هذه الأديان الى دين آخر . وقد تعيننا هذه الصلة ، أيضا
بطريقة قد يتبادر معها الى الذهن أنها مناقضة للحقيقة ، على كشف
أسباب الصراع المرير الذي قام بين أتباع هذه الديانات الثلاث حول من
منها التي نشأت عن وحي الهى حقيقى .

الفتوحات الاسلامية

تعتبر الحضارة الاسلامية نتاج الدين الاسلامي . فقد حول

الاسلام القبائل الهائلة على وجهها المتشاحنة في شبه جزيرة العرب الى قوة عالمية طائلة قامت بغزو واحدة من امبراطوريات العالم العظمى (وقتها) فيما لا يزيد عن قرن من الزمان بعد انتقال الرسول الى ربه . فعندما توفى الرسول كان ثمة تهديد استمر فترة من الزمن بأن المجتمع العربى الذى أرسى دعائمه سوف يتفكك . فلم يكن الرسول قد أوصى بمن يخلفه . ومن الواضح أن أحدا لم يستطع القيام بدور الرسول أو ملئ الفراغ الذى خلفه . وأصبح المجتمع العربى الناشئ بحاجة الى قيادة (نسوسه) . فقد عادت قبائل قليلة الى ميولها الانفصالية القديمة وحاولت الخروج عما كان الرسول قد أنجزه فى حياته . وفى هذه اللحظة الدقيقة قبض بعض رفاق الرسول على زمام الأمور ، وعينوا حماه ابا بكر « خليفة » أو خلفا للرسول فى قيادة جماعة المسلمين . واستطاع ابو بكر خلال العامين اللذين حكم فيهما (٦٣٢ — ٦٣٤ م) أن يجبر القبائل المنفصلة على العودة ثانية الى مجتمع الاسلام . وبذلك أتم بالقوة وحدة العرب السياسية . وخلف ابا بكر اثنان من رفاقه المقتدرين هما عمر بن الخطاب (٦٣٤ — ٦٤٤ م) ، وعثمان بن عفان (٦٤٤ — ٦٥٦ م) . وهاجم هذان الخليفان كلا من الامبراطورية الرومانية الشرقية والامبراطورية الفارسية اللتين لم يثبت جنودهما تكافؤهم مع جند الله . فكانت الامبراطورية الفارسية قد انهارت تماما بعد أن أعمتها المخاصمات والمنازعات الداخلية ، وبعد أن أضعفتها هجمات هرقل . وهكذا تم الاستيلاء على أراضيها عام ٦٥٠ م . أما الامبراطورية الرومانية الشرقية فقد أضعفتها ، بالمثل ، الانقسامات الدينية وهجمات كثير من الأعداء عليها خلال النصف قرن السابق (لذلك التاريخ) . فاستسلمت مقاطعاتها الشرقية ، وهى سورية وفلسطين ومصر ، بسهولة تدعو الى السخرية . وكنتيجة لهذه الانتصارات تقدم العرب الى شواطئ البحر المتوسط ، حيث طوروا قوتهم البحرية بسرعة ، وشنوا هجوما على قلب الامبراطورية البيزنطية ذاته .

وبعد موت عثمان أنحسر المد العربى مؤقتا بسبب مشكلة الخلافة

فقد تترتبت على عملية انتخاب الخليفة ، فجأة ، صراعات شديدة بين العرب أدت في النهاية الى قيام حرب أهلية • وخرج من هذا الصراع منتصرا معاوية (بن ابي سفيان) ، ذلك القائد السياسى المحنك • وفى عام ٦٦١ م أسس دولة أطلق عليها اسم الدولة الأموية • وتحت قيادة الأمويين الرشيدة استعاد المجتمع العربى استقراره الداخلى ، واستأنفت الجيوش العربية فتوحاتها •

واتخذ زحف الأمويين الرئيسى اتجاها غربيا عبر افريقية • فاستولوا على ممتلكات الأباطرة البيزنطيين واحدة بعد أخرى ، ثم أخضعوا أمراء البربر فى شمال افريقية • وبنهاية القرن السابع الميلادى كانت القوات العربية قد وصلت الى المحيط الأطلنطى • ولكنها لم تتوقف هناك ، بل عبرت مضيق جبل طارق فى عام ٧١١ م ، وسحقت بسرعة مملكة القوط الغربيين المتداعية • وضمت اليها اسبانيا كلها فيما عدا امارات صغيرة قليلة العدد تقع على الجبال الشمالية الغربية • وسرعان ما بدأت القبائل العربية المغيرة تعبر جبال البرانس داخل مملكة الفرنجة ، ولكنها واجهت هناك عدوا قويا • ففى عام ٧٣٢م ، بعد وفاة الرسول (ﷺ) بمائة عام تماما ، هزم الأمير الفرنجى سارل مارتل القوات العربية بالقرب من مدينة تورز (فيما عرف باسم موقعة بواتييه أو بلاط الشهداء) • ولهذا النصر دلالة فيما يتعلق بظهور قوة الفرنجة فى غرب اوروبا • ولكنه بالنسبة لتاريخ العرب يعنى امتداد التوسع العربى غربا • وسرعان ما تراجع المسلمون بعد عام ٧٣٢ م الى جنوب جبال البرانس • ولكنهم لم يقدموا على ذلك الا بعد أن أصبح لهم التفوق البحرى فى غرب البحر المتوسط ، تاركين شواطئ الغرب الأوروبى التى تطل على هذا البحر معرضة لاغاراتهم •

وفى نفس الوقت اندفعت قسوات عربية أخرى نحو الشرق من فارس ، وقامت بفتوحات جديدة واسعة فى افغانستان وفيما وراء الأوقيانوس والتركستان والهند الغربية • ثم اقتربت الجيوش العربية

من المناطق الغربية-بلاد الصين في اوائل القرن الثامن الميلادي ، وبدا كما لو أنها قد ابتلعت تقريباً امبراطورية تانج القديمة-المنهارة ومع ذلك،- فقد تمكنت المقاومة الصينية من صد الزحف العربى في ذلك الاتجاه .

وفي غمرة هذه الحملات التى اندفعت الى تلك الجهات النائية ، وجد أمراء بنى أمية الوقت والمقدرة لتوجيه الضربات الى الامبراطورية البيزنطية واقتطاع أجزاء منها . فاكثسحوا أرمينية ، وأغاروا عدة مرات على آسيا الصغرى ، وتحذوا القوات البحرية البيزنطية . وكانت الدولة البيزنطية على حافة الانهيار التام في مناسبتين على الأقل ، الأولى فيما بين عامى ٦٧٤ و ٦٧٨ م ، والثانية خلال عامى ٧١٧ — ٧١٨ م . ولكن الحكومة الامبراطورية فى القسطنطينية تمكنت من تجنب الكارثة باعادة تجميع قواتها بمهارة واستدعاء احتياطياتها . وهكذا ، لم يتمكن المسلمون من اخضاع القسطنطينية لمدة سبعة قرون أخرى حتى عام ١٤٥٣ م . وربما كان النصر الذى أحرزه البيزنطيون عام ٧١٨ م هو الحدث الحاسم الذى أوقف التوسع العربى .

وان مجرد سرد الفتوح العربية يروى قصة النجاح الساحق الذى لا يمكن تصديقه لشعب كان منذ فترة قريبة ضعيفاً ، مفكاً . ولم يشهد العالم ، أبداً ، مثل هذه الامبراطورية الشاسعة التى تكونت خلال قرن من الزمان . وفى عام ٧٥٠ م لم يكن باستطاعة أحد أن يجادل فى أمر ظهور قوة عالمية كبرى قادرة على تغيير مجرى التاريخ .

التطور الداخلى

بغى أن نعرف كيف نجح الفاتحون العرب كحكام لامبراطوريتهم الشاسعة . فقد أثبتت المشاكل المتعلقة بالادارة أنها ستكون بصورة دائمة أشد صعوبة من مشاكل الغزو . ومع ذلك سرعان ما أصبح بوسع الخلفاء الأمويين تحقيق بعض النتائج الايجابية .

وخلال القرن الأول الذى أعقب وفاة الرسول (ﷺ) قام العرب بدور بارز فى التاريخ الإسلامى • فكونوا من أنفسهم صفوة عسكرية وفرضوا الجزية على غير المسلمين ، وكان غالبيتهم من غير العرب ، وذلك بهدف دعم ومساندة أبناء الله الظافرين • وحاول العرب بصفة عامة ، الإقامة بعيدا عن رعاياهم ، فكانوا يعيشون فى مدن عسكرية منيعة خاصة بهم • كما سمحوا لهؤلاء الرعايا بممارسة طقوسهم الدينية المحلية ، مع الإبقاء على عاداتهم ، وعلى أن تظل النظم الحكومية كما هى فى البلاد التى فتحوها • وعلى عكس ما هو معروف ، لم يحاول المسلمون إجبار رعاياهم على اعتناق الإسلام ، بل فضلوا بدلا من ذلك الحفاظ على الدين الحنيف كشرط أساسى لتمييزهم عن غيرهم • وبذلك أصبح الفتح الإسلامى لا يثير أى احساس بالألم (بالنسبة للأقاليم المفتوحة) ، نتيجة لسياسة عدم التدخل فى أساليب الحياة القائمة (التى اتبعها الفاتحون العرب) •

ومع كل ذلك ، فقد نظم العرب أنفسهم كصفوة عسكرية تحكم حشدا كبيرا من الرعايا • وظلوا يواجهون العمل الشاق الخاص بتنظيم أنفسهم تنظيميا كافيا يمكنهم من الحفاظ على تفوقهم وسيادتهم • وكان الرسول قد أقام دولة فنية ذات طابع دينى لم تكن قد اتضحت معالمها بعد ، وقد مارس فيها سلطة سياسية • وحاول من جاءوا بعده مباشرة الإبقاء على هذا التقليد • ومع ذلك لم يكن نفوذهم كافيا لتدعيم مثل هذه الثيوقراطية ، خاصة بعد أن تدفق أتباعهم العرب إلى الخارج فى أجزاء من القارات الثلاث (آسيا وإفريقية وأوروبا) • وحاول الخلفاء الأوائل السيطرة على قواتهم بوضع روابط دينية مع نظام معاشى يثاب فيه الجندي العربى المقاتل ، حيث يأخذ كل محارب نصيبا من الغنيمة والجزية التى كانت تجبى من الشعوب المغلوبة • ولكن هذا النظام لم يثمر سوى إثارة الأطماع وخيبة الأمل • لذلك حاولت الدولة الأموية الجديدة عندما قبضت على زمام السلطة عام ٦٦١ م وضع نظام أكثر تنسيقا لإدارة دولاى العمل • فقد أمضى مؤسسها معاوية عدة سنوات

في سورية ، وعرف كيف يسير العمل في الامبراطورية الرومانية الشرقية . وما أن تولى السلطة حتى نقل عاصمته الى دمشق ، وبدأ في تأسيس حكومة بيروقراطية على نسق جهاز العمل الرومانى . وبذلك أفسح اللون الدينى الثيوقراطى للحكومة العربية المبكرة ، الطريق لقيام دولة أكثر علمانية ، تهتم بالتنظيم السليم والادارة الحاذقة . وان نجاح هذا النظام الذى أوجده الأمويون فى شئون الحكم يعتبر أحد المشاغل التى أضاعت التاريخ الاسلامى فى عصوره الأولى ، لان العرب لم يشهدوا من قبل مثل هذا التنظيم الجيد . وبمحاكاة العرب فنون الحكم والادارة لشعوب أكثر حضارة ومدنية ، نجحوا فى تأسيس وحكم امبراطورية عظيمة .

وقد استنفذت الفتوحات والتنظيم السياسى معظم الجهود والمواهب العربية خلال القرن السابع وبدايات القرن الثامن الميلادى . فلم يكن للعرب ، باستثناء دينهم ولغتهم وشعرهم ، سوى قدر ضئيل من الثقافة يقدمونه لرعاياهم المغلوبين ، والذين كان معظمهم يفوقونهم فى الأدب والمعرفة والفن والعلوم والفلسفة . ولم يكن للعرب حتى نهاية العصر الأموى فى عام ٧٥٠ م حصيلة ثقافية ملحوظة سوى ما أمكن تحقيقه فى ميدان العمارة . فقد قاموا ببناء المساجد لأداء فروض العبادة فيها . وكان الرسول (ﷺ) نفسه قد شيد مسجدا للصلاة فى المدينة يتكون من فناء يحيط به سور وقد غطى سقف جانب منه ، وبه منبر يعظ منه الناس ويؤمهم . وكان هذا الطراز الأول (لكان العبادة) أساسا للمسجد الذى شيده العرب وقاموا بتقليده فى كل مدينة من المدن المفتوحة ومع ذلك ، فان المساجد التى شيدت فى العصر الأموى أصبحت أكثر دقة واحكاما تحت تأثير نماذج العمارة المحلية . واستخدم السادة العرب العمال الفنيين من أهالى تلك البلاد الذين طبقوا خبراتهم وفنونهم التى اكتسبوها من تشييد دور العبادة لسادتهم الأسبقين من المسيحيين واليهود والزارداشت (فى بناء دور العبادة الجديدة) . وهكذا ، استطاع امراء بنى أمية تشييد عدة مساجد مشهورة لعل أبرزها هو جامع بيت المقدس الذى اطلق عليه اسم قبة الصخرة ، ويسمى أحيانا عن طريق الخطأ

جامع عمر • فقد بناه أحد الخلفاء الأمويين الذي عزم على أن يجعل منه صرحا اسلاميا أكثر فخامة وبهاء من كنيسة القبر المقدس • وقد حوت قبة الصخرة كثيرا من مظاهر الفن المعماري البيزنطى ، وبوجه خاص قبة المغطاء بالفسيفساء ذات الألوان الزاهية • ويوجد فى دمشق مسجد آخر تأثر بالفن المحلى الذى تجلى هنا فى مآذنه • وقد اشترك العمال الفنيون من فرس ويهود ويونانيين فى بنائه • واذا استثنينا جهود العرب فى تشييد دور العبادة المناسبة لاقامة شعائرهم الدينية ، نجد أن اضافاتهم من الناحية الثقافية للأقاليم المفتوحة كانت ضئيلة خلال العصر الأموى • فقد استمرت الحياة الثقافية القديمة للسكان غير العرب فى الدولة الاسلامية ، فى معظمها ، كما هى دون أن يطرأ عليها أى تغيير • وكان كل ما فعله السادة العرب هو أنهم استعاروا من كل مكان ما يناسب احتياجاتهم ، ذلك أن المشاكل العسكرية والسياسية الملحة لم تترك لهم سوى القليل من الوقت والجهد لتوجيههما للشئون الثقافية •

ومع ذلك ، فقد كانت هذه الفترة تمهيدا أوليا لنهضة ثقافية لامعة شملت كل أنحاء العالم الاسلامى فى القرن الثامن الميلادى • وكان لانتشار الدين الاسلامى من اسبانيا حتى الهند يحتل أهمية فائقة فى هذا التطور • فلم يكن العرب فقط هم الذين يمثلون الاسلام فى كل هذه الرقعة الفسيحة من الأرض • بل بدأت أعداد غفيرة من غير العرب تعتنق دين الفاتحين • وفى عام ٧٥٠ م كان معظم سكان مصر وفارس يدينون بالاسلام ، بينما تحول فى سورية عدد كبير الى الدين الجديد ، وقد اختلطوا بالمسيحيين واليهود • وحتى فى الولايات النائية كان عدد من اعتنقوا الدين الجديد فى تزايد مطرد • ولم يكن اعتناق الدين ، فى المكان الأول ، نتيجة أى ضغط أو اجبار أو حتى أى نشاط تبشيري مارسه الفاتحون الذين بدا عليهم أنهم قانعون بالاحتفاظ بدينهم كاحتكار عربى • ولم تكن ثمة أى ميزة كبرى يجنونها من وراء اعتناق الناس للدين • وفى العصر الأموى فرض الحكام العرب بصفة عامة الجزية على غير العرب ،

وحرموهم من الاشتراك في الحياة السياسية والعسكرية حتى ولو كانوا قد دخلوا فعلا في الاسلام . وبدا واضحا أن معظم من اعتنق الاسلام قد اعتنقوه بسبب تعاليم رسول الله (ﷺ) . وساعد على ذلك التشابه بين الاسلام والأديان الأخرى الموجودة في ذلك الوقت ، مما جعل اعتناق الدين الجديد أمرا سهلا نسبيا .

وليس هناك من شك في أن انتشار الاسلام قد أدى الى تنشيط عملية التبادل الثقافي ، وأدى الى نموه وازدهاره . فبينما كان العرب المسلمون يحتكون بثقافات أخرى ، وجدوا أنه من الضرورة القصوى أن يزنوا مدى اتفاقها مع آرائهم الدينية . أما فيما يتعلق بغير العرب ممن اعتنقوا الاسلام ، فقد واجهتهم مشكلة إعادة تكييف قيمهم الثقافية القديمة لتساير تعاليم الدين الجديد . ولم يكن الخليط الناتج عن هذا سوى قوة دافعة لخلق ثقافة اسلامية جديدة واسعة النطاق . وقد أدى انتشار اللغة العربية كلغة عامة الى تزويد الثقافة الجديدة بالوسائل اللازمة لتطورها وانتشارها . ومع أن العرب لم يفرضوا لغتهم على رعاياهم ، الا أنها انتشرت انتشارا واسعا في العصر الأموي ، لأن الاسلام لم يشجع ترجمة القرآن . ولذا اضطر جميع الراغبين في التمسك بالعقيدة الجديدة الى تعلم اللغة العربية .

وهكذا أصبح العرب خلال القرن الأول من الهجرة في وضع يسمح لهم بأن يرثوا كل الحضارات التي وجدت من قبل في البلاد التي فتحوها . ومع ذلك ، فقد كان عليهم كمسلمين أن يحكموا على هذه الثقافات ان كانت تتال رضا الله . وهذا يعني أنه كان يجب عليهم أن ينقبوا في كل مظاهر الحياة الثقافية داخل امبراطوريتهم . وكانت الحصيلة المنطقية لهذا الوضع هو المزج والتأثير المتبادل بين هذه الحضارات . ومع أن عملية المزج هذه لم تتم في الحال ، الا أن الفتح العربي وانتشار الاسلام قبل عام ٧٥٠ م قد مهدا الطريق لذلك .

ومما لا جدال فيه أن الاسلام قد أحدث في عالم البحر المتوسط هزة عنيفة أثناء القرن الأول من تاريخه . فقد تفجر دين جديد ، وسطعت قوة عسكرية جديدة ليحدثا ثورة في الأوضاع الدينية والجغرافية والسياسية في مناطق شاسعة في افريقية وآسيا وأوروبا . كما أن ظهور هذه القوة الجديدة قد وضع الدول والأديان الأخرى القديمة في مأزق شديد . فقد كانت الأحوال الداخلية في الدولة الجديدة تنبئ بثورة ثقافية واسعة النطاق ، وتعلن عن تشكيل قوى روحية جديدة متماسكة . وهكذا كان مولد الاسلام في القرن السابع الميلادي بداية فصل جديد من فصول التاريخ .

المجتمع الأوروبي القريب

من المؤكد أن الاهتمام الرئيسي في القرن السابع وبواكير القرن الثامن للميلاد كان يتركز في منطقة شرقى حوض البحر المتوسط ، حيث دلل ما تبقى من الامبراطورية الرومانية القديمة على استمرار وجوده ، عن طريق إعادة تجميع جذرى لمواردها السياسية والاجتماعية والاخلاقية وحيث ظهرت على المسرح قوة عسكرية جديدة ازداد نموها بافادتها من مصادر الحضارات القديمة ومواردها . وكان يخيم على كل مناحى الحياة في غرب أوروبا جو من الركود والتخلف ، معلنا أن الطابع المتبربر للحياة قد أصبحت له في النهاية الغلبة والسيطرة التامة . وأخذ الظلام الذى عم كل شىء يزداد مع الزمن . ومع ذلك ، يستطيع المرء ، في غمرة هذه المشكلات والصعاب الكثيرة ، أن يدرك أن المجتمع في غرب أوروبا كان قد وضع بشكل بطيء الأسس الصلبة التى بنى عليها صرح حياته الخاصة .

الفوضى السياسية

وربما كان أشد مظاهر الحياة حلكة وكآبة في غرب أوروبا بعد

عام ٦٠٠ م ، هو اضمحلال النظم الحكومية وقيام حكم مبنى على العنف
ففى نهاية القرن السادس سيطرت أربعة عناصر جرمانية على اوروبا
الغربية • وهذه العناصر هي : الأنجلو سكسون فى بريطانيا ، والفرنجة
فى غالة ، والقوط الغربيون فى اسبانيا ، واللبارديون فى ايطاليا • ويقدم
التاريخ السياسى لغرب اوروبا فى العصور الوسطى المبكرة سجلا كثيبا
للحروب ومؤامرات البلاط والظلم الشديد • وتعزى هذه الحالة العامة
من الفوضى والاضطرابات ، فى كثير من الأحيان ، الى سلوك حكام
الممالك الجرمانية • ومع ذلك ، تبرز من وراء هذه القصة المحزنة
للشئون السياسية استنتاجات عامة محددة عن طبيعة الحياة السياسية
فى الغرب خلال هذا العصر المظلم •

• لقد وقف الحكام الجرمان دون حراك أمام المشكلات الضخمة
(التى واجهتهم) ، التى كانت تتعارض وقيام نظام سياسى سليم •
ونظرا لأنهم كانوا أقلية وصلت الى مركز السلطة عن طريق الغزو ، فقد
كان نفوذهم محدودا على رعاياهم • ولما كانت حدود دولهم غير محددة
تحديدا واضحا ، فقد انغمسوا فى حروب محلية بهدف الحصول على
أراض جديدة أو الدفاع عن أراض قديمة ، كما حدث فى انجلترا بصفة
خاصة حيث عاشت معا عدة ممالك جرمانية صغيرة فى حروب مستمرة ،
وكما حدث فى ايطاليا حيث دخل اللبارديون بعد عام ٥٦٨ م فى تحد
لم يتوقف مع الأباطرة البيزنطيين على حكم شبه الجزيرة • وفضلا عن
ذلك ، فقد كانوا واقعين دائما تحت تهديد هجمات الغزاة الأجانب
المتكررة • اذ بدأ العرب فى القضاء على مملكة القوط الغربيين فى عام
٧١١ م ، وسببت قبائل السلاف المضايقات المستمرة للفرنجة على طول
حدودهم الشرقية • وفى النهاية واجه الحكام الجرمان المهمة الثقيلة
الخاصة بحكم شعوب كانت تمتع فى يوم ما بالخدمات التى قدمها لها
النظام الامبراطورى فى روما الذى تميز بتنظيمه الدقيق واتجاهه
الانسانى ، وكانت لا تزال تذكر تلك الخدمات • وعلى هذا ، فان أى

مقارنته بين الامبراطورية الرومانية القديمة والممالك الجديدة المتبربرة ،
لا يمكن أن تعمل الا على التهوين من شأن الجرمان والخط من قدرهم •

وبالرغم من جسامه العباء ، فقد حاول معظم الحكام الجرمان
خلال القرن السادس الميلادى تنظيم ممالكهم على غرار الحكومة
الرومانية التى سبقتهم • وكانت جهودهم (فى هذا المضمار) عظيمة ، هذا
الى جانب الانجازات الدائمة التى حققوها ، حتى أن أحد الثقة فى نظم
العصور الوسطى المبكرة قد أثبت أن الغزوات الجرمانية لم تحدث تغييرا
جذريا فى الحضارة الرومانية • ومع أن هذا الادعاء مبالغ فيه لاشك ،
الا أنه يبدو أن بعض الأنظمة الجرمانية المبكرة كانت تبشر بقيام نظام
سياسى ثابت مستقر لا يختلف فى صميمه عن ذلك الذى كان قائما فى
روما من قبل •

وعلى أية حال ، لم يحد الأمراء الجرمان عن بربريتهم الا قليلا
لاحداث مثل هذا التغيير والانتقال • فلم يفوا بوعودهم المبكرة فى
القرن السابع وبواكير القرن الثامن للميلاد • ولم تكن الأنظمة الملكية
المتطلعة فى القرن السادس سوى واجهات تخفى من ورائها العديد من
المساوىء السياسية الخطيرة المتنوعة • وتصلح مملكة لفرنجة فى غالة
تحت حكم الأسرة الميروفنجية أن تكون مثلا يكشف عن مصير الحكومات
الجرمانية التى تأسست فوق أنقاض الامبراطورية المتداعية •

ويترك التاريخ الميروفنجى فى ذهن القارئ انطبعا عن التناقض
بين ادعاءات ملوكها وسلطاتهم • فقد ادعى جميع خلفاء كلوفيس
(٤٨١ — ٥١١ م) مؤسس هذه الأسرة أن سلطتهم مطلقة • ولكن نفوذهم
الفعلى تضاعل تماما فيما بين نهاية القرن السادس وأواسط القرن الثامن
للميلاد ، الى أن انهار آخر الأمر • وكانت أسباب هذا الاضمحلال
عديدة • فم يستطع معظم الميروفنجيين التخلّى عن تقاليدهم السياسية

المتبربرة ، وخلقوا بذلك جوا مشبعاً بالعنف والارهاب والاستبداد نتيجة اعتمادهم الشديد على القوة لتحقيق غاياتهم السياسية • وقلمنا نجد أسرات ملكية على امتداد التاريخ استطاعت أن تصل الى مثل هذه الدرجة من العنف والوحشية التي وصل اليها حكام النصف الأخير من القرن السادس الميلادي ، كما سجل جريجوري أسقف مدينة تورز المعاصر في كتابه « تاريخ الفرنجة » • وحتى نساؤهم كانت أشد وحشية وقسوة ، وبصفة خاصة برونهيلدا Brunhilda إحدى أميرات القوط الغربيين التي تزوجت من الملك سيجبرت Sigebert ، والتي أطلق عليها المعاصرون لها اسم « ايزابييل الثانية » • وكذلك فريديجونده Fredegunde جارية الملك تشيلبيريك Chilperic وعشيقتة ، والتي أصبحت ملكة بعد خنق زوجته الأولى أخت برونهيلدا • ونتيجة لذلك أشعلت فريديجونده نار الحقد والكراهية في قلب برونهيلدا ، حتى بلغ الأمر تدبير مقتل سيجبرت وتحريض تشيلبيريك بالاستيلاء على ارث أبناء برونهيلدا • وان أعمال العنف العديدة لهاتيك الملكات اللاتي لا يغلبن على أمرهن ، قد أضرت بمصالح أزواجهن ونسلهن الى أبعد الحدود ، وسيطرن على تاريخ أواخر القرن السادس والسنوات الأولى من القرن السابع الميلادي • وربما كان العذر الوحيد لمسلكن هو أن الأقارب المتآمرين والنبلاء الطامعين قد دفعوا بهن الى ارتكاب الجرائم بتصرفاتهم الشائنة • وكان هؤلاء الأشخاص ، على أقل تقدير ، ذوي بأس ومقدرة • وهناك الكثير الذي يمكن أن يقال بالنسبة لسلسلة الملوك لتعاقبين الذين اعتلوا العرش خلال النصف الأخير من القرن السابع وبدايات القرن الثامن الميلادي • واذ أغرتهم وأفسدتهم مظاهر المغالة والافراط في حياة البلاط في عصر مبكر ، كانوا — عادة — يموتون وهم في الثلاثينات من أعمارهم ، ويتبعهم أبناءهم وقد ورثوا عنهم نفس الطابع المرزى الدنيء •

ولم يكن لدى الملوك (الجرمان) سوى فكرة غامضة للغاية عن المصالح العام • لذلك نادرا ما حاولوا القيام بخدمات ايجابية تجاه

رعاياهم • وكانوا يعتبرون الدولة طبقا للتقليد الجرمانى القديم من ضمن ممتلكاتهم الخاصة يقسمونها بين جميع ورثتهم من الذكور • وأدى ذلك الى قيام مشاحنات أسرية مليئة بالأفعال الشائنة التى استنفذت جهودهم، وكثيرا ما تحولت الى حروب أهلية مدمرة • كذلك أدت التقسيمات المتكررة (للأرض) فى نهاية القرن السابع الميلادى الى تفتت الدولة الميروفنجية التى كانت موحدة من قبل ، فأصبحت أربع ممالك منفصلة على الأقل • وحتى فى الحالات النادرة التى حاول فيها أى حاكم ميروفنجى الترفع عن الطموح الشره والمشاحنات القاتلة من أجل العمل على تنفيذ برنامج بناء ، كان يجد نفسه عاجزا بسبب الارتباك الذى تسببه والعبء الذى تلقى عليه مجموعات القوانين والعادات والطقوس الدينية واللغات ومستويات الثقافة المختلفة ، التى تجعل من المستحيل تطبيق أية سياسة موحدة على جميع رعاياه •

لهذا كله لم ينجح الميروفنجيون بالمرة فى السيطرة على مراكزهم بسبب ما حل بهم نتيجة عاداتهم المتبربرة وقلة الموارد وقصور مفاهيمهم عن الحكم والحكومة ، بالإضافة الى مشكلات أخرى عديدة • وقد عبر عنهم أحد كتاب القرن السابع الميلادى ساخرا بأنهم أصبحوا ملوكا عاطلين « لا يفعلون شيئا » ، قانعين بركوب العربات المفتوحة من احدى اقطاعاتهم الخاصة الى الأخرى ، واثارة الدسائس والمؤامرات بين أقاربهم للحصول على قطع صغيرة من الأرض • واذ أصبحوا عاجزين عن تدعيم السلام وفرض النظام ، فقد أدى فشلهم فى حد ذاته الى الاسهام فى انتشار الفوضى التى بدأت جذورها تتأصل فى صميم النظم السياسية الجديدة فى غرب أوروبا •

ولم يتمكن الملوك الميروفنجيون أنفسهم من الاحتفاظ سوى بحكومة بدائية • فقد اضطروا أن يقتسموا السلطة السياسية مع كبار ملاك الأرض • وكان مباشرة السادة النبلاء ملاك الأرض للسلطة السياسية أمرا ملتوبا يشوبه الخداع • ومع ذلك ، كان تطورا له أهمية الفائقة •

اذ فرق تماما بين غرب اوروبا وبين كل من بيزنطة والاسلام . ولا كان هذا التطور قد بدأ في أواخر عهد الامبراطورية الرومانية ، فقد عجل الملوك الجرمان بتنفيذه ، خاصة وأنهم كانوا في حاجة الى الدخل المالى الكافى لدعم الخدمات التى تقوم بها الحكومة . وكان الملاذ الوحيد لهم هو الالتجاء الى مطالبة رعاياهم بأداء خدمات سياسية على نفقتهم الخاصة ، وعلى وجه الخصوص ما يتعلق بالحملات العسكرية وحفظ الأمن والنظام فى الداخل واقامة العدالة . ولم يستجب لذلك سوى الأغنياء الذين طالبوا مقابل خدماتهم منحهم المزيد من الأرض من اقطاعات الملك الخاصة ، وكذلك حق حكم اقطاعاتهم الخاصة كممالك لهم . وبهذه العملية استنفذ الملوك مواردهم ، وقسموا سلطتهم ، بينما ازدادت الأراضى التى يمتلكها النبلاء ، وأقاموا لأنفسهم حكومات خاصة بهم ، وأخضعوا غالبية الأهالى لسلطتهم المباشرة . وحاول الملوك التأكد من ولاء ملاك الأرض لهم ، فطالبوهم بأن يؤدوا يمين التبعية والولاء ، وهو أمر يستحق الثناء ذلك الذى جعل من النبلاء طبقة خاصة فوق عامة الناس ، وأجبر الملوك على تكريس معظم جهودهم ضد تجاوز الأفضال الأقوياء لسلطاتهم .

وكانت هذه الخطوات المبكرة التى أدت الى ظهور النظام الذى أطلق عليه فيما بعد اسم النظام الاقطاعى سببا فى قيام مشاحنات مريرة فلم يكن الخط الفاصل بين سلطة كل من الملك والنبلاء محددا ، الأمر الذى أدى الى قيام الصراع المستمر بين الطرفين . ورغما عن ذلك ، فقد كان الوضع الجديد أساسا لاستعادة النظام (فى غرب اوروبا الذى اكتتفته الفوضى عقب سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة) . واستطاع النبلاء الأقوياء بعد أن تجمع كل منهم فى مساحة صغيرة من الأرض ، ان يحموا السكان ويحكموهم فى مواقعهم المباشرة . ومع ذلك ، فقد كان الملك على رأسهم باعتباره مصدر سلطاتهم ورمزا لعامة الناس الذين ينتظمون فى مجتمع أكبر . ولقد كان هذا النظام بدائيا اذا ما قورن بالأنظمة المعاصرة

له لدى الأباطرة البيزنطيين والخلفاء الأمويين • ولكن في ظل هذه الظروف بدأ الغرب يطور نظامه السياسى الذى تميز به ٨٥

التطور الاقتصادى والاجتماعى

ولقد عانى الغرب الأوروبى كذلك من تدهور اقتصادى تدريجى شديد فيما بين عامى ٦٠٠ و ٧٥٠ م • وكانت أسباب هذا التدهور موضع نقاش وجدل كبيرين ، ولكنها تعزى بدورها الى تخلف الجرمان الاقتصادى ، وقطع العرب لطرق التجارة فى البحر المتوسط ، والمساوىء المالية التى تنسب الى الأباطرة الرومان فى أواخر عهد الدولة الرومانية ومع أن أسباب الانهيار متشابكة يشوبها الغموض ، الا أنها كانت بادية للعيان • فقد كانت التجارة فى تدهور مستمر ، الى أن انعدمت بالفعل فى أواسط القرن الثامن الميلادى • وأدى توقفها الى شل حياة المدينة • ولم يكن أمرا غير عادى بالنسبة لمن كانوا يدركون حقائق الأمور فى القرن السابع ، الشكوى من نمو الحشائش فى شوارع المدن المدممة • واختفى التجار والعمال الفنيون ، واختفى معهم قدر ملحوظ من تلك المقدرة الفنية التى كان الغرب يتمتع بها • واضطر سكان المدن ، التى كانت مزدهرة يوما ما ، الى الاتجاه الى الزراعة كوسيلة لكسب لقمة العيش • وأصبحت الأرض بلا منازع المصدر الوحيد للثروة ، واختفى الاقتصاد المالى القديم وتركزت الحياة الزراعية بشكل مطرد حول الاقطاعيات الكبيرة المعروفة باسم «latifundia» أو أراضى السيد الاقطاعى التى كانت تتمتع باكتفاء ذاتى تقريبا • وبدأ ورثة ملاك الأرض الذين ينتمون الى الطبقة الأرستقراطية القديمة ، والذين قاموا فيما مضى بدور هام فى حياة المدن الاقتصادية والثقافية ، يميلون الى قضاء معظم حياتهم فى اقطاعياتهم • وتكونت القوة العاملة فى اقطاعيات السادة ملاك الأرض من صغار الفلاحين الذين جلبوا من الأسواق واللاجئين المتجولين من المدن المهدة بالموت ، ولا داعى لذكر حماية البوليس • ومقابل ذلك حصلوا على حصص صغيرة من الأرض يستخدمونها لمعاشهم • وتجمعت قوى عديدة

لتخلق نظاما اجتماعيا يطالب الفلاحين وفقا للقانون والمعاداة ، بأن يظلوا مرتبطين بالاقطاعات التي ولدوا فيها • وهكذا تكونت طبقة جديدة هي طبقة رقيق الأرض أو الأقتان •

وقد سبب تدهور التجارة وحياة المدينة ، فضلا عن ازدياد الاعتماد على الزراعة التي تركزت في اقطاعات منعزلة ، انخفاض مستوى المعيشة في المجتمع في غرب اوروبا الى حد بعيد • كما عجل بتقسيم هذا المجتمع الى طبقتين هما ملاك الأرض والأقتان ، وشجع على وجود محلية مغلقة في كل شيء • وفي هذه المجالات ، كان مجتمع غرب اوروبا متناقضا لدرجة كبيرة بالنسبة للمجتمعين اللذين كانا ينعمان بالرخاء ، واللذين اختلفا عنه في تكوينهما ، وهما : الدولة البيزنطية والعالم الاسلامي • وقد قدر لهذا التخلف الاقتصادي والاجتماعي أن يستمر لعدة قرون •

الحياة الدينية في غرب اوروبا

بينما كانت الممالك الجرمانية في غرب اوروبا منهمكة في وضع أساس جديد لمجتمعها داخل اطار نظام سياسي تهيمن عليه الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأرض ، وبينما كانت هذه الممالك مشغولة بنظام اقتصادي يتكون من اقطاعات مكتفية ذاتيا ، طرأ على النظم الدينية تغيير مماثل • وقد تمخض عن هذا التغيير نشأة كنيسة مسيحية تناسب مطالب العصر واحتياجاته • كما أنها كانت محصورة في نطاق الرقعة الجغرافية للغرب الأوروبي •

وربما كان من المناسب هنا أن نتذكر أنه قبيل عام ٦٠٠ م. كانت الكنيسة (الغربية) قد أكملت فعلا تنظيمها الأساسي ، كما طورت عقيدتها وخدمة القداس ودستورها الأخلاقي • وظلت مظاهر الحياة المسيحية هذه باقية بعد انهيار العالم الروماني بشكل يدعو الى الدهشة • وبذلك تم تزويد الكنيسة بموارد هائلة تمكّنها من مواجهة العصر الجديد • وكما

بدا لنا من مناقشة الحياة المسيحية في شرقى البحر المتوسط ، كان أهم تطور دينى له دلالة خلال القرنين السابع والثامن للميلاد هو انقسام المسيحية الى « كنائس » منفصلة عن بعضها ، وما استتبع ذلك من تكييف النظم الدينية القائمة لتلائم الأوضاع السائدة فى المناطق الجديدة .

ولقد انفصلت الكنيسة فى غرب اوربا عن الكنائس الأخرى بدعوى أنها لم تستطع اعتبارا من القرن الخامس الميلادى فصاعدا ، أن تعتمد على مساندة فعالة من حكومة قوية . فقد كان الأمراء الجرمان مسيحيين ، وكانوا يميلون الى تأييد الكنيسة ، ولكنهم كثيرا ما ألحقوا بها الضرر وألحقوها بأساليبهم الوحشية وحمقهم السياسى . وواضح أنهم شجعوا قيام الكنائس « الوطنية » داخل ممالكهم ، وبذلك أحدثوا تصدعا فى وحدة العالم المسيحى الغربى الذى ظل باقيا بعد تخلخل المجتمع وتخوله من المركزية الى المحلية . وفى الوقت ذاته ، كانت الزعامة الدينية التى يتمتع بها الأساقفة قد ازدادت الى حد بعيد بسبب ثروة الكنيسة المتزايدة . ولما كان معظم هذه الثروة مستمد من الأرض ، فقد أصبح الأساقفة ملاكا للأرض ، ولم يكن هناك مناص من القيام بمهام سياسية ارتبطت بإدارة الاقطاعات الكبيرة . وقد التهمت واجباتهم السياسية والاقتصادية معظم طاقاتهم ، ولم تترك لهم سوى القليل من الوقت للقيام بمسئولياتهم الدينية . ولما كانت الوظيفة (بهذا الشكل) تحمل بين ثنائها الثروة والقوة ، فقد كان التنافس من أجل المناصب الأسقفية مشحونا بالرديلة ، وتغلب الأقوياء — عادة — على الأتقياء . وأصبح الأسقف النموذجى فى القرنين السابع والثامن للميلاد ، شخصا دنيويا يهوى الحرب ولا يهتم اطلاقا بالأمر الروحية . ويعكس تقصيره هذا تلك النوعية الرديئة المتدهورة من الكهنة . فقد كان هؤلاء الرجال أميين يجهلون أصول العقيدة ، وليس لهم معرفة بخدمة القداس ، كما كانوا متساهلين مترخين فيما يتعلق بالمثل الأخلاقية فى الحياة . ولما كان هؤلاء هم الذين يمثلون الكنيسة فى الأبروشيات ، لذا لم يكن مستغربا

أن تتميز حياة جمهرة الناس بميلها الى الخرافات وممارسة الطقوس الوثنية والسقوط في حمأة الرذيلة • وبذا لم تكن المسيحية ، شأنها شأن غيرها من مظاهر الحضارة الغربية ، بمنأى عن بربرية الغزوات الجرمانية •

وفي نفس اللحظة التي تغلغت فيها البربرية في الحياة الدينية بدرجة بالغة الخطورة ، كانت هناك انقسامات جديدة تضعف من وحدة المسيحية • وقد أدى الخلاف حول أمور العقيدة الى ابعاد الكنيسة البيزنطية عن التقاليد الغربية • ومع أن القطيعة الدينية لم تكن تامة في عام ٧٥٠ م ، إلا أن التفاهم المتبادل كان ضعيفا لدرجة كبيرة ، وهبطت امكانية التقارب (بين الكيستين) بشكل ملحوظ بسبب عدم قدره الدولة البيزنطية على حماية ممتلكاتها الايطالية أو الابقاء على الاتصال بين الغرب وبيزنطة بدون أي عائق أو حاجز • وأصبح استيلاء المسلمين على أرمينية وسورية وفلسطين ومصر وشمال افريقية واسبانيا ، الذي صاحبه اعتناق عدد كبير من المسيحيين للدين الاسلامي ، يشكل ليس فقط خطرا كبيرا في انخفاض عدد المسيحيين ، ولكن أيضا ضربة قاسية للوحدة المسيحية • كذلك حصر العلاقات بين المسيحيين العديدين القاطنين في هذه المناطق واولئك الذين يعيشون في غرب اوروبا في أضيق الحدود ، حتى اقتصر الأمر على مجرد تبادل الخطابات بين الأساقفة • وكانت مثل هذه الخطابات بادرة عقيمة غير مجدية • كذلك اقتصر الامر على بعض رحلات الحج العارضة التي كانت تفد من الغرب الى الأراضي المقدسة • وبذلك أصبح المسيحيون الغربيون — في الحقيقة — في عزلة تامة عن بقية العالم المسيحي •

وواجهت الكنيسة في الغرب أزمات خطيرة ومشاكل صعبة بسبب تفشى الروح البربرية في المجتمع ، وانعزالها عن المجتمعات المسيحية الأخرى بدرجة متزايدة • ومع ذلك نجحت بالفعل في علاج بعض مشاكله مما أسهم في تقدم كنيسة العصور الوسطى بوسائل تتميز بأهميتها البالغة •

وفي عهود الحكام الضعاف المستهترين ، تخلت الحكومات العلمانية عن كل مسئولية تهدف الى تحقيق الرفاهية لرعاياها • وتولت الكنيسة ، بزعامة مطلقة ، عبء الضعفاء والمساكين • كما أبقت على المستشفيات والمدارس القائمة فحسب • وتسربت مثلها وأفكارها الداعية الى العدالة والرحمة الى القوانين الجرمانية العنيفة وصقلتها وهذبتها • وخدم رجال الكهنوت المتعلمين لدى الملوك بالقيام بمهام سياسة عديدة ، وبذلك تركوا بصمات الكنيسة على التطور السياسى (لغرب الأوروبى) • وعندما اتسع نطاق اسهام الكنيسة فى النشاط الاجتماعى ، ازدادت هيبتها ومكانتها • ونتيجة لذلك ، بدأت تلعب دورا هاما لم يكن فى الحسبان فيما يتعلق بصياغة مستويات جديدة للرخاء الاجتماعى ، والعمل على ايقاظ الوعى الاجتماعى فى غرب اوروبا •

ومن انجازات الكنيسة ، أيضا ، نجاحها المستمر فى اجتذاب الكثير الى المسيحية (الكاثوليكية) ، نتيجة الجهود التى قامت بها البعثات التبشيرية • وباعتناق الانجلو سكسون فى انجلترا الديانة المسيحية خلال القرن السابع الميلادى ، تمت بشكل نهائى عملية تحويل الأمم الجرمانية التى كانت قد غزت الامبراطورية الرومانية الى الدين الجديد • ومع أن الارساليات الدينية الايرلندية والرومانية كان لها أبلغ الأثر فى انجلترا ، إلا أن الجهود الرومانية كان لها التفوق فى النهاية ، وبخاصة فى مجال تنظيم المتنصرين الجدد ، وفى وضع أسلوب عمل الكنيسة • وعمل المرسلون الايرلنديون خلال القرن السابع على تحطيم الجيوب الوثنية المتبقية فى القارة الأوروبية ، وبخاصة على طول الحدود الشرقية لمملكة الفرنجة • وفى مستهل القرن الثامن كانت الارساليات الانجليزية بتوجيه من البابوية (فى روما) قد اخترقت المناطق الواقعة فيما وراء نهر الراين ، وأخذت فى ادخال الجماعات الجرمانية التى لم تكن قد غزت الامبراطورية الرومانية القديمة من قبل الى المسيحية • وكانت الارساليات الدينية العاملة فى هذه الجهات تمثل القوة الحضارية التى تصدت للنظام

المقبرير فوق أرض خاضعة للبرابرة ، وجعلت المسيحية حلقة الوصل الأساسية بين القادة الجرمان داخل نطاق الامبراطورية القديمة وخارجها وتزنت على هذه الجهود أن بدأت الحضارة الأوروبية الوليدة في الانتشار والنمو . وتحت القيادة المسديدة ، كان من الميسور القيام بأمر الإصلاح الدينى بسهولة أكثر فى الجهات التى أقيمت فيها الكنيسة مؤخرا عن تلك التى ارتبطت فيها بالتقاليد من قبل . فأصبحت إنجلترا ، مثلا ، مركزا للتقوى والعلم فى الغرب كله أثناء القرن السابع وبدايات القرن الثامن ، كما مارس رجال كنيستها نفوذا قويا خارج إنجلترا أيضا . وبطريقة مماثلة أتاح عمل الارساليات الفرصة أمام أسقف روما لوضع أراض جديدة تحت سيطرته ، الأمر الذى أدى الى ازدياد نفوذه وسلطاته .

ومع ذلك ، فان اتساع نطاق عمل الكنيسة فى المجتمع وامتداد حكمها فوق مساحات جغرافية جديدة ، يبين بشكل واضح نجاحها فى ايجاد أنظمتها تادرة على إعادة النظام داخل المجتمع المسيحى ، وتعميق حياته الروحية . ومن هذه الزاوية يتميز القرن السابع وبواكير القرن الثامن للميلاد بأهمية خاصة ، بسبب نمو البابوية وانتشار نظام الرهبنة البندكتية .

وكانت البابوية قد أرست دعائمها كقوة هامة فى العالم المسيحى قبل القرن السابع بفترة طويلة . ووفقا للتقليد القائل بأن روما هى الأسقفية الأولى فى العالم المسيحى ، استنادا على اصطفاء المسيح لبطرس ، واختيار بطرس مدينة روما بعد ذلك لتكون مقرا للكرسية — وفقا لما تقدم خرج أساقفة روما بسمعة مفادها أنهم هم مصدر العقيدة الأرثوذكسية الصحيحة والشريعة الحقّة . وكانوا قد حصلوا على ثروة طائلة . ولعبوا دورا هاما فى الحياة السياسية فى إيطاليا ، وبصفة خاصة أثناء الغزوات الجرمانية وانهيار الحكومة الرومانية . ومع ذلك ، فقد كانت قوة البابوية وهيبتها مهددين خلال القرن السادس ، أولا بسبب

القوة الفتية للامبراطورية الرومانية الشرقية ، وثانيا بسبب المباردين
الغزاة • وقد أدى استيلاء جستنيان على ايطاليا الى وجود سيد علمانى
تعلو سلطته سلطة البابوات • وقد أصر السيد على املاء سياسة
دينية ، كما رد على ادعاءات روما بالأسبقية بمساندته لمطالب بطريارك
القسطنطينية • وفى عام ٥٦٨ م ، دفع الغزو للمباردى شبه الجزيرة
الايطالية الى الحرب ، وهدد على الدوام بالاستيلاء على روما • وكان
النفوذ البابوى قد أخذ فى الضعف بسبب ميل الملوك الجرمان القوي الى
فرض سيطرتهم على الكنائس الواقعة داخل أراضيهم •

وفى هذا الوقت العصيب أنقذ جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤م)
بعبقريته المهمة بابوية روما من القوى التى هددتها • وكان جريجورى
الشاب سليل عائلة شريفة ، ولذلك تلقى تعليما جيدا بهدف اعداده للخدمة
فى الحكومة الامبراطورية • ولكنه سرعان ما ترك الخط الذى سار فيه
ودخل سلك الرهبنة • وكان قبوله راهبا حسبما أعلن هو غاية ما يتمناه •
ثم دخل فى خدمة البابوية كممثل لها فى القسطنطينية • وبعد ذلك ارتقى
كرسى البابوية عام ٥٩٠ م بناء على رغبة الشعب الرومانى الذى أثار
قلقه فى تلك الفترة انتشار وباء خطير هو الطاعون • وظل طوال بابويته
الراعى الصالح لرعيته من الرومان • اذ كان يجمع الخلال ليأكلوا ،
ويرفع من روحهم المعنوية بعظاته القوية وبتنظيم نواحي النشاط المختلفة،
للتخفيف من معاناة المرضى وبؤس المساكن • وكانت مواهبه ، مع
ذلك ، تتعدى مجال العمل المحلى •

ولما كان جريجورى رجلا يتميز بغيرته الدينية العميقة وعقله العلمى
وعناده ، فقد أرسى سياسة تهدف الى جعل البابوية مستقلة سياسيا
واقتصاديا ، كما عمل على ازدياد زعامتها الروحية فى العالم المسيحى •
ولكى يضع أساسا (متينا) للاستقلال الاقتصادى والسياسى ، قنص
بتدبير أمور الممتلكات البابوية فى ايطاليا • وحتى يقلل من اعتماد البابوية
على أية قوة سياسية خارجية ، عمل على أن تصبح البابوية قوة تقسوم

بدور الوساطة في الصراعات الايطالية بين الملوك اللباردين والأباطرة البيزنطيين • ولكن مجهوداته لخلق قوة علمانية مستقلة لم تستفد جهوده • اذ اكتسب جريجورى شهرته الفائقة كزعيم روحى • لقد كان موهوبا على وجه الخصوص في تفسيره للعقيدة المسيحية بلغة تناسب عقلية الغرب الأوروبى • وأصبحت عظاته وشروحه على الكتاب المقدس، وتعاليمه الرعوية ، وكتاباتة المهمة ، جزءا أساسيا من التقاليد الدينية للغرب في كل مكان ، مما ساعد على تعميق الحياة الروحية • كما أبدى اهتماما بصقل وتهذيب خدمة القديس المسيحى ، ووضع صيغة موحدة له • كما كان مسئولاً عن توجيه جماعة من المرسلين الدينيين الى انجلترا الذين نجحوا ليس فقط في كسب عدد كبير الى المسيحية (الغربية) ، بل وفي وضعهم تحت الزعامة الرومانية • وتحت قيادته تمتع الكرسي البابوى الرومانى بأولوية جديدة في كل أنحاء العالم المسيحى • ومع ذلك ، فمن الواضح أن سياسة جريجورى الرامية الى وضع اللبنات الأولى لسلطة البابوية ، كانت خطوة في سبيل تأسيس كنيسة غربية واحدة مستقلة • وكانت محاولاته للتخلص من الارتباط بالامبراطورية البيزنطية ، وكتاباتة المبسطة باللغة اللاتينية ، وجهوده الحريصة الحذرة لربط الشعوب التى دخلت مؤخرا في الديانة المسيحية بروما — كانت كلها ترمى الى ربط الزعامة القوية للبابوية بالغرب ، مع حصرها وتركيزها في شخص بابا روما •

ومع أن أحدا من خلفاء جريجورى لم يستطع أن يحقق ما حققه هو الا أن الجميع واصلوا سياسته ، وأسهموا في النهوض بالبابوية • كما أحرزوا في ميدان التبشير نجاحا ملحوظا خلال القرن الثامن بين الجرمان القاطنين شرق نهر الراين • كذلك اهتموا اهتماما زائدا بأمر الإصلاح الروحى والأخلاقى ، وعلى وجه الخصوص داخل الكنيسة الفرنجية • وفضلا عن ذلك ، فقد حققت جهودهم في سبيل تحديد العقيدة واعلان أسلوب موحد لممارسة الطقوس والشعائر الدينية قدرا كبيرا من النجاح

حتى لقد أصبح من المؤلفات التحدث عن مسيحية « رومانية » خلال القرنين السابع والثامن للميلاد . ويتضح هذا النشاط البابوي في مقاومتهم التي كلفت بالنجاح للمراسيم اللايقونية التي أصدرها الأباطرة البيزنطيون والخاصة بعدم الاعتراف بـ صور القديسين . وفي هذا المقام ، كان استمرار تمسك خلفاء جريجوري بفكرته الخاصة باستقلال البابوية ، أمرا له أهميته البالغة . ومع أن بابوات روما كانوا من الناحية الاخمية خاضعين لبيزنطة ، إلا أنهم كانوا قادرين على الافلات من رقابتها الشديدة ، وذلك بتشجيع اللباردين على مناوشة الأباطرة البيزنطيين . ومع ذلك عندما ازداد انشغال الأباطرة بالمشكلات التي واجهتهم في الشرق ، وجد البابوات أنفسهم تحت رحمة اللباردين . واستطاعوا التخلص من سيطرتهم باقتناع الفرنجة ببسط حمايتهم على البابوية . وكان هذا التحالف الذي ربط البابوات بالسياسة الغربية بشكل يصعب الفكك منه ، حدثا له دلالة البالغة ، اذ أدى الى تقوية مركز البابوية في غرب أوروبا .

وكان دور البابوية الكبير كقوة سياسية مستقلة وزعيمة الغرب في الأمور الروحية ، قد ساندته انتشار الرهبنة البندكتية مساندة عظيمة فكان النسك المسيحي الذي يتطلب التخلي عن الأمور الدنيوية لخدمة الله بشكل أفضل ، قد تأصلت جذوره في الشرق مبكرا في القرن الثالث الميلادي وكان قد ازدهر في أشكال متعددة في السنوات التالية . وكان هذا التجسيد للتقوى والورع المسيحي في الغرب قد اتخذ طابعا فريدا جديرا بالاعجاب بفضل عبقرية القديس بندكت أوف نرسيا St. Benedict or Nursia (٤٨٠ — ٥٤٣ م) . فقد كان ابن احد النبلاء الايطاليين وتخلي عن وظيفة مرموقة في الخدمة العامة ليصبح راهبا . وفي النهاية أسس ديرا في مونت كاسينو Monte Cassino في ايطاليا حيث وضع النظام البندكتي الشهير لتنظيم الحياة اليومية لاجزاء جماعته . وينحصر جوهر هذا النظام في الفكرة القائلة بأنه يمكن خدمة

الله على أحسن وجه بواسطة جماعة ندرت نفسها له ، بتكريس جهودها بين الصلاة والدراسة والعمل اليدوي • ولضمان أقرار النظام اللازم ، أعطى هذا القانون لرئيس الدين سلطة واسعة على جماعته • كما ألزم الرهبان بأن يقسموا بأن يعيشوا عيشة الفقر والعفة والتبتل والطاعة ، وذلك بالامتناع كلية عن المسائل المادية والشخصية ، وعدم الانغماس في الأمور السياسية للعالم الخارجى ، مع إطلاق حزيتهم في تركيز جهودهم على العمل داخل الدير وعبادة الله •

وقد سارت جماعات رهبانية أخرى على نسق النظام البندكتى. في معظم أرجاء الغرب الأوروبى خلال القرون السادس والسابع والثامن الميلادية • وبذلك تشكلت صفوة مختارة من « جند المسيح » الذين اضطلوا بخدمات لا تحصى في المجتمع المتبرير الذى كانوا يعملون فيه • وربما كان أهم هذه الخدمات هو النموذج الذى وضعه الرهبان، البندكتيين، للتقوى والصلاح • اذ أعدوا على وجه الخصوص للقيام بدور قيادى فيما يتعلق بمسألة الاصلاح الدينى • كما عملوا على توجيه الأوربيين المضالين الى كيفية أداء القداس الرومانى على الوجه الصحيح ، وقاموا بدور كبير في نشره • وخدموا كمدرسين ينقلون الى الأميين تفهما أعمق لأسس العقيدة المسيحية • كما قاموا بإعادة تنظيم أوجه النشاط المتعلقة بأعمال الخير والاحسان • كذلك عملوا ، وهم بصحبة الانجيل ، على نشر المعارف والمهارات الفنية بين جيرانهم الوثنيين • وكانت اقطاعاتهم الديرية المنظمة تنظيما حسنا ، نماذج طيبة للفلاحة الجيدة • وكانت كل هذه التطورات نتيجة لطابع النظام البندكتى الخاص ، مع الاصرار على مراعاة الاعتدال والاتزان والنظام • وربما تفوق الزهاد والنسك في الشرق على البندكتيين في المقدرة على تحكمهم في انكار الذات والبعد عن الملذات الجسدية • مثال ذلك الجلوس على قمة عمود مدة ثلاثين عاما

St. Simon Stylites

كما فعل القديس سمعان العمودى

أو في تفهم المسائل المعقدة في علم اللاهوت المبكر • ولكن عظمة البندكتيين

تكن في مقدرتهم التي انفردوا بها في حل المشكلات الدينية الخاصة
بالغرب .

وعلى العموم ، كان هذا العصر عصر نشاط خلاق وملحوظ في
الغرب المسيحي . وقد بدأ بتأسيس كنيسة غرب اوروبا التي تمكنت من
البقاء في اتجاهها الصحيح . وبطبيعة الحال ، لم يتخل أحد عن الايمان
الحقيقي بوجود رابطة عالمية للمسيحيين . ولكن بدا واضحا أن القوى
المنشقة في هذا العصر كانت تعمل على تفتيت المسيحية العالمية . كما
أخذت تشجع الانفصال الكنسي ، بحيث أصبح لكل كنيسة كيانه ونظمها
الخاصة بها .

التطور الثقافي

وفي غمرة المشاكل والصعاب التي حلت بالغرب الأوروبي بعد عام
٦٠٠ م ، لم يكن مستغربا أن تتدهور الفنون والآداب . فقد تميز القرن
السابع وبواكير القرن الثامن للميلاد ، على وجه العموم ، بهبوط مستوى
الحياة الثقافية في الغرب . وكانت بقايا الثقافة اللاتينية قد أهملت اهمالا
شديدا ، ولم يحل محلها نشاط جديد . وكان وطاة النظام المتبربر
والفوضى السياسية والعنف والانعزالية والفقر شديدا على المجتمع ،
بحيث لم يعد ثمة مجال لأي نشاط مبدع خلاق . ولهذا السبب عرفت
هذه الفترة باسم « العصور المظلمة » .

ومع ذلك ، فمن الضروري حصر هذه العموميات لانه وجدت بعض
الايجابيات ، ومن بينها الجهود التي بذلت للاحتفاظ بجانب من الثقافة
الكلاسيكية . فقد قام الرهبان البندكتان ، الذين ساروا بهمة على نهج
مؤسس جماعتهم فيما يتعلق بالدراسة بنسخ أعمال الكتاب القدامى
ومؤلفات آباء الكنيسة لتزويد مكتباتهم الصغيرة بها . ولاستخدام هذه
المؤلفات والافادة منها ، احتاجوا الى تعلم اللغة اللاتينية . ولذلك وضعوا

كتبها دراسية بسيطة لدراسة اللاتينية • كما أسست المدارس لتعليم المعارف الأولية التي يحتاج اليها الرهبان لمتابعة دراستهم • ولذلك قسم الاحتفاظ برابطة ضعيفة واهية بالعالم القديم الذي كان يلفظ آخر أنفاسه • وهذه حقيقة لها أهميتها الكبرى بالنسبة للغرب الأوروبى فى فترة متأخرة • اذ استطاع أفراد قلائل فى ظل ظروف طيبة وملائمة ، وبخاصة داخل الأديرة ، البندكتية التى تأسست أخيرا ، الدراسة والكتابة • وفى بدايات القرن السابع الميلادى أخرجت اسبانيا رجلا بارزا فى أمور العلم والتعليم هو ايزيدور Isidore - أسقف اشبيلية Seville - وبالإضافة الى المقالات الهامة فى اللاهوت التى كتبها ايزيدور ، فقد جمع دائرة معارف ضخمة أطلق عليها اسم « الاشتقاقات » Etymologies • وهى تشتمل على شذرات من المعرفة مستقاة من عدد كبير من مؤلفات الكتاب القدامى ، وتعالج الكثير من مختلف الموضوعات • وظلت دائرة المعارف هذه هى المنهل العام للمعرفة بين طلاب العلم فى كل أنحاء الغرب لعدة قرون • كما أنه أمكن بث حياة ثقافية لامعة فى الأديرة الايرلندية فى هذه الفترة • فقد كان بوسع طلاب العلم الايرلنديين استخدام اللغة اليونانية التى كانت قد زالت من كافة أرجاء الغرب منذ زمن طويل • وتمثل المخطوطات الايرلندية المصورة التى ترجع الى هذا العصر آيات الفن الرفيع فى العصور الوسطى المبكرة • وعن طريق الارساليات الدينية ، تم نقل جانب من حماسة الايرلنديين للعلم الى انجلترا • وفى أخريات القرن السابع وأوائل القرن الثامن برز فى أديرة انجلترا عدد كبير من طلاب العلم الذين ألفوا كتباً فى التاريخ والجدل اللاهوتى والشعر وتفسير الانجيل وبعض النبذ العلمية • وكان بيده Bede أشهر طلاب العلم الانجليز • وكان تأثيره ملحوظا فى جميع أنحاء الغرب • فكتابه المعنون « التاريخ الكنسى للشعب الانجليزى » الذى يتتبع فيه قيام المسيحية فى انجلترا ، يزود القارئ بصورة مستوفاة تماما للحياة فى المجتمع الغربى شبه المتبربر فى القرنين السادس والسابع وأوائل القرن الثامن للميلاد • كما أنه يمثل نموذجا رفيعا لمستوى الدقة البالغة والأسلوب

الأدبى الجيد • وقد حالت هذه الجزر التى كانت مراكز اشعاع للنشاط الفكرى والأدبى • دون اصابة الحياة الثقافية فى الغرب بالعقم التام • كما أدت دورها باعتبارها قاعدة ارتكزت عليها الانجازات الثقافية فيما بعد •

وكانت سيطرة الكنيسة (اللاتينية) على الحياة الفكرية الضعفية فى غرب اوروبا ، فى حد ذاتها ، تطورا حيويا • ذلك لأن طلاب العلم من رجال الكنيسة والأديرة ، اقتبسوا رغما عنهم مظاهر الثقافة الكلاسيكية القديمة التى تتفق ومفاهيمهم الدينية والأخلاقية ، بينما أهملوا كل ما هو دنيوى • كذلك كرسوا جهودهم الخلاقة للأمور الدينية ، فى الوقت الذى اغفلوا فيه الموضوعات الأخرى المتعلقة بالفكر والفن والأدب • ومع مرور الزمن كان هذا النشاط الذى قد طبع الثقافة بصفة نهائية بطابع مسيحي وكهنوتى ، وجعل الكنيسة تحتكر بشكل فعال فحوى ومضمون التطور الثقافى الذى أصبح مميزا لحضارة أوروبا الغربية لعدة قرون •

وان العالم الذى كان جريجورى الكبير يتوقع له شرا ، وجد فيما بين عامى ٦٠٠ و ٧٥٠ م توجيهها جديدا ، بعد أن تلمس كل فرد فيه موقع قدميه • اذ انقسم التراث الرومانى الى ثلاثة أقسام : أحدها بيزنطى ، والآخر اسلامى ، والآخر أوروبى غربى • وكان كل قسم منها يحوى قوى حيوية جديدة لم يكن يحتويها الاطار القديم الذى أصابه الضعف الشديد نتيجة المساوىء الداخلية • وكانت القوى الجديدة جياشة فائرة لدرجة أنه فى عام ٧٥٠ م كان قد تقرر بصفة مطلقة مصير التطور التاريخى ، مع أنه تم وضع اللمسات الأولى للاتجاه الذى سوف يسلكه • وعلى أية حال ، فان هذا التغيير الكبير لم يقتل التقاليد اليونانية الرومانية من جذورها ، لانه كانت تكمن فى كل من هذه الحضارات الجديدة النظم والأفكار القديمة التى قدر لها أن تمتد عجلة التطور فى المستقبل بغذاء حيوى •

الفصل الثاني

نهضة الغرب

قيام الأسرة الكارولنجية ، وعظمتها باعتبارها قوة عالمية (٧١٤ – ٨٤٠) :

- أصل الأسرة الكارولنجية
- بين القصير (٧٤١ – ٧٦٨ م)
- شارلمان (٧٦٨ – ٨١٤ م)
- لويس التقى (٨١٤ – ٨٤٠ م)
- طبيعة المجتمع الكارولنجي

الدولة الاسلامية في ظل الخلفاء العباسيين الأوائل :

- العباسيون الأول (٧٥٠ – ٨٤٧ م) والخلافة الجديدة
- عالمية الاسلام
- تطور الثقافة الاسلامية

بيزنطة في العصر اللايقوني (٧٤١ – ٨٤٣ م) :

- الحركة اللايقونية ، والسياسة ، والدفاع
- الحضارة البيزنطية في العصر اللايقوني

حوالى منتصف القرن الثامن الميلادى بدا فى الأفق ، مرة أخرى ،
قدر ملحوظ من الاستقرار السياسى فى البلاد المحيطة بالبحر المتوسط .
وكان الجرمان والسلاف والآفار والبلغار والعرب هم أنشط القوى خلال
الفترة السابقة للتحويل السريع . وقد أنزلوا جميعا بالعالم المتمدن
ضربات قوية . وعندما حل عام ٧٥٠ م كانت غزواتهم قد تم كبجها ،
وتوارى الخطر الذى كان يهدد الحضارة بالانهيار التام . وكان دور
البيزنطيين فعالا ومؤثرا فى احتواء هذه الهجمات على وجه الخصوص .
وكانوا قد أنقذوا امبراطوريتهم بالاحتفاظ بقوتهم والعمل على تنظيمها .
وفى أواسط القرن الثامن الميلادى وقفوا حاجزا منيعا ضد المزيد من
غزوات البرابرة . وفى نفس الوقت كف الغزاة عن التهديد . وكان
العرب ، وهم أقواهم جميعا ، قد أظهروا من الدلائل ما يكشف عن
تحولهم عن سياسة الهجوم ورغبتهم فى الاستقرار فى الأماكن التى كانوا
قد استولوا عليها . كما بدت الدول الجرمانية المختلفة (التى استقرت)
فى غرب اوروبا أقل تهديدا لما أصابها من التفكك السياسى والفقر
الاقتصادى والجهل الثقافى والتخلف المعنوى . وبدت بما لا يدع مجالا
للسك غير قادرة على الاخلال بحالة التوازن فى منطقة البحر المتوسط .

ومع ذلك ، فان الاستقرار المنشود لم يصبح أمرا واقعا وثابتا .
لقد اهتز فجأة وبعنف ميزان القوى الجديد فى حوض البحر المتوسط
حوالى عام ٧٥٠ م بتفجر قوة حيوية فى غرب اوروبا . وكان وراء
تحويل مملكة الفرنجة الى قوة كبرى على يد الأسرة الكارولنجية تطورات
اجتماعية ودينية وثقافية ، أوضحت أن النفوذ المتزايد للغرب كان أكثر
من مجرد ازدهار للقوة المجردة التى أبدأها السادة الجرمان فى حروبهم .
وكان دور الكنيسة ، على وجه الخصوص ، له دلالاته وأهميته فى امداد
الغرب بالقوة . وأخيرا ، أصبح الغرب الأوروبى ، تحت الزعامة
الكارولنجية ، على وعى بميزاته وخصائصه ووحدته . وحاول جاهدا
أن يعبر عنها فى نظمه الخاصة .

ولقد لقي الانهيار الذى أصاب روح التوسع العسكرى بين المسلمين بعد عام ٧٥٠ م ، ترحيبا من أعداء العرب القدامى ، وبصفة خاصة « روما الثانية » الواقعة على البسفور . وطراً على المجتمع الاسلامى تعبيرات داخلية جذرية أدت الى خلق حضارة عامة حلت محل المجتمع العربى المتمسك بعصبية فى عصر الغزو البطولى . ومع ذلك ، فقد ألقى بريق الحضارة الاسلامية الجديدة الظلال على دور بيزنطة كرائدة للثقافة العالمية . وتحدى الغرب الأوروبى تحت الزعامة الكارولنجية الدولة البيزنطية مرارا ، وتجاهل ادعاءاتها المهزوزة فى السيادة على العالم المسيحى سياسيا ودينيا . وهكذا ، بينما كانت الفترة الواقعة فيما بين عامى ٦٠٠ ، ٧٥٠ م تتميز — أساسا — بتقلص حجم العالم البيزنطى ، شاهدت الفترة الممتدة من عام ٧٥٠ الى عام ٨٥٠ م تناقضا مماثلا فى هبة بيزنطة ومكانتها .

قيام الأسرة الكارولنجية ، وعظمتها باعتبارها قوة عالمية (٧١٤ — ٨١٤م)

بعد موت شارلمان عام ٨١٤ م بفترة قصيرة خلدت ذكرى انجازاته بهذه العبارة التى كتبت على ضريحه « فى هذه المقبرة يرقد جثمان شارل الامبراطور العظيم السيد الرأى الذى جعل مملكة الفرنجة بشهامة وشرف مملكة واسعة ، وحكم بنجاح لمدة سبعة وأربعين عاما . . . » لقد لخصت عبارة المديح هذه بدقة الملامح الأساسية للمنجزات التى حققها جميع الكارولنجيين الأوائل . وان تاريخ الغرب الأوروبى منذ أوائل القرن الثامن وحتى حوالى عام ٨٤٠ م ماهو ، فى المقام الأول ، سوى قصة تروى كيف أصبحت أسرة جديدة دولة « عظيمة » فى نظر العالم ، نتيجة الفتوحات التى حققتها ، والحكومة الرشيدة الناجحة (التى أقامتها) ، والتأييد القوى الذى قدمته للعقيدة الحققة .

أصل الأسرة الكارولنجية

سبق أن ذكرنا أن الأسرة الميروفنجية فى مملكة الفرنجة قد

اضمحلت خلال القرن السابع وأوائل القرن الثامن للميلاد ، حتى أصبح ملوكها يلقبون بحق بأنهم الملوك الذين « لا يفعلون شيئا » • وقبل أن يحل غيرهم محلهم بصفة رسمية ، كانت السلطة قد اغتصبت منهم بقيام الأسرة الكارولنجية • فبعد أن أصبح للكارولنجيين السيادة في القرن السابع الميلادي بالحصول على أراض شاسعة في اوسترازيا Austrasia سرعان ما حققوا لأنفسهم مكانة تفوق تلك التي تمتعت بها أى أسرة أخرى شريفة ، وذلك بوضع نظام يتوارثون بمقتضاه وظيفة رئيس البلاط في خدمة الحكام الميروفنجيين في تلك المملكة الصغرى الواقعة في الجزء الشمالى الشرقى من مملكة الفرنجة • وكانت المسئولية الرئيسية لهذه الوظيفة هى ادارة الأراض الملكية وتنظيمها • وعمل الكارولنجيون عن طريق الاستغلال المخطط لهذه الوظيفة لفترة غير قصيرة من الزمن لما فيه مصلحتهم ، على تكوين فئة موالية لهم • وبعد أن منح أمراء السراى الكارولنجيين قطعا من الأراض الملكية لنبلأ اوسترازيا مقابل تأييدهم المخلص لهم ، نجحوا فى الحصول على ولاء هؤلاء النبلاء بما يفوق ولاءهم للملوك (الميروفنجيين) الضعاف •

وبعد ذلك ، أخذ رؤساء البلاط الطموحون ينزلون قواتهم فيما وراء اوسترازيا للاشتراك فى الصراع الذى نشب بين مختلف أفراد الأسرة الميروفنجية • وكان النجاح فى هذه المغامرة حليف بين هريستال Pepin of Heristal • وهو أول كارولنجى برز فى التاريخ بشكل واضح • وبعد أن جعل من نفسه بطلا على اوسترازيا أمام الملك الميروفنجى الذى كان فى خدمته كرئيس للسراى ، أعلن بين الحرب ضد رئيس البلاط فى مقاطعة نويستريا Neustria الذى عمل على رفع مكانة فرع الأسرة الميروفنجية المالكة الذى ينتمى اليه • وفى عام ٦٨٧م تمكن بين بفضل الانتصار العسكرى الحاسم الذى أحرزه من السيطرة على نويستريا ثم على برجنديا • ولم يحل النصر الذى حققه بين دون تفتت الدولة ، كما أنه لم يؤد الى اعادة وضع نظام سياسى

موحد فحسب ، بل مكنه هذا النصر أيضا من أن يصبح رئيس البلاط للمملكة الميروفنجية التي أعاد توحيدها .

وأحرز الكارولنجيون تفوقا جديدا تحت زعامة شارل مارتل بن

بين ، والذي شغل وظيفة رئيس السراى فى الفترة الواقعة بين عامى ٧١٤ و ٧٤١ م . ويلخص لقب شارل وهو « مارتل » الذى يعنى « المطرقة » سياسته تلخيصا رائعا . ذلك لأن شارل كان محاربا غليظ القلب سحق كل مقاومة داخلية لسلطة الملك ، ودفع المهاجمين الأجانب عن البلاد . وكان ضحاياه الأساسيون داخل حدود مملكة الفرنجة يتمثلون فى تلك العائلات الشريفة العظيمة التى تحدث سلطة التاج واستهانت بها . ومع أن الكارولنجيين أنفسهم كانوا قد وصلوا الى السلطة أخيرا باغتصاب نفوذ ملوكهم وثوراتهم ، فإن أسرتهم تحت قيادة مارتل وجهت سياستها نحو حماية تشوبها الغيرة والحماسة للسلطة الملكية ضد مطامع النبلاء . وفى سبيل اخضاع النبلاء وحماية الحدود ، ركز شارل مارتل القوة العسكرية فى قبضته بوصفه رئيسا للسراى . وكانت مشكلة الدفاع معقدة نتيجة التغير الذى طرأ على أساليب الحرب والقتال ، حيث استبدل المشاة بالفرسان الذين يرتدون الدروع كعنصر أساسى فى الجيش . واستطاع شارل حل المشكلتين الأساسيتين اللتين ارتبطتا بالتحول العسكرى ، وذلك بتكوين جماعة من الأفصال المخلصين الذين أقسموا يمين الولاء والاخلاص للملك ورئيس بلاطه ، ووهبهم هبات كبيرة من الأرض التى استولى على بعضها من (أملاك) الكنيسة .

ولم يكن المقصود بالأرض ربط النبلاء بالملك ، ولكن لتمكنهم من مواجهة النفقات الباهظة — فى ظل الظروف الاقتصادية السائدة — لعلف جيادهم ، ولتكريس أنفسهم تماما للتدرب على فنون الحرب الصعبة من فوق ظهور الجياد . وفى النهاية احتفظ النبلاء بالأرض طالما ظلوا مخلصين فى أداء الخدمات الباهظة التكاليف التى يدينون بها . وقد

حالف شارل التوفيق في تطوير القوة المحاربة بعد الثورة التي شملت فنون الحرب ، حتى أنه بات بمقدوره احراز انتصارات حاسمة على أعدائه ومنافسيه الأجانب الأقوياء . وكان أشهر انتصار له في عام ٧٣٢م بالقرب من مدينة تورز عندما ألحق الهزيمة بفرقة اسلامية مغيرة . كما أحرز انتصارات باهرة مماثلة على السكسون والفريزيين الوثنيين الذين هددوا الحدود الشمالية الشرقية للملكية . وكان شارل في أواخر حياته يتمتع باحترام كبير في كل مكان . ومع أنه كان لا يزال رئيس البلاط ، إلا أنه استخدم سلطته الشخصية في ادارة شؤون الملكة وفقا لما يراه مناسبا وفي الحقيقة ، كان الكارولنجيون هم سادة دولة واسعة ، على الرغم من أنهم لم يضعوا التاج بعد فوق رؤوسهم .

بين القصير (٧٤١ — ٧٦٨ م)

تمتع الكارولنجيون بمكانة كبيرة متزايدة في عهد خليفة شارل مارتل المدعو بين القصير . ولم يتخل بين لحظة واحدة عن سياسة مارتل الخاصة بالقمع القاسى العنيف لأولئك الذين قاوموا السلطة المركزية أو تهاونوا في أمر الدفاع القوى لحدود الدولة ، حتى نجح في توسيع نطاق السياسة الكارولنجية في عدة اتجاهات هامة .

وربما كان أعظم ما قام به هو تأييده النشط لأكثر القوى الدينية تقدما في هذا العصر . فلقد جعل حكام الفرنجة من أنفسهم حماة للمسيحية كتقليد جروا عليه . ومع ذلك ، فإن الجهود الميروفنجية في هذا السبيل لم تأت بأطيب النتائج . وشجعت سياسة الملوك نمو كنيسة فرنجية وطنية لم تربطها ببقية العالم المسيحى سوى أوهن الروابط . كما ساعدت هذه السياسة على اضعاف الطابع العلمانى على وظائف الكنيسة وممتلكاتها . فكانت النتيجة أن تغلغل الفساد في الحياة الدينية حتى بلغ درجة مخزية في أوائل القرن الثامن الميلادى . ولكن الكارولنجيين أبدوا منذ اللحظة التي استحوذوا فيها على السلطة ميلا

لمساعدة الكنيسة في حل مشاكلها • فقدم بين هريستال وشارل مارتل وكارلومان Carloman ، وهو أخو بين القصير الذي شاركه في وظيفة رئيس السراى لفترة قصيرة — قدم هؤلاء جميعا تأييدهم الفعال للجهود التي كانت تبذلها الارساليات الدينية • كذلك قدم كل من شارل مارتل وكارلومان يد العون الى بونيفاس ، وهو من جماعة الرهبان البندكتان الانجليز ، في جهوده التبشيرية لتنظيم الأسقفيات ورسامة الكهنة وتأسيس الأديرة في البلاد التي دخلت في المسيحية مؤخرا ، والواقعة على طول الحدود الشرقية لمملكة الفرنجة • وتمسك بين بهذا التقليد ، فاتخذ الخطوات الأولى لبدء الاصلاح الدينى • وعمل بين بتوجيه من بونيفاس الذي كان ينفذ أوامر البابوية ، على تقوية التنظيم الكنسى ، والنهوض بمستوى الكهنة ، والقضاء على الطقوس الوثنية ، وتعميق التقوى المسيحية • ونتيجة لذلك بدأت البابوية تتمتع بدور أكبر في شئون مملكة الفرنجة • وبالرغم من أن مسألة اصلاح الكنيسة الفرنجية كانت عملا أكبر من أن يتم في بضعة عشرات من السنين ، إلا أن بين وأسرته بدؤا في الحال يكتسبون مكانة بوصفهم خداما للدين • وبذلك أضافوا شرفا جديدا له أهميته ، الى جانب الصيت الذائع الذى اشتهروا به من قبل كمقاتلين ورجال ادارة •

ولقد قطعت سياسة بين الدينية شوطا أبعد من تحمل مسؤولية اصلاح شأن الكنيسة الفرنجية • فقد حمل على عاتقه قبل نهاية حكمه عبء حماية البابوية ، وهى مسؤولية تحمل بين ثناياها حماية العالم المسيحى في كل أنحاء الغرب • وقام التحالف بين روما والفرنجة من واقع حاجتهما المتبادلة للمساعدة • وربما كانت حاجة البابوات أكثر إلحاحا • فقد كانت البابوية تتطلع منذ عصر جريجورى العظيم (٥٩٠ — ٦٠٤ م) الى درجة ، من الاستقلال الدنيوى في ايطاليا كسند وركيزة لزعامتها الروحية واعتمدت قوتها السياسية التي كان يوسعها حشدتها ، الى حد بعيد ، على ممتلكاتها في ايطاليا • ومع ذلك ، لم يبلغ البابوات درجة من القوة تسمح لهم بالاحتفاظ لأنفسهم بتلك الممتلكات •

فاضطروا الى الاعتماد على حماية قوة خارجية • وكان الأباطرة البيزنطيون يقومون بدور الحماة للبابوية لمدة قرن من الزمان بعد بابوية جريجورى • وسمحوا للبابوية بقدر كبير من الحرية فى التصرف فى شئونها فى روما والأقاليم المحيطة بها مباشرة • وفى نفس الوقت كبحوا جماح اللامبارديين المعتدين الذين كانوا يهددون بصفة مستمرة الأراضى الايطالية التى يملكها الأباطرة والبابوات • وسعى البابوات من وقت لآخر لتحسين مركزهم باثارة اللامبارديين ضد البيزنطيين • ومع ذلك ، فقد اعتمدوا بصفة عامة على القسطنطينية لحمايتهم • وفى أوائل القرن الثامن الميلادى بدأ هذا الوضع يتهاوى • فقد وجد الأباطرة البيزنطيون الذين كانوا يترنحون تحت ضربات المسلمين ، أنه من العسير عليهم أن يفوا بدورهم التقليدى فى ايطاليا • واضطروا الى التخلّى عن البابوية شيئاً فشيئاً ، تاركين اياها تحت رحمة اللامبارديين • وأخيراً ، عندما أدانت البابوية بعد عام ٧٢٦ م الحركة اللايقوتية التى أقرها الأباطرة البيزنطيون ، أصبح التعاون بين البابوية والأباطرة أمراً مستحيلاً • ولم يتباطىء اللامبارديون فى أنتهاز فرصة ضعف البيزنطيين ، والصراع الدينى الذى نشب بين روما والقسطنطينية ، للاستيلاء على ممتلكات البابوية فى ايطاليا •

وعندما واجه البابوات التهديد اللامباردى ، ووجدوا أنه من غير المستطاع الاعتماد على حمايتهم التقليديين ، تحولوا رغماً عنهم الى امراء السراى الكارولنجيين الذين كانوا قد أبدوا بالفعل ميلاً نحو البابوية فى ميدان التبشير والاصلاح • ولم يستجب شارل مارتل لاستغاثة البابا فى طلب المساعدة العسكرية لأول مرة • ولكن بين كان يختلف عنه فى الرأى • وربما وجد أنه من الصعب مقاومة البابوات الذين أعلنوا للعالم كله فى عام ٧٤٠ م أن بين هو الوحيد الذى يستطيع انقاذ استقلال كرسى القديس بطرس والأراضى التابعة له •

كذلك كانت لبين مشاكله الخاصة التى تتطلب معونة أسقف

روما • فقد كان لايزال أمير البلاط الوحيد ، وعليه خدمة ملوك لايفعلون شيئا ، بينما يقوم هو بالحروب ، ويحافظ على الأرض والسلام ، ويعمل على النهوض بالدين الحقيقي • وكان تغيير هذا الوضع الذى لا يقبله العقل يستلزم مجازفة خطيرة عند اعلان العصيان • فلقد اعتقد الفرنجة ، شأنهم شأن جميع العناصر الجرمانية ، أن الله قد أضفى قدسية خاصة على أولئك الذين يسرى الدم الملكى فى عروقهم ، وأن منح التاج لغير أعضاء الأسرة المالكة انما يعتبر انتهاكا لحقوقهم ، وتدنيسا للأمور المقدسة • ولم يكن الكارولنجيون من سلالة يجرى فيها الدم الملكى • ولذا لم يتصور أحد وفقا للتقاليد ومقتضيات الأمور خلع ملك ميروفنجى حتى ولو لم يكن يفعل شيئا ، واختيار شخص حديث النعمة مثل بين ليصبح ملكا • كما لم يكن استخدام العنف والقوة وسيلة كافية لتنفيذ هذا التغيير • ولذلك حاول بين البحث عن قوة تضى بموافقتها على عمله الصبغة الشرعية اللازمة ، وتلقى القبول والموافقة التامة • وبدا أن أسقف روما هو الشخص الوحيد الذى تتوفر فيه الشروط المطلوبة • لذلك أرسل بين فى عام ٧٤٩ م مندوبا عنه الى روما يطلب رأى البابوية فيما يتعلق بتغيير الأسرة الحاكمة • فأجاب البابا « انه من الأفضل أن يكون لقب الملك للرجل الذى يتمتع بالسلطة الحقيقية ، بدلا من الرجل الذى يحمل مجرد اللقب ولكنه لا يملك السلطة » • واعتمادا على هذه الموافقة اختار نبلاء الفرنجة بين ملكا عليهم عام ٧٥١ م • وقام بونيفاس رسول البابا بمسح الملك الجديد بالزيت المقدس • وربما كان هذا الاحتفال الذى لم يقم الفرنجة بشعائره من قبل مستمدا من الآيات الموجودة فى التوراة والتى تصف صموئيل وهو يمسح شاول بالزيت • وكان هذا معناه بالنسبة المعاصرين أن بين كان أكثر من ملك بالمعنى القبلى القديم • اذ كان ملكا بفضل الله • وهكذا ارتفعت هيبة الكارولنجيين الى مستويات عالية جديدة • فقد أصبحوا ملوك الفرنجة بدلا من كونهم أمراء البلاط ، وجاء تعيينهم من أكبر سلطة كهنوتية فى العالم المسيحى • وهكذا أصبحوا بضربة واحدة يتمتعون بمركز فريد بين حكام الغرب قاطبة •

وازداد التحالف بين البابوات والكارولينجيين توثقا خلال السنوات التي تلت مباشرة تقلد بين العرش • كما ازداد شدة الضغط للمباردي على الممتلكات البابوية • وأخيرا بلغ هذا الضغط مداه عام ٧٥١ م بالاستيلاء عنوة على ممتلكات الدولة البيزنطية في شمال ايطاليا ، والهجوم المباشر على روما • وفي حالة من اليأس قام البابا ستيفن الثاني (٧٥٢ — ٧٥٧ م) برحلة محفوفة بالمخاطر عبر جبال الألب في منتصف فصل الشتاء • وعندما وصل البابا الى غاله في اوائل عام ٧٥٤ م استقبله بين بكل اجلال و احترام • وبعد سلسلة من المباحثات أكد بين استداداه لمساعدة البابا • وفي حفل كنسي مريب كرس البابا ستيفن بنفسه الملك الفرنجي وزوجته الملكة وأولاده • وبدا واضحا انه حاول بذلك أن يزيد من هيبة العائلة المتوجة حديثا • وفي مقابل ذلك قطع بين على نفسه وعدا باستعادة أراض معينة في ايطاليا كانت البابوية تطالب باستيائها غيرها • ولكن هذه الأراضى ليست معروفة الآن بالضبط • ومن الواضح أن ستيفن قد واجه بين بالهبة الشهيرة المعروفة باسم هبة قسطنطين • وإن هذه الوثيقة التي يحتل زيفها حتى نالئم المناسبة ، قد جمعت من الأساطير المتداولة في القرن الثامن الميادى • ومضمونها أن (الامبراطور البيزنطى) قسطنطين (الكبير) أصدر مرسوما في الوقت الذى نقل فيه عاصمته الى القسطنطينية عام ٣٣٠ م ، جاء فيه أن الامبراطور قد خول البابا سلطة كاملة في حكم الغرب الى جانب ممتلكاته الخاصة في روما وايطاليا • ولما كان بين على ما يبدو قد وعد باستعادة هذه الأراضى بشكل ما ، فقد أكمل البابا الترتيب الجديد بمنحه لقب «حامى الرومان» • وكان هذا اللقب اللاتينى وهو «Patricius» يعنى فيما مضى الموظف البيزنطى الذى يملك سلطات معينة في روما وفي بعض مدن الامبراطورية الأخرى ، ولا يمنح هذا اللقب سوى الامبراطور • ولم تكن لدى سنيغن بالطبع أية فكرة تتعلق بجعل بين ممثلا لبيزنطة • ولكنه بالأخرى كان ينتحل لنفسه بوصفه بابا سلطة الامبراطور في منح الألقاب ، وفي الدلالة على أن بين قد أصبح الآن حاميا للبابوية والشعب الرومانى • وربما

كان المقصود من اللقب الدلالة ضمنا على أن الملك الفرنجى هو حامى كل أولئك الذين يؤمنون بالعقيدة الرومانية •

وقام بين فى الحال بالوفاء بما تعهد به من التزام نحو البابوية • وبالرغم من احجام بعض نبلائه وتبرمهم ، فقد قام بحملتين عسكريتين ضد اللباردين فى عامى ٧٥٥ ، ٧٥٦ م بهدف حماية الأراضى التى طالب بها البابا • وأهدى بين البابا ستيفن أثناء الحملة الأولى وثيقة عرفت باسم « هبة بين » ، التى طالبت اللباردين باعادة أراض معينة تقع على وجه التقريب بين رافنا وروما • وقد وضع هذا الاجراء ، فى نظر الغرب على الأقل ، أساسا شرعيا للدويلات البابوية ، مع أن معظم الأراضى التى تضمنتها كانت فى الواقع من أملاك الدولة البيزنطية • ومن الواضح أن كلا من بين وستيفن لم يهتم بحقوق الامبراطور ، ولو أن سفارة من القسطنطينية عارضت هذا الاجراء •

وقد أدت الأحداث التى وقعت فيما بين عامى ٧٥٤ ، ٧٥٦ م الى ازدياد روابط الصلة بين البابوية والبيت الكارولنجى • فالكارولنجيون يدينون بتاجهم الى مباركة البابا لهم • كذلك كانت الدويلات البابوية التى تعتبر فاتحة للاستقلال البابوى مدينة بوجودها الشرعى للملك الفرنجة • فقد استبدل البابوات حماتهم البيزنطيين بالحماة الفرنجة ، وكسبوا من وراء هذا التخيير المطالبة بالأراضى البيزنطية (فى ايطاليا) ووضع اليد عليها • وقد قدر لتحالف البابوية مع الفرنجة تحديد سياستها لفترة طويلة لاحقة •

وبعد عام ٧٥٦ م كانت سياسة بين فى ايطاليا أقل حسما وحيوية • وأخذ البابوات فى الفترة الباقية من حكمه يستعطفونه بدون انقطاع للتدخل بشكل أكثر حسما (لصالحهم) ، ولكن دون جدوى • وباخفاقه فى ابعاد اللباردين كعامل مؤثر فى الشؤون الايطالية ، ترك بين البابوات فى وضع غير مستقل • ويحتمل أنه كان فى نفس الوقت مشغولا للغاية

بمصير ايطاليا والبابوية أكثر مما حققه بالفعل • وكان ذلك بصفة خاصة بسبب تصرفاته العفوية فيما يتعلق بالألقاب والأراضي البيزنطية • وعلى أية حال ، ليس هناك من شك في أن أعماله قد غيرت بطريقة جذرية دور الكارولنجهين • وبإفادة بين من مباركة البابا التي ساعدته على تغيير وضعه من خادم للملك الى ملك ، انشغل هو وخلفاؤه في اصلاح حال الكنيسة الفرنجية لتكون على نسق الكنيسة الرومانية ، كما انشغلوا في حماية البابوية وأراضيها في ايطاليا • ولم تستطع أى أسرة حاكمة أخرى في غرب اوروبا أن تدعى القيام بمثل هذا الدور الشامخ المجيد •

شارلمان (٧٦٨ — ٨١٤ م)

لم يصل شارل العظيم ابن بين بالأسرة الكارولنجية الى أوج مجدها فحسب ، بل أعطاها أيضا اسمها • وقد حقق شارلمان نجاحا في كل المغامرات التي قام بها ، مقتفيا في ذلك السياسة التي وضعها من قبل كل من شارل مارتل وبين • فقد وهبه الله شخصية مليئة بالنشاط ومواهب هائلة ، وتأثر به جميع معاصريه الى حد بعيد • وكان لبننيانه القوى ، ونشاطه الذي لا حدود له ، وشجاعته الشخصية أثره في أن يصبح الزعيم الطبيعي للمحاربين الفرنجة الذين كانوا العمود الرئيسية التي يرتكز عليها ، وذلك بصرف النظر عن ولعه بالصيد وحبه لولائم البلاط • كما كانت تقواه الزائدة التي تكشف عنها مواظبته على حضور الخدمات الدينية ، واهتمامه الحقيقي برفعة الكنيسة ، سببا في جعله شخصا عزيزا لدى هيئة رجال الدين • وكان وفقا لمعايير عصره شخصا متعلما تعليما جيدا بالنسبة لرجل علمانى • فكان يجيد اللغة اللاتينية قراءة وكتابة ، الأمر الذي جعله يستمتع بصحبة العلماء الذين تجمعوا حوله في قصره الرئيسى بمدينة آخن •

لقد أكتسب شارل العظيم شهرته ومجده كفاتح في المقام الأول • ففي ربيع كل عام من سنى حكمه تقريبا كان شارل يستدعى كبار نبلائه

للاجتماع به في أحد مقار اقامته • وكانوا يحضرون وهم مسلحين مستعدين لخوض غمار حملة من حملاته • وبعد اشراك رجال الدين معه في الأمور السياسية التي يعرضها على بساط البحث ، يبدأ المحاربون حملة تستمر عادة حتى الصيف • وكانت تنضم الى النبلاء واتباعهم في بعض الأحيان فرق من المشاة الاحرار يقوم بحشدها رجال الملك • وغالبا ما كان شارل يقود هذه الحملات بنفسه • ولكنه في بعض الأحيان ، وبخاصة عندما يجد نفسه مضطرا الى ارسال أكثر من جيش الى الخارج ، كان ينيب عنه في العادة افضاله المخلصين • وكان من نتيجة النجاح الذي حققته هذه الحملات المتكررة أن اتسعت رقعة مملكة الفرنجة ، فأصبحت امبراطورية تضم أراض أكثر مما كان تحت امرة أي حاكم بمفرده في الغرب منذ سقوط روما (في أواخر القرن الخامس) •

وكانت أول مغامرة عسكرية حاسمة حققها شارل هي النهاية المظفرة للضراع الذي بدأه أبوه مع اللمبارديين • فبعد غزو ايطاليا في عام ٧٧٣ م ، استطاع شارلمان طرد الجيش المباردي الى ما وراء أسوار العاصمة الملكية في بافيا • واضطر هذا الجيش الى الاستسلام بعد حصار طويل • وكان النصر الذي أحرزه شارلمان ساحقا ، حتى لقد بلغ الأمر أنه أصبح بوسعه خلع الملك اللمباردي والاستيلاء على التاج لنفسه وضم جميع أراض اللمبارديين الى أملاكه • وبذلك أصبحت له السيطرة على ايطاليا كلها ، فيما عدا الأراضي البيزنطية في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة • ولكنه اعترف بسلطة البابا في الأراضي المخصصة له وفقا لما جاء في « هبة بين » وفي مقابل ذلك حصل شارلمان على لقب « حامى الرومان » •

١ وقبل أن يفرغ شارلمان من توطيد أقدامه في ايطاليا ، قام في عام ٧٧٢ م بجملته الأولى ضد السكسون • وقد أثبت هؤلاء البرابرة الجرمان أنهم أتسد أعدائه عنادا فترة تزيد عن الثلاثين عاما • وكان السكسون وقتذاك منقسمين الى ولايات قبلية صغيرة ، وبذلك لم يكونوا

أندادا لجيوش الفرنجة في أى معركة عامة اشترك فيها الجيشان • ومع ذلك ، وجد الفرنجة من الصعوبة بمكان تحويل انتصاراتهم العسكرية الى هيمنة فعالة • ونظرا لانه لم يكن يوجد حاكم سكسونى واحد يستطيع الفرنجة أن يصلوا معه الى تسوية وثيقة تربطه بهم ، فقد اضطروا الى ترك فرق صغيرة وراءهم بعد كل حملة لرعاية مصالحهم • ولكن الاهالى المتوحشين كانوا يثورون بشكل منتظم ضد هذا النوع من القيود ، ويقومون بذبح رجال هذه الحاميات الصغيرة • ولم يجد شارلمان بدا من استخدام أساليب القمع الوحشى • وفى احدى تلك الحملات أعمل شارلمان الذبح في ٤٥٠٠ أسير سكسونى انتقاما من خيانتهم من ناحية ، وحتى يثبت لهم عدم جدوى مقاومة الفرنجة من ناحية أخرى • كذلك أصر على دخول السكسون فى المسيحية رمزا لخضوعهم • وفى أكثر من مناسبة كان يجمعهم معا لتعبيدهم بالقوة • كذلك لجأ شارل الى سياسة اجبار عدد كبير من السكسون بالقوة على الاقامة فى مناطق مختلفة من مملكة الفرنجة • وعمل السكسون أثناء صراعهم مع الفرنجة على كسب تأييد الفريزيين لهم ، وهم شعب جرمانى آخر يعيش على ساحل بحر الشمال فيما بين نهري الراين وفيزر Weser ، مما ألجأ شارل الى غزو هذه البلاد أيضا للقضاء على السكسون قضاء مبرما ✍

وحاول شارل خلال فترات الراحة التى تخللت الحملات السكسونية توسيع رقعة حدود المملكة الفرنجية من ناحية الجنوب الشرقى والجنوب الغربى • وكان هدفه فى الجنوب الشرقى امبراطورية الآفار الواقعة على ضفاف نهر الدانوب • وكان هذا الشعب المقاتل ، الذى لم يكن يستقر به المقام فى مكان ما ، والذى هو من أصل آسيوى ، قد كون دولة كبرى خلال القرنين السابع والثامن للميلاد بعد هزيمة كثير من القبائل السلافية الضعيفة • وكانت غارات الآفار التى يشنونها فى سبيل الحصول على الغنائم والأسلاب ، مصدر تهديد مستمر لدولة الفرنجة ، الأمر الذى رفع شارلمان أخيرا الى القيام بهجوم مضاد •

ووجه حملة استطلاعية ضد الآفار في عام ٧٩١ م ، أتبعها بحملة أخرى كاملة العدة والعدد في عام ٧٩٦ م استولى فيها على معسكر الآفار الحصين بالقرب من مصب نهر ثيس . وتم له الاستيلاء على كميات هائلة من الغنائم . كذلك دمر شارلمان قوة الآفار العسكرية مما أتاح له أن يضيف الى مملكته أراض جديدة على طول نهو الدانوب .

وفي عام ٧٧٨ م قاد شارلمان جيشا عبر جبال البرانس ضد المناطق الاسلامية في اسبانيا . وانتهت حملته الأولى بسلسلة من الهزائم بلغت ذروتها بالقضاء على مؤخرة الجيش الفرنجى عند ممر رونسيفال في معركة خلدت ذكراها احدى الملاحم الفرنسية في العصور الوسطى ، وهى « انشودة رولان / » . ولكن شارل عاد الى سياسة الهجوم ، واستطاع قبل موته أن يمد نفوذ الفرنجة جنوبا حتى نهر ابرو . كذلك قام بغزو بريتانى وكانت تقطنها الشعوب الكلتية التى هربت من الجزر البريطانية أثناء غزوات الأنجلو سكسون فى القرن الخامس الميلادى ، وكانت تتمتع باستقلال ذاتى حتى ذلك الحين ، وقد قام بضمها الى مملكة الفرنجة .

وفي زحمة هذه الحملات العديدة ضد الأعداء الأجانب ، كان على تسارل أن يواجه حركات انفصالية خطيرة قامت بها عناصر غير فرنجية داخل مملكته . ففي اكويتانيا حيث كانت لا تزال توجد طبقة قوية من النبلاء الرومان الغاليين ، استخدم القوة فى قمع التمرد عام ٧٦٩ م . ولكن هذه الحالة الخطيرة من عدم الاستقرار استمرت حتى اضطر شارلمان أخيرا فى عام ٧٨١ م الى منح هذه المناطق حكما ذاتيا محدودا كممالك منفصلة تحت سيادة الفرنجة ، وأجلس ابنه لويس على العرش . كذلك اصطدم البافاريون بالفرنجة فى كثير من الأحيان ، ولكن شارلمان قضى على مقاومتهم بأحلال ممثلين عن الفرنجة محل الدوق الوطنى عام ٧٨٨ م .

ولم يكن هدف شارل من حملاته التى قام بها مجرد الاستيلاء على الأراضى فحسب . فقد حاول ، الى جانب ذلك ، ادخال نظم سياسية

قوية تجعل من الشعوب المغلوبة شعوبا تابعة بمعنى الكلمة • ومع أنه كان مسموحا لهم أن يعيشوا في ظل قوانينهم القديمة ، فقد كان يحكمهم عادة كونتات ودوقات من الفرنجة الموثوق بهم ، والذين لم يمارسوا سلطة الملك فحسب ، بل كانوا أيضا مسئولين عن حماية الحدود المعرضة للخطر • وأهم ما تضمنه برنامج شارل في ضم أراض جديدة (الى مملكته) هو اصراره على دخول الشعوب المهزومة في المسيحية (على المذهب الكاثوليكي) والتعجيل بتأسيس هيئة كنيسة • ونتيجة لهذه الجهود نجح شارل في اقناع معظم رعاياه بأنه أكثر من فاتح شره • وبدلا من ذلك ، اعتبر بمثابة البطل الذي يحمي رعاياه المسيحيين من خطر البرابرة والوثنيين ، والذي عمل على تمجيد اسم الرب • وقد خاطبه البابوات والشعراء والنبلاء بأنه « ذراع الله اليمنى القوية » •

وبينما كان شارل يبذل جهودا جبارة غير عادية كقائد لمغامرات عسكرية ناجحة ، سعى الى ادخال تحسينات في الحكومة التي يرأسها • ولكنه لم يحاول بموجه عام ، احداث أى تغييرات تورية • وعمل بما سنه من تشريعات راسخة واشراف دقيق ، على بث روح جديدة في ادارة المملكة التي اغتصبتها أسرته من الميروفنحيين • وكان جل اهتمامه ينحصر في تدعيم الأمن والسلام والعمل على حفظ النظام بين رعاياه • وكان قاسيا عنيفا في اخماد أى صراع داخلى ، سواء كان مصدره فرنجيا أو من العناصر المتبربرة • وكانت الحياة المنظمة تتطلب الحكم وفقا للقانون • وقد بذل شارل جهودا هائلة لاقامة العدالة كي يستظل جميع الأحرار بحمايتها في الحفاظ على حقوقهم المتوارثة • كما قام بتعين مجموعة من الموظفين المخلصين للملك تكون بمثابة حكومة تستطيع نشر لواء السلام وحفظ النظام في امبراطوريته المترامية الأطراف • ولم يكن بالأمر الهين ، أو اليسير اختيار الأكفاء من فئات النبلاء وكبار رجال الدين ، وبث روح الاحساس بالمسؤولية فيهم ، والهيمنة عليهم عندما يتقلدون مناصبهم • ومما زاد الطين بلة ، فوق ماتقدم ، انهيار الاقتصاد المالى في الدولة الكارولنجية ، وما ترتب على ذلك من انخفاض دخل الملك •

ونتيجة لزوال الموارد الملكية ، والفشل المتكرر في سبيل الاتصال بين مختلف أجزاء الامبراطورية ، أخذ النبلاء والدوقات الذين مثلوا الملك في المقاطعات المحلية ، رواقبتهم في شكل منح من الأراضي مع ما في ذلك من مخاطرة لا مفر منها ، وهي استخدام تلك الموارد كأساس للاستهانة بالملك نفسه . وحتى يتجنب شارل هذا الخطر ، حاول ربط موظفيه عن طريق أداء يمين التبعية والولاء له . كما عين لمراقبتهم مبعوثين ملكيين «missi» من البلاط الملكي كسفراء متجولين . كذلك أصدر سيلا من التعليمات التي أطلق عليها لفظ «قوانين» بهدف ارشاد جميع الموظفين وتوجيههم وتحديد مهامهم . وفي قبضة شارل القديرة القوية ، عمل هذا النظام المشوش بشكل يدعو الى الدهشة ، كما نجح في اعادة هبة الملكية حتى أصبحت نظاما متحضرا صالحا .

ولقد أدرك شارل بوضوح أن المسيحية هي أقوى رباط للوحدة في امبراطوريته المتشعبة . وقادة هذا الادراك الذي عززه تدينه الشخصي الزائد ، على وضع سياسة دينية قوية يعاونه في ذلك كبار القادة الدينيين في ذلك العصر ، وبخاصة البابوات . وقد بلغ من حماسة شارلمان لخلاص النفوس وزيادة عدد الداخلين في حظيرة المسيحية ، أنه لجأ أحيانا الى ما أسماه أحد المعاصرين «العماد بحد السيف» ، أي بالقوة . وبنفس الحماسة واصل شارلمان اصلاح الكنيسة ، وهو أمر كان أبوه قد بدأه من قبل . واستمرت طقوس الكنيسة الرومانية في الانتشار بتأييد من الملك . كما أخذ شارلمان على عاتقه في مناسبات قليلة تحديد الناحية اللاهوتية في العقيدة ، وبخاصة ما يتعلق بالصراع اللاأيقوني . كذلك عمل على تزويد رعيته بمعرفة أعمق بالعقيدة المسيحية . ولم يظهر بطل في أي مكان في العالم المسيحي أعظم منه في أمور العقيدة . وقد يتفق معظم الأوروبيين الغربيين مع ذلك الكاتب المعاصر له الذي قال : « سعيد الحظ هو ذلك الشعب الذي يرفع سيده من قدره ، ويسانده مبشر بالدين ، وتلوح يده اليمنى بالنصر ، وتطلق شفاته بوق الايمان

الحقيقي » • فليس من المستغرب ، اذن ، أن يهتف الشعب من أعماقه بأنه « أعظم ملك مسيحي » أو « قسطنطين الجديد » •

وفضلا عما تقدم ، فقد تميز شارل الذي لم يعرف الملل أو الكل طريقا الى نفسه ، بحماسة الملتبهة للنهوض بالحياة الثقافية في بلاطه ومملكته • ويقول كاتب سيرته اينهارد Einhard أنه « عمل بحماسة زائدة على النهوض بالفنون الحرة ، واحترام كل من قاموا بتدريسها احتراما فائقا ، كما أسبغ عليهم مظاهر الشرف والتكريم » • وكان الملك نفسه يجد متعة خاصة في القراءة • ومن الكتب المحبة الى نفسه كتاب « مدينة الله » للقديس أوجستين ، والانجيل ، وبعض مؤلفات اللاتين القدامى • ومن الواضح أنه كان مولعا بالقصص التي تروى أساطير البطولة للقبائل الجرمانية القديمة • ومن الثابت أنه أمر بضرورة تدوين جميع هذه الروايات الشفوية حتى يتمكن الاحتفاظ بها (خوفا عليها من الضياع) • وفوق هذا وذاك ، كان شارلمان يشعر بمتعة وهو في حضرة العلماء الذين اجتذبهم الى مدرسة القصر في (عاصمته) آخن • وكان على رأس هذه المجموعة التي جلبها شارل من كل أنحاء أوروبا الكوين العظيم Alcuin الذي ذاعت شهرته من قبل كمدرس وعالم في انجلترا قبل مجيئه الى آخن • ومن ايطاليا قدم المؤرخ اللمباردي « بولس الشماس » Paul the Deacon ، وعالم النحو والشاعر بطرس البيزوي Peter of Pisa • ويعتبر ثيودولف Theodolf ذلك القوطي الغربي الذي قدم من اسبانيا من أفضل رجال عصره في الدراسات الكلاسيكية القديمة • وانضم الى هذه الحلقة من العلماء عدد من الفرنجة أبرزهم انجيلبرت Angibert واينهارد الذي يعتبر مؤلفه عن حياة شارلمان أصدق صورة معروفة عن بلاطه • وكان الغرض الأساسي لمدرسة البلاط هو تعليم الطلاب من أبناء نبلاء الفرنجة الذين أعدوا لخدمة البلاط الملكي أو لشغل الوظائف العليا في الكنيسة • ووجد الطلاب المجتمعون (لتلقى العلم) الوقت لقراءة مؤلفات الكتاب اللاتين القدامى ، والانجيل وعلم اللاهوت ، فضلا عن

جمع الكتب وقرض الشعر وكتابة التاريخ وتعليم النحو وأجرومية اللغة والشروح والتفسيرات الدينية • وزيادة على ذلك ، كانوا كثيرا ما ينضمون الى الملك وأصدقائه المقربين اليه للنقاش في التاريخ والعقيدة المسيحية والشعر وعلم الفلك والخطابة • وكان هذا النوع من الحديث ، على أية حال ، حديثا عظيما عميقا معبرا عن الاحساس الوجداني ، حتى أن كل من اشترك فيه أطلق عليه اسم مستمد من الأدب القديم • فقد عرف شارل باسم « داود » ، والكوين باسم « هوراس » ، وانجيلبرت باسم « هوميروس » • واحيا العلماء في مدرسة البلاط نهضة كبيرة بتوجيه الاهتمام الى اللغة اللاتينية ومعرفتها ، وكذلك الاهتمام بالثقافة المتعلقة بآباء الكنيسة • وانتشرت روحهم هذه في طول المملكة وعرضها ، ووجدت أرضا خصبة في الأديرة البندكتية • وهكذا ارتفع شأن الموضوعات الثقافية قبل موت شارلمان ، وألهمت الحمية والحماسة في مملكته ، مما شجع المعاصرين بعد ذلك على الاعتقاد بأن جميع الجوانب الايجابية والمنجزات الحسنة قد انبثقت من الأسرة الكارولنجية •

وان النجاح الهائل الذي أحرزه شارل جعل خطوته التالية تبدو منطقية بل ولازمة للرفع من شأن الكارولنجهين والسمو بمكانتهم • ففي يوم عيد الميلاد من عام ٨٠٠ م كان شارل في روما يمارس سلطته بصفته « حامى الرومان » • وبينما كان الملك مشغولا في حملة ضد السكسون عام ٧٩٩ م ، توجه البابا ليو الثالث اليه شاكيا أعداءه الذين كانوا قد انقضوا عليه أثناء احتفال دينى عام يسير في شوارع روما ، وحاولوا قلع عينيه وقطع لسانه • وطلب ليو من شارل أن يحسم المشكلة • فما كان من شارل الا أن سافر الى روما ، وبعد مداولات مع مستشاريه ومع ليو ، برأ البابا من أى لوم في هذا الشأن وأعاده الى السلطة • تم بقى الملك (في روما) لحين الاحتفال بعيد الميلاد لحضور الخدمات الدينية في أشهر كنيسة في العالم المسيحى ، ألا وهى كنيسة القديس بطرس • وبينما كان الملك ساجدا يصلى قبل الاحتفال بقداس

عيد الميلاد ، وضع ليو الثالث التاج على رأسه ، وصاحت الجموع المحتشدة ثلاث مرات « الحياة والنصر لشارل العظيم المتوج من الله ، الامبراطور الرومانى العظيم المسالم » • وألقى البابا بعد ذلك بنفسه على الأرض أمام شارل احتراما له وتقديرا •

وان فحوى حادث عام ٨٠٠ م ومغزاه لايزال أمرا محيرا فى نظر المؤرخين • ولكن لاشك أن التتويج كان بشكل ما الخطوة الختامية لجهود البابوات فى سبيل ربط أنفسهم بالكارولنجهين • كما يبدو أنه عمل من الأعمال الرمزية التى تعبر عن الزهو بالنصر ، مع امتداح حكمة البابا فى اختيار حماة أقوياء للحضارة والدين القويم • وبعد أن قضى شارلمان على قوة اللمباردين ، نصب نفسه سيذا على جزء كبير من ايطاليا ، ووجد أن لقب « حامى الرومان » الذى منحه البابوية لبين ثم انتقل الى شارلمان ليس كافيا فهو لم يعط للحاكم الفرنجى أساسا شرعيا واضحا لحماية البابوية فى روما ، كما لم يحدد التزامات الملك الفرنجى نحو البابوات • وكان البابوات قد اعتادوا منذ زمن بعيد وضع أنفسهم داخل اطار سياسى يتولاه امبراطور له سلطات محددة تحديدا واضحا • ويتقلص النفوذ البيزنطى من معظم أنحاء ايطاليا فى القرن الثامن الميلادى ، تركت البابوية دون نظام وظيفى شرعى تعمل فى نطاقه • ولم يحتل « الحامى » الفرنجى فعلا المكان الشرعى الذى يتمتع به « الامبراطور » البيزنطى • ويبدو أن ليو الثالث بعد أن هاجمه غوغاء روما ، فكر فى أن يجعل شارل امبراطورا باعتبار أن هذا الاجراء هو الوسيلة الوحيدة لايجاد سلطة رسمية بوسعها حفظ الامن والسلام فى مدينة روما • وكان الكارولنجهيون ، وبصفة خاصة شارلمان ، قد قاموا بمناصرة البابوية والدفاع عنها مدة كافية تسمح بالقيام بمثل هذا الدور •

وحاول بعض معاصرى شارلمان ، وربما شارلمان نفسه ، اعتبار أن مسئولية واقعة التتويج الذى حدث فى عام ٨٠٠ م ، تقع على عاتق البابوية وحدها • ويقول اينهارد كاتب سيرة شارلمان ، ان الملك لم يكن

راغبا في عملية التتويج لدرجة أنه لو كان قد علم بنية البابا ما كان قد ذهب الى الكنيسة التي تم تتويجه فيها ، على الرغم من أن هذا اليوم كان عيدا كبيرا . ومن الصعوبة بمكان تقبل هذه العبارة بحرفيتها وعلى علاقتها ، ذلك لأن التتويج ماكان ليتم لو لم يكن شارلمان راغبا فيه . هذا عن السبب الأول ، أما الثاني فهو أن هذا التتويج يعتبر الحل المنطقي الوحيد لكثير من المشكلات التي واجهته . فان حملاته الناجحة جعلت لقب « حامى الرومان » الذي كان يحمله حتى ذلك الوقت ، غير كاف بالنسبة لوضعه الحقيقي . وكان دوره في ايطاليا ، حيث أخذ على عاتقه مسئوليات الامبراطور دون أن يحمل اللقب ، أمر شاقا عسيرا . وقد أمر كثير من أخلص مستشارى شارلمان ، وبصفة خاصة العالم الأنجلو سكسونى العظيم الكوين ، على أن سيدهم يستحق التمجيد للدور الذى قام به كمحارب وزعيم دينى ومناصر للثقافة ومشرع . ولما كان معظم أولئك الرجال من العلماء ولهم دراية بالتقليد الرومانى ، فقد بدا أن أنسب شئ هو أن يستمتع بظلمهم بلقب يجعله على قدم المساواة مع حكام روما (القدامى) العظام .

وان الأعمال التى أداها شارلمان في خدمة الدين أقنعت أتباعه على وجه الخصوص بأنه الوريث الشرعى للأباطرة المسيحيين العظام من أمثال قسطنطين . وأصبح شارل نفسه على وعى متزايد بوضع دولته كقوة عالمية . وأبى أن يكون في مرتبة أدنى من تلك التى يتمتع بها الأباطرة البيزنطيون الذين تنازلوا بمخاطبته في المراسلات الدبلوماسية المتبادلة بينهم وبينه بكلمة « ابن » . ولكنهم ، مع ذلك ، فشلوا في حماية انبأوية ، وأبدوا ما اعتبره الأوروبيون الغربيون عقائد باطلة . ونادرا ما أحرزوا انتصارات عسكرية ، وأثبتوا بالدليل القاطع ميلهم الى سياسة التآمر ، وهو أمر لا يليق بالحكام المسيحيين . وزاد هذا الشعور زيادة كبيرة بعد عام ٧٩٧ م عندما خلعت سيدة تدعى ايرين ابنها عن العرش وسلمت عينيه ، ولبست التاج الامبراطورى في القسطنطينية . وربما بدا لشارلمان أنه من اللازم انقاذ التاج من قبضة

ايرين التى اعتبرها الكثيرون فى الغرب غير جديرة به ، وذلك بنفس الأسلوب الذى أنقذ به بين قبل ذلك التاريخ بعده سنوات ، التاج الملكى من الميروفنجيين الذين كانوا غير جديرين به .

لكل ما تقدم ، ليس من السهل البت ان كان شارلمان غير راغب فى التاج الامبراطورى ، ولو أنه من المحتمل تماما أنه لم يكن يريد في ذلك الوقت بالذات وتحت ظل الظروف التى تقبله فيها فعلا . وربما يكون قد خشى أن يعنى تتويج البابا له خضوع الوظيفة الامبراطورية للرئيس الدينى الأعلى الذى اعتبر شارلمان أن مركزه لايسمو بالمرّة على مركزه هو ، وأنه دونه فى المرتبة والمكانة . ويرى شارل أنه أقوى خدام الرب ، وأنه موكل اليه الاشراف على تصرفات البابوية بنفس الكيفية التى ينظم بها المظاهر الأخرى للحياة الدينية . وربما أحس شارل ، أيضا ، بالقلق والانزعاج لقبول التاج فى روما بعيدا عن قصره المفضل فى آخن ، وعن مستشاريه الذين أولاهم ثقته ، وعن أتباعه الجرمان . وكان شارلمان مهتما قبل كل شئ ببرد الفعل البيزنطى لتتويجه . ولكنه يكون قد أخطأ خطأ ذريعا اذا كان هدفه بالقاء المسئولية على البابا ، التخفيف من شكوك بيزنطة (حياه) . اذ قبول تتويجه فى القسطنطينية بالاستياء الشديد . ولم يعترف الأباطرة البيزنطيون بلقبه الامبراطورى الا أخيرا فى عام ٨١٨ م . وحتى هذا الاعتراف لم يدم طويلا لان البيزنطيين رفضوا أن يقبلوا خلفاء شارلمان من الفرنجة كأباطرة .

لويس التقى (٨١٤ - ٨٤٠)

لا يستوى لويس التقى الذى خلف شارلمان مع أسلافه الذين سبقوه مباشرة . فمن الانصاف أمام الصعاب التى ابتليت بها الامبراطورية أثناء حكمه ، أن نفرق بينه وبين الكارولنجيين البارزين ، أو أن نعتبره دونهم مكانة . ومع ذلك ، ففى مجال البحث فى المكانة المتزايدة التى كان الكارولنجيون يتمتعون بها ، نستطيع القول ان حكمه

كان ذا أهمية بالغة في تحديد طبيعة الوظيفة الامبراطورية والدور الذي يقوم به الامبراطور •

ففى عهد شارلمان كان المعنى المستفاد من اللقب الامبراطورى تغلفه الريبة والشك ويحوطه الخلط والابهام بشكل واضح • فهل كان شارل هو الامبراطور الحقيقى الوحيد ؟ أم كان يجب عليه أن يتقاسم اللقب مع الحاكم فى القسطنطينية ؟ وهل قدر للامبراطورية الجديدة أن تظل موحدة ، أم قدر لها أن يقسما شارل وفقا لعادة الفرنجة ؟ وهل جلبت الوظيفة الجديدة لحاملها سلطات جديدة ، أم كان الأمر مجرد لقب شرف للتكريم ، ولا يعنى أكثر من ذلك ؟ وهل كان الامبراطور مدينا بوظيفته للبابوية ، أم كان باستطاعته الحصول عليها بوسائل أخرى ؟ ويبدو أن شارل فى السنوات الأخيرة من حكمه لم يكن لديه رأى ثابت وواضح عن طبيعة الوظيفة الامبراطورية وماهيتها •

رعى أية حال ، فقد حاول لويسر التقى ابن شارل وخليفته الاجابة عن هذه المشكلات • فقد كان يعتقد اعتقادا جازما بأن على حامل اللقب الامبراطورى مسئولية كبيرة للعمل من أجل خلق مجتمع أشد ايمانا بالمسيحية • ولما كانت الامبراطورية حديثة العهد ، فمن الواجب أن تكون « امبراطورية مسيحية imperium Christianum » ، قبل أن تكون أى شىء آخر • وحاول لويسر أن يحسم هذا المثل الأعلى فى برنامج صارم للإصلاح الدينى استنفذ معظم طاقاته خلال الفترة المبكرة من حكمه • فقد بدأ اصلاحاته بشكل تمثيلى بعد موت أبيه مباشرة ، وذلك بتطهير البلاط فى آخن (من عناصر الفساد) • وأجبر عددا كبيرا من الأعيان على اللجوء الى الأديرة عقابا لهم على أخلاقهم الشائنة • وكانت احدى أخوات لويسر التقى قد وضعت أطفالا غير شرعيين ، وتبناهم انجلبرت Angilbert الذى كان يطلق عليه اسم هومير Homer فى محيط البلاط ، وأجبر لويسر شقيقاته على التحجب •

وأحضر لويسر أحد الاخوان البندكتان يتميز بالعفة والنقاوة

يدعى برنارد أوف انيان Bernard of Aniano من مقاطعة
أقطانيا ، وأقامه في دير قريب من مدينة آخن ليكون بمثابة مستشار له،
وليحل محل رجال الكنيسة والنبلاء العلمانيين الذين أحاطوا بشارلمان.
وبإيحاء من برنارد أعلنت مجموعة من القوانين التي تمس كل ناحية
من نواحي الحياة الدينية . وكانت أعمال الشعراء والفنانين زاخرة
بمناقشات وأفكار لمباحث ومواضيع تؤكد أهمية المسئوليات الدينية .
وكانت الحصيلة الأخيرة هي أن الامبراطورية أصبحت « مقدسة » تسمو
فوق كل شيء ، وأن التقوى هي الصفة المطلوب توافرها في الامبراطور
أكثر من أي شيء آخر . وكانت مشاعر وأحاسيس لويس الدينية تنويع
جدا ، حتى أنه سمح للبابوية أن تقوم بدور الواهب للوظيفة
الامبراطورية . وكان لويس قد توج امبراطورا من قبل في عام ٨١٣ ،
عندما رعا أبوه مجلسا من كبار القوم للاجتماع في آخن . وفي حضرتهم
وضع بكلتي يديه التاج الامبراطوري على رأس ابنه بدون مساعدة
هيئة رجال الدين . ولكن البابا قدم في عام ٨١٦ م الى بلاط لويس
ومسحه بالزيت المقدس في احتفال ديني ، الأمر الذي يدل على أن
التكريس البابوي هو وحده الذي يعطى للتاج الامبراطوري مضمونه
وفحواه ، وعلى أن الامبراطورية رومانية في أصلها . وقد جاء أهم
عمل أقدم عليه لويس فيما يتعلق بتحديد طبيعة الامبراطورية وكنهها
بعد ذلك بعام ، عندما أصدر وثيقة تنظيم عملية حكم امبراطورية
وادارتها . وقد اشترط مرسومه على أن يطلق على أحد أبنائه الثلاثة
اسم « امبراطور » ، وأن يكون من نصيبه الجزء الأكبر من الأراضي ،
بينما يحمل كل من الابنين الآخرين لقب « ملك » وأجزاء أصغر من
الأرض . ولتأكيد وحدة الامبراطورية ، فقد تمتع حامل اللقب
الامبراطوري بالسيادة على الملكين الآخرين اللذين كان عليهما حكم
الأقاليم المخصصة لهما تحت إشرافه بوجه عام .

وان محاولة تحديد طبيعة الوظيفة الامبراطورية بشكل أكثر
وضوحا قد رفعت بجلاء من قدر الحاكم الفرنجي في أعين أولئك الذين

تشاركوه متساعره • فقد كان مفهوم لويس عن الامبراطورية ، كما سيتضح فيما بعد ، أنها وظيفة رفيعة للغاية بسبب الموارد التي يتحكم فيها ، الى جانب أحاسيس ومشاعر المجتمع الذي يسوسه • ولذلك ، كانت الامبراطورية الكارولنجية خلال حكمه مهددة دائماً بكارثة • ورغمما عن ذلك ، كان لويس يمثل الأسرة الكارولنجية الحاكمة وهي في أوج قوتها وهيبتها • فقد كان لقبه « الامبراطور العظيم بفضل العناية الالهية » ، وهو يرمز الى درجة من القوة أعظم بكثير من تلك التي تمتعت بها عائلته في القرن السابع ، عندما كان الكارولنجيون مجرد نبلاء أثرياء في مملكة أوسترازيا • لقد أخرجت أوروبا الغربية في النهاية أسرة طبقت شهرتها الآفاق • وفي هذا الوقت كان الغرب قد آفاق من ظلماته •

طبيعة المجتمع الكارولنجي

ليس من العدالة في شيء بالنسبة للدور الذي قامت به الأسرة الكارولنجية في سير مجرى التاريخ ، أن ينصب اهتمامنا على مجرد سرد جوانب النجاح التي حققتها • ذلك أن الأسرة الكارولنجية كانت تمثل العصر الذي عاشت فيه ، عندما أدركت العناصر الحاكمة تماماً حقيقة أنها دخلت مرحلة جديدة مغايرة • وعلى هذا فان التاريخ الكارولنجي لهو أكثر من سجل للأحداث التي وقعت بين زمني • أنه قصة ظهور العقلية الواعية المتميزة في الغرب • ومع ذلك ، فان استمرار بقاء الأنظمة والمؤثرات الجرمانية كان بادياً للعيان لدرجة تثير الشكوك في حقيقة وجود مجتمع كارولنجي مستقل يتميز عن الشعوب الجرمانية المبكرة في الغرب • وعلى سبيل المثال ، نجد أن القانون الجرمانى ظل نافذ المفعول رغم ماسنه الملوك الكارولنجيون من تشريعات وقوانين عديدة • ولم تطرأ تقريبا ، أى تغييرات على شكل الحكومة الجرمانية التي ورثوها عن الميروفنجيين • وكان كل الأمراء الكارولنجيين رجال حرب وقتال على شاكلة رؤساء القبائل القدامى • وحتى شارلمان نفسه

قسم امبراطوريه في عام ٨٠٦ م بين أبنائه الثلاثة الذين كانوا على قيد الحياة في ذلك الوقت بنفس الطريقة المتبعة في تقسيم الممتلكات العائلية. وبذلك ألقى ظللا من الشك على الجدية التي تقبل بها دلالات اللقب الامبراطوري في عام ٨٠٠ م. وقد اعتمد الكارولنجيون ، أساسا ، على تأييد الأسر الشريفة في اوسترازا ، مؤكدين بذلك سيادة طبقة أرستقراطية جرمانية في المجتمع الكارولنجي . واذا أمعنا النظر قليلا في الخصائص المميزة للحياة في العصر الكارولنجي ، لوجدنا استمرار بقاء النظام المتبربر الى جانب العنف والجهل والخرافات . وعلى الرغم من احياء تعلم اللغة اللاتينية ، فمن الواضح أن اللغة الجرمانية كانت هي اللغة السائدة في أنحاء كثيرة من الامبراطورية . كما بدأ تطور اللغة اللاتينية التي اختلطت باللهجات الجرمانية المتبربرة — وهي لغة القصص — في الأزمنة السابقة للعصر الكارولنجي . وكان الناس يستخدمون هذه اللغة في حياتهم اليومية كما هي دون صعوبة في باقى أجزاء الامبراطورية .

وتوحى هذه الدلائل والاتسارات بأن الحقبة الكارولنجية كانت مجرد امتداد لعملية صبغ الغرب بصبغة جرمانية . الا أن بقاء وتطور الخصائص الجرمانية التي سبق التحدث عنها ، قد زودا الغرب الأوروبي بعنصر فريد للسير نحو خلق حضارة مستقلة . ولكن مجرد استمرار وجود المميزات الجرمانية لا يكفي لتوضيح كل المظاهر الجديدة التي برزت (على مسرح الأحداث) لتفصل الغرب بشكل واضح عن بقية العالم .

ويتضح ذلك جليا في مجال التطور السياسى أكثر من أى مجال آخر ومع أن الحكومة الكارولنجية قد اختلفت قليلا في مظهرها عن الأنظمة الجرمانية المبكرة ، وبصفة خاصة الأنظمة الميروفنجية ، الا أنها كانت لها فعلا سماتها المميزة الخاصة بها . وربما كان أهمها هو القاء الضوء على التحالف السياسى من الملوك والنبلاء من ملاك الأرض الذى

انبثق عن النظم الاقطاعى الذى لم يكن قد اكتمل نموه بعد فى العصر الميروفنجى • أما فى عهد الأمراء الكارولنجيين ، فقد اعتمدت الحكومة — الى حد بعيد — على خدمات رجال ارتبطوا بالملك عن طريق أداء يمين الولاء والطاعة ، وكذلك عن طريق هبات من الأرض • وبموجب هذا النظام القائم على الخدمات المتبادلة ، مكنت الأرض ممتلكها من أداء الخدمات التى ألزم بها بعد القسم الذى كان يؤديه • ولقد تحددت تحديدا قانونيا واضحا تلك الوسائل والأساليب المختلفة التى نظمت وحدت العلاقة بين الملك والسيد الفصل خلال العصر الكارولنجى • ولم يكرس سارلمان نفسه جانبا كبيرا من جهوده السياسية لمطالبة نبلائه الأفصال بأداء الخدمات التى تعهدوا بأدائها له بصورة منتظمة • بل ان جميع الكارولنجيين نجحوا ، بوجه عام ، حتى عام ٨٤٠ م على أقل تقدير فى اقناع افسالهم بأن الخير لكل فرد يكمن فى الخدمات المتبادلة • وابتاع هذه السياسة أصروا على أن يكون يمين الولاء والاخلاص مصحوبا بتكريس دينى • وقد منحوا هبات سخية من الأرض ، وقاموا بقيادة الجيوش أثناء الحروب بفعالية كبيرة ، وأنزلوا العقاب الصارم بالخونة والمتمردين ، وتشاوروا مع عليّة القوم فى المملكة بصفة دائمة ، وطبقوا العدالة السريعة على المذنبين • ولم يحل الاستخدام الناجح لهذه السياسة بالمرّة دون زسوخ النظام الاقطاعى كنظام سياسى خاص بغرب اوروبا • بل كان هذا النظام الحكومى يتعارض تماما مع الحكومات البيروقراطية المركزية فى كل من بيزنطة والدولة الاسلامية •

وربما كانت مقدرة الحكام الكارولنجيين فى الافادة من هذه الروابط الاقطاعية الاساسية لمنفعتهم الشخصية واقناع النبلاء الأقوياء من ملاك الأرض لمساندتهم ، قد اعتمدت على فهم متجدد المعنى ومضمون الدولة والحاكم الذى تجلّى فى هذه الفترة • ذلك أن الممالك الجرمانية المبكرة ، بما فيها دولة الفرنجة الميروفنجية ، كانت قد قاست كثيرا من وجهة النظر القائلة بأن الحكومة ما هى الا وسيلة للكسب والاثراء الشخصى • وقد رأى الحكام والمحكومون نفس هذا الرأى • واستمد

الكارولنجيون عظمتهم الحقيقة — الى حد كبير — من قدرتهم على التغلب على هذا المفهوم الذى يضعف من سلطة الدولة •

وبدأ الكارولنجيون يجدون أيضا فى الدين المسيحى معنى ومضمونا جديدا مناسبا لتوجيه جهودهم كحكام • ويمكن التعبير عن ذلك ، ببساطة ، بأنهم أدركوا أنهم مجبرون على ارشاد رعيتهم الى طريق الخلاص الأبدى ، وتنظيم مجتمع للمؤمنين هنا على الأرض يعمه الخير، وخلق بيت الله على الأرض • ويبدو أن شارلمان اعتبر نفسه فى بعض الأحيان الكاهن الأعظم الذى اختاره الله لرعاية كافة مظاهر الحياة والعمل على « تقويمها » بما يتفق وفهمه للمسيحية • وقد دفعه هذا الوازع الدينى بأن يطالب البابواب والأساقفة ورؤساء الأديرة باصلاح حياتهم وعلاج المساوىء والعيوب التى تفتشت فى السلك الكنسى ، ودراسة اللاهوت ، وحسن استخدام ثروات الكنيسة وازدانة أرصدها ومواردها الى الهبات التى ترد من الخزائن الملكية • وعلاوة على ذلك ، فان الكثير من أعماله السياسية ذات الطابع العلمانى — كالحرب وقمع التمرد واقامة العدالة وحماية العلم — قد وجه لتحقيق غايات دينية • وعلى ذلك فقدبرز وتطور مفهوم جديد عن الأمير الصالح فى الغرب الأوروبى خلال فترة قصيرة من الزمن • وهو مفهوم أكثر صقلا وسموا من المفاهيم الجرمانية المبكرة ، كما أنه يختلف كثيرا عن الفكرة الرومانية عن الحاكم المثالى الذى لا عيب فيه • وبذا ترك هذا المثل الأعلى الكارولنجى للأمير المسيحى أثره على الحياة السياسية فى غرب أوروبا لفترة طويلة • وعلى هذا ، ليس من المستغرب أن يكون شارلمان موضع التمجيد فى الأساطير طوال العصر الوسيط • فان عمله المتسم بالحماسة والنشاط فى سبيل تحقيق المثل الأعلى للأمير المسيحى قد ترك أثره البالغ على عهده ، حتى أنه أصبح مثالا وانموذجا للحاكم الفاضل •

وكان ارتقاء شارلمان الى مرتبة امبراطور عام ٨٠٠ م تعبيرا قويا للاستقلال السياسى الجديد للغرب ، وكان كثير من المسيحيين الغربيين

على وعى بسمو وتميز أميرهم المسيحى • واذ اعتقد كثير من مستشارى شارل أنه جدير حقا بلقبه الجديد ، فقد توقعوا أن تكون زعامته للمسيحية أوسع نطاقا وأكثر فعالية وتأثيرا بعد أن أصبح امبراطورا • ومع أنهم كانوا يدركون تماما بأن اتساع دولته وطابع حكمه لا يمكن مقارنتهما بحكم الأباطرة الرومان القدامى ، الا أنهم ظلوا يعتقدون أنه جدير بالمنصب الامبراطورى بسبب الخدمات الهائلة التى قام بها فى سبيل الرب • وقد عبر الكوين ، وهو أشد العلماء تأثيرا فى عهد شارلمان ، عن مشاعرو أحاسيس كثير من الأتقياء عندما كتب خطابا الى شارلمان عام ٧٩٩ م يلخص فيه حالة العالم وقتها • فذكر أنه حتى تلك اللحظة قد تربع ثلاثة من ذوى المقام الرفيع على عرش العالم هم : البابا والامبراطور البيزنطى والملك الفرنجى • وقد مر اثنان منهم بأيام عصيبة • اذ هاجم الخوغاء البابا فى شوارع روما ، كما اغتصبت امرأة التاج الامبراطورى • واستطرد الكوين قائلا : « والآن يشغل المنصب الرفيع المكان الثالث الذى ادخره لك الرب يسوع المسيح لكى تسوس الشعب المسيحى • وقد سما هذا المنصب على الاثنى الآخرين قوة ورفعة ، كما تفوق عليهما فى الحكمة ، وبزهما فى هبة الحكم • وعليك وحدك الآن تعتمد الكنائس المسيحية ، ومنك وحدك تستمد أمنها وسلامتها • فعليك يعتمد الجميع أيها المنتقم للجرائم ، ويا مرشد الخطاه ، ومواسى الحزانى والمنكوبين ومكافىء الأخيار » (١) •

وما أن حصل شارلمان وابنه لويس على وجه الخصوص على اللقب الامبراطورى ، حتى بذلا قصارى جهدهما ليطبعا بطابعه الفرنجى الغربى • فلم يحاول كلاهما أبدا تحقيق سلطة عالمية على كل العالم المتحضر ، وهو مفهوم لقبهم الجديد للامبراطور الرومانى • ولم يطالبا بأكثر من مساواتهما بامبراطور القسطنطينية ، وحقهما فى حكم اقطاعاتهم

(١) انظر: Alcuin, Epist., 174, ed. E. Dümmler, in Monumenta Germaniae Historica, Epistolae, IV (Berlin, 1895), 288.

الغربية طبقا لمتطلباتهم ووجهات نظرهم الخاصة المتميزة • ولقد حاول
الحاكمان اصفاء معنى ومضمون لحقائق العصر السياسية ، وأن يسلموا
بالحقيقة التالية وهى ان قيما ومثلا وأنظمة سياسية جديدة وفريدة قد
برزت الى الوجود فى الغرب الأوروبى •

ويلاحظ أن التطور الدينى أمد التحول السياسى بقوة دافعة فى
هذه الفترة الكارولنجية المبكرة ، عندما عمل على اتساع هوة الخلاف
التي تفصل الغرب عن بقية العالم المسيحى • وكان تضامن المسيحية
الرومانية السريع هو أهم ما نتج عن اعتماد الكارولنجيين على أسقف
روما وتأيينه لهم • وكانت هذه الرابطة الوثيقة التي جمعت بين البابوية
والكارولنجيين سببا فى تحقيق حلم جريجورى العظيم فى اقامة مجتمع
مسيحى توجهه روما • فقد امتلك البابوات دولة بابوية صخمة فى
ايطاليا ، فضلا عن حماية أقوى أمراء الغرب لهم ، وبذا وضعوا
الأساس الحقيقى لاستقلالهم • وعمل الحكام الكارولنجيون ، أثناء
قيامهم بدورهم كمصلحين دينيين ، على ادخال الشعائر والطقوس
الرومانية فى خدمة القداس الالهى ، مع اقرار النظام فى جميع أنحاء
مملكتهم الشاسعة • وكانت النتيجة أنه أمكن تحقيق درجة ملحوظة من
الوحدة الدينية مع بداية القرن التاسع الميلادى • كما أدى تطبيق
النظام البندكتى على نطاق واسع كهدى للحياة الديرية فى الامبراطورية
الكارولنجية ، الى زيادة أعداد « جند المسيح » الذين يعملون على نشر
الشعائر والأفكار الرومانية • ونتج عن التعاون الوثيق بين الكارولنجيين
والبابوات فى ميدان التبشير الى تقبل توجيه روما الذى ذاع وانتشر
فى أمور العقائد والتنظيم الكهنوتى والنظام العام ، وكذلك ما يتعلق
بسيادة الكارولنجيين • ولم تقم البابوية بدور جديد فقط عندما قدمت
الى الكارولنجيين اللقب الملكى فى أول الأمر ثم التاج الامبراطورى بعد
ذلك ، بل حققت أيضا مركزا ممتازا لنفسها ولبن هم تحت رعايتها •
وكانت كل هذه التطورات تعنى أن المسيحية الرومانية أصبحت أثناء
الفترة الكارولنجية المبكرة قوة فعالة مؤثرة فى معظم أنحاء أوروبا

الغربية ، بدلا من انحصارها فقط في أجزاء من ايطاليا والمناطق القليلة التي أرسل اليها المبشرون والواقعة على أطراف العالم المسيحى ، مثلما كان الحال من قبل •

وكذلك ساعدت حركة احياء الثقافة التي حباها شارلمان برعايته ، والتي عرفت باسم النهضة الكارولنجية ، على تنوير أذهان الأوروبيين الغربيين بمفهوم الغرب المسيحى المستقل • ولما كان الاعتقاد السائد هو أن الادارة السياسية السليمة ، والاصلاح الأخلاقى الفعال ، وتطهر الخدمات الدينية من الفساد ، يعتمد على وجود طبقة متعلمة — فقد قام الملك بدفع عجلة الاحياء الثقافى لخدمة غايات وأغراض عملية • ولتحقيق هذه الأهداف عنى العلم الجديد بأنماط ونماذج مميزة تناسب احتياجات الغرب ومطالبه • مثال ذلك العمل على إتقان اللغة اللاتينية ، وإنتاج عدد متزايد من الكتب ، وتطوير أسلوب الكتابة وتحسينه ، ودراسة الكتاب المقدس بعناية ، ودراسة مؤلفات آباء الكنيسة والنخبة المنتقاه من الكتاب اللاتين ، ووضع نظام لحماية طلاب العلم يسمح لهم بمتابعة تلك الغايات • وقد جعل شارلمان من بلاطه فى آخن مركزا للعلم، كما شجع الأديرة على مواصلة نشاطها الثقافى • ووجد رجال العلم الذين جلبوا من كل أنحاء اوروبا تأييدا ورعاية كافيين يمكنهم من تكريس حياتهم لإتقان اللغة اللاتينية ، والتأليف فى النحو وأجرومية اللغة وقواعدها ، ونسخ الكتب فى مخطوطات جديدة جميلة ، ووضع كتب مختصرة للتعليم الدينى ، مع كتابة المؤلفات الأدبية التى تتميز بأصالتها والتى تعالج اللاهوت أو التاريخ أو السير والتراجم ، كما وجدوا التشجيع فى أن تتصل المكاتب بينهم وبين غيرهم من رجال العلم •

ومصاحب هذا الاهتمام بأمور العلم والتعليم ، نهضة فنية تحمل طابعا اوروبيا غربيا • فقد استحوذ بناء الكنائس على الجهود الممتازة فى هذا العصر • وكانت الكنائس الكارولنجية ، بوجه عام ، تبنى على

طراز الكنائس الرومانية المعروفة باسم البازيليكا في العصر الكلاسيكي المتأخر . وكان التخطيط الأساسى لارض الكنيسة يتكون من صحن مستطيل يخترقه جناحا الكنيسة على شكل صليب وينتهى بقبة مستديرة حيث يوجد الهيكل والمذبح . كما توجد ممرات جانبية تمتد عادة بطول صحن الكنيسة . وقد شيدت بعض الكنائس ، ومن بينها كنيسة شارلمان الخاصة في آخن ، على شكل مئمن الأضلاع والزوايا ، وهو شكل مأخوذ عن النماذج البيزنطية . وكانت أسوار الكنيسة مبنية من الحجر ، اما على شكل كتل كبيرة أو قطع صغيرة مثبتة بالملاط . واستخدمت الأسقف الخشبية لان معظم العمال الفنيين الكارولنجهين كانت تتقصهم المهارة في بناء الأسقف الحجرية . وفي الداخل كانت الجدران تزدان بالصور الملونة بالماء المعروفة بالفريسكو ، والتي تشرح القصص المستمدة من الكتاب المقدس . أما الأجزاء الخارجية للكنائس فلم تكن مزخرفة . كذلك وجدت كنوس العشاء الربانى ، والشمعدانات الذهبية ، وكتب القداس الالهى ، وأغطية المذبح البديعة الصنع . ومع أن الكنائس الكارولنجية كانت في جوهرها تقليدا للنماذج المبكرة في ملامحها الأساسية ، فقد كانت هناك تجديدات ذات دلالة فائقة بالنسبة لمستقبل تاريخ الفن في غرب اوروبا . وأهمها تلك التعديلات التي طرأت على الفن المعماري لبناء الكنائس لتتناسب مع خدمة القداس الرومانى . وبدأ تشييد الكنائس الصغيرة المخصصة لذكرى مختلف القديسين ، والأماكن التي توجد بها ذخائر أولئك القديسين ومخلفاتهم . كما بنيت السرايب أسفل الكنيسة كمخازن لحفظ مخلفات القديس الذي سميت الكنيسة باسمه . وتم التوسع في عدد مرتلى الكنيسة ليناسب المشتركين العديدين في احياء القداس وأداء المهام الخاصة بالأديرة . وكانت هذه التطورات هي اللبنة الأولى في الطراز الرومانى الحديث المعروف باسم Romanesque ، والذي اتخذ شكله النهائى في القرن الحادى عشر الميلادى . ويمكن أن نكتشف في النقوش العاجية الرقيقة وفي المخطوطات المزدانة بالرسوم الجميلة في العصر الكارولنجى ، النماذج

الأولى للنحت الحجري الرائع الذى ازدانت به الكنائس الرومانية التى
شيدت فى هذا العصر المتأخر • كما تبرز كثير من النقوش العاجية
والمخطوطات المصورة مهارة فى المزج بين النماذج والتصميمات المأخوذة
عن اصول رومانية قديمة وأصول كلتية وجرمانية وشرقية ، نتج عنه
طابع مميز فى الغرب •

ويبدو أن النتائج الايجابية لهذه الأنشطة كانت متواضعة ، اذا ما
قورنت بالحياة الثقافية المعاصرة لها فى العالم الاسلامى أو الدولة
البيزنطية • فلم يكن رجال العلم الكارولنجيين على معرفة سوى بعدد
قليل من المؤلفين الرومان القدامى • وكثيرا ما كان فهمهم لهؤلاء سطحيًا
متواضعا • وكانت اللغة اللاتينية التى استخدمها أفضل مؤلفيهم وكتابهم
أقل بكثير فى مستواها عن النماذج الكلاسيكية القديمة • كما كان جانب
كبير من أشعارهم وكتاباتهم اللاهوتية مجرد تقليد ، سواء من ناحية
الشكل أو الموضوع • فعلى سبيل المثال ، كتب اينهارد سيرة حياة
شارلمان على نسق ماكتبه سوتونيوس Suetonius كاتب سير الأباطرة
الرومان • وبالرغم من أن كثيرا من أعضاء مدرسة البلاط كانوا يدافعون
بشدة عن التعليم الحر المطلق المبني على دراسة علم البيان وقواعد
اللغة والحساب والهندسة واللاهوت ، فقد كانت الممارسة الفعلية فى
المدارس الأسقفية والديرية تكاد لا تحقق هذه الغاية • لقد قضى معظم
الطلبة وقتهم فى هذه المدارس فى تعلم القراءة والكتابة من النصوص
المتواضعة ، وفى الاجابة عن الأسئلة التى يطرحها أساتذتهم الخاصة
بالمعنى الرمزي فى أجزاء من الكتاب المقدس ، وممارسة مختلف الطقوس
المتعلقة بالخدمة ، فضلا عن عملية نسخ الكتب • وأخفق شارل العظيم
نفسه فى احدى المناسبات فى ابراز امتيازه وتفوقه فيما يتعلق بأمور
التعليم • فقال عنه اينهارد « انه حاول أيضا أن يكتب ، واحتفظ بألواح
وأوراق بيضاء تحت وسادته ليعود يده أثناء ساعات الفراغ على كتابة
أشكال الحروف • ومع ذلك ، لم يبدأ جهوده فى الوقت المناسب ، ولكنه
بدأها مؤخرا بعد أن تقدم به السن • ولذلك حقق نجاحا محدودا » •

ومع أن الفترة الكارولنجية شاهدت نشاطا فنيا يفوق ذلك النشاط الذي عرفه العصر الميروفنجي ، إلا أن الحصيلة الاجمالية من المباني الجديدة كانت متواضعة اذا ما قورنت بالعصر الكلاسيكي المتأخر أو بالفترات المتأخرة من العصور الوسطى .

ورغم أن النهضة الكارولنجية كانت محدودة ، إلا أنها تركت في زمنها أثرا هائلا . فقد جعلت المجتمع الأوروبي الغربي على وعى أكثر بأهمية تراثه الثقافي . ولم يعد العلم أمرا مقصورا على عدد قليل من الرهبان الذين اعتزلوا الحياة الدنيا ، بل أصبح بدلا من ذلك أمرا ضروريا ولازما لحفظ كيان الحكومة والنظام الديني بأكمله ، واعتبر مسؤولية المجتمع كله . وفوق ذلك ، فإن تركيز اهتمام طلاب العلم الكارولنجهين على التراث اللاتيني ، جعل الهوة الثقافية التي تفضل الغرب عن الشرق أكثر عمقا واتساعا . ولم يهتم الأوروبيون الغربيون بالشق اليوناني من التراث الكلاسيكي القديم ، مرة أخرى ، إلا بعد قرون عديدة لاحقة . وفي النهاية ، أدت النهضة الكارولنجية دورا هاما في خلق نظام فعال لحياة ثقافية مزدهرة . فقد ظلت الكتب الدراسية ، والمدارس ، والمكتبات ، وطرق ووسائل الدراسة والتدريس ، وأساليب الأدب والفن ، جزءا لا يتجزأ من تاريخ أوروبا الغربية . ومن هذا الأساس الذي أرسى لبناته الكارولنجهيون ، نمت وتطورت معظم ثقافة الغرب في العصور الوسطى .

وفي النهاية ، ثمة كلمة يجب قولها في هذه الدراسة المختصرة عن الصفات البارزة للمجتمع الفرنجي ، وهي أن الدولة الكارولنجية غدت بحق مركز المجتمع الأوروبي الغربي . وفي الواقع ، كانت هناك جماعات سياسية عديدة في غرب أوروبا ليست جزءا من المملكة الكارولنجية ، من بينها الخلافة الاسلامية ، وعدة دول مسيحية صغيرة في اسبانيا ، والممالك الانجليزية المتعددة ، والامارات السلافية العديدة ، والأمم الاسكندنافية ، والأقاليم البيزنطية في جنوب ايطاليا . وان هذه

الجماعات كلها تقريبا وجدت نفسها تسير — الى حد ما — في فلك القوى الكارولنجية • فهي اما متحالفة معها تحالف التابع من المتبوع ، واما عدوة لها تتاصبها العداء وتهدها بالمخاطر • ولقد سبق القول ان الدولة الكارولنجية قادت مشعل الثقافة في الغرب الأوربي كله • وبالإضافة الى ذلك ، كان نظامها الديني الذي اتخذ الطابع الرومانى قد امتد حتى وصل الى بعض السلاف والسكندنافيين الغربيين • وهكذا بدأت عملية ذوبانهم في المجتمع الأوروبى الغربى • واذا أمعنا النظر في مراحل التطور التى تحولت بموجبها « الكارولنجية » حتى غدت « اوروبية غربية » في النصف الأول من القرن التاسع الميلادى ، أمكن أن نستخلص بحق نتيجة مفادها أن أهم مظهر حى للتاريخ الكارولنجى هو استقطاب الغرب كله حول محور يمتد من روما حتى آخن • ويمكن القول ، بشكل آخر ، ان الأسرة الكارولنجية حتى عام ٨٤٠ م كانت قد حددت الملامح المميزة لمجتمع اوروبى غربى ناهض • وكانت شديدة التحمس لهذا العمل ، لدرجة أن العالم كله بات يدرك قوتها وحيوتها • وكانت هذه هى اوروبا الأولى •

الدولة الاسلامية في ظل الخلفاء العباسيين الأوائل

بينما كان الأمراء الكارولنجيون العظام يعملون بهمة في سبيل خلق طابع مميز لحضارة اوروبا الغربية ، كانت هناك تغييرات هامة مماثلة آخذة في تطوير الحياة في الدولة الاسلامية الشاسعة التى كان قد أسسها المقاتلون العرب خلال القرن الذى تلا موت النبى محمد ﷺ عام ٦٣٢ م • وأثناء القرن الأول استطاع الاسلام أن يضرب ضربته العسكرية في العالم المتحضر • وحوالى عام ٧٥٠ م بدأت حركة الفتوحات تخبو • وما أن تم ذلك حتى مرت الدولة الكبرى التى كان يقبض على زمام الأمور فيها في أول الأمر أقلية صغيرة من المحاربين ، بأزمة داخلية خطيرة • وبعد عام ٧٥٠ م اتجهت الجهود الخلاقة في المجتمع الاسلامى نحو

• إقامة أنظمة داخلية تعمل على تقوية الدولة والابقاء عليها ، أكثر من العمل على توسيع رقعتها •

العباسيون الأول (٧٥٠ — ٨٤٧ م) والخلافة الجديدة

كانت التطورات الجديدة في الدولة الإسلامية بعد عام ٧٥٠ م تتعلق بظهور أسرة جديدة هي أسرة بنى العباس التي تقلدت السلطة اسميا اعتبارا من عام ٧٥٠ م وحتى عام ١٢٥٨ م • وكانت فترة الحكم العباسي ، في حقيقة الأمر ، تنحصر بين عامي ٧٥٠ ، ٨٤٧ م • فقد استطاع بنو العباس تقلد السلطة بالقوة منتهزين حالة السخط والتذمر التي نتجت عن سياسة الأمويين الخاصة باعتبار العرب هم الصفوة الممتازة داخل الدولة الإسلامية • ومع أن المحاربين العرب كانوا قد أحرزوا انتصارات عسكرية باهرة طوال قرن من الزمان ، إلا أن الناس بدأوا ينظرون اليهم كشعب ينعم برغد من العيش نتيجة الجزية التي مرضوها على رعاياهم • ولم يقدموا لهم سوى القليل ، وكان معظم هؤلاء الرعايا أرقى منهم في النواحي الثقافية والاقتصادية والسياسية • وقد شغل القادة الأمويون أنفسهم بأمور الحرب والدبلوماسية وجباية الجزية ، حتى أنهم نسوا في بعض الأحيان أنهم بوصفهم خلفاء يعتبرون قادة دينيين • واهتمهم كثير من المسلمين بالانغماس في الدنيويات • وطالما كان العنصر العربي هو العنصر الغالب في الدولة الإسلامية ، فقد استمرت المشاحنات القبلية القديمة التي كان يتميز بها المجتمع الصحراوي المبكر ، باقية على ما كانت عليه • وعندما بلغ الشقاق والصراع أشده ، كانت الثورة ضد العصر الأموي قد نضجت • وفي عام ٧٥٠ استطاع شخص من عصب الرسول (ﷺ) الوصول إلى السلطة بالقضاء على حكم الأمويين •

وليس هنا مجال سرد تاريخ الخلفاء العباسيين العظام الذين حكموا خلال القرن التالي بأسهاب وتفصيل • فقليل منهم ، وبخاصة هارون الرشيد (٧٨٦ — ٨٠٩ م) والمأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) ، كان

يحتل مكانة مرموقة بين أعظم حكام العالم . وقد اتبع الخلفاء العباسيون الأوائل ، بوجه عام ، سياسة أحدثت ثورة في الدولة القائمة ، ووضعوا بشكل نهائى الخصائص والمميزات الأساسية للحضارة الإسلامية . فقد أصر بنو العباس منذ الوهلة الأولى على تأكيد الطابع الدينى للخلافة . واتهموا الخلفاء الأمويين بأنهم خطوا من شأن الخلافة بجعلها وظيفة علمانية الى حد بعيد ، تماثل كثيرا وظيفة الامبراطور الرومانى . وبذلك اعتبر العباسيون أنفسهم زعماء دينيين ، وأن الله قد أناط اليهم مسئولية تجديد النظام القائم على البر والتقوى والذي أرسى أساسه النبىء محمد ﷺ . وبدأوا يطالبون جميع المسلمين بطاعتهم على هذا الأساس وحده ، مع التخلص من الروابط القبلية القديمة التى كانت سائدة فى الصحراء ، وكذلك روابط الزمالة فى الناحية العسكرية كأساس للحياة السياسية . فقد كان العباسيون هم « أمراء المؤمنين » ، وليس مجرد قادة للمقاتلين العرب فحسب . وهكذا جعلوا نظامهم أكثر عالمية . وأخذت الحقوق والامتيازات والواجبات التى اختص بها المسلم المؤمن تتسع دائرتها لى تشمل كل المؤمنين بالله على حد سواء ، وليس فقط الأقلية المختارة من العرب .

وكان مفهوم العباسيين للدولة ، من نواح عديدة ، انعكاسا للآراء الشرقية عن الملوك الكهنة . وليس من المستغرب ، اذن ، أن ينقل العباسيون عاصمتهم من دمشق ذات الصبغة الهلينية الى بغداد حيث كانت المؤثرات الفارسية قوية . وحاول الأمويون ، من قبل ، تقليد نظم الحكم العملية عند الرومان ، أما العباسيون فقد استعانوا بالنظم الفارسية . فأقام الخلفاء فى بغداد بلاطا يتميز بالفخفة والأبهة عاشوا فيه محاطين بألوان الترف فى جو غامض منعزل وسط حريمهم وخصيانهم ورجال بلاطهم ووزرائهم . وإذا كشفنا النقاب عن حياة البلاط فى إحدى حفلاته الدائمة ، لوجدنا أنظار مئات من رجال البلاط الذين كانوا يرتدون الملابس الزاهية تتركز على الخليفة ، ويقوم كل منهم بممارسة طقوس يصاحبها دقات الطبول .

ومع أن الخلفاء العباسيين اختاروا هيئة بلاطهم من جميع أنحاء الدولة الشاسعة ، إلا أن العنصر الفارسي كان هو الغالب • وحتى جيوشهم كانت تتكون ، أساسا ، من الفرق الفارسية • وتميز بلاطهم بوجود أقسام إدارية محددة اختصاصاتها تحديدا واضحا ، ويشرف عادة على كل منها وزير ينوب عن الخليفة ويتمتع بسلطة كبيرة في أغلب الأحيان • ومن بغداد امتدت شبكة إدارية منسقة تراقب حكام الولايات ، وهم الأمراء الذين أقاموا بدورهم عاصمة وبلاطا في كل منها على نمط بغداد العاصمة وبلاطها • وقد أقام الأمراء ، أيضا ، حكومة دينية تتحمل المسؤولية على المستوى المحلي • وبذلك حلت بتوجيه العباسيين دولة بيروقراطية واسعة محل جماعة المحاربين القدامى •

كذلك تمخضت عن النظام الذي أوجده العباسيون مظاهر غير مرغوب فيها ، مثل مؤامرات البلاط ، والمذابح السياسية المستمرة ، والجاهلية • ووسائل الإرهاب التي اتسم بها الحكم السياسي • ومع ذلك ، كانت الحكومة قوية عندما تولى تسييرها الخلفاء الأكفاء ، وانعكست قوتها في فخامة العاصمة بغداد وبهائها خلال حكم هارون الرشيد وعدد من خلفائه ، كما تكشف عن ذلك قصص ألف ليلة الشهيرة فكانت بغداد مدينة تضم أكثر من نصف مليون نسمة ، وكانت تلي القسطنطينية من حيث حجمها • كما كانت مساجدها الفخمة ، وقصورها الرائعة ، ومبانيها العامة ، وحوانيت أصحاب الحرف فيها التي تعج بالضجيج ، وشوارعها المرصوفة ، والنظام الذي اتبع في توزيع المياه — كان كل هذا يعكس الثروة التي تدفقت على المدينة من الجزية والتجارة • وكانت دار الخليفة هم أفخم مباني المدينة ، ويطلق عليها اسم « قصر البوابة الذهبية » • وكانت قبته تعلو شامخة لتطل على المدينة والسهل الذي يحيط بها •

أما الطبقات العليا فكانت تتعم بنعماء الترف ، وتعيش في دور ازدانت بالفسيفساء اللامع والقراميد ، الأمر الذي يضاف إليها رونقا

وجمالا • كما تزين أفرادها بالملابس الحريرية الناعمة والجواهر الثمينة، وتعطروا بالعطور النادرة • ووجد الشعراء والفنانون كل رعاية من أغنياء المدينة • أما الطلاب ورجال العلم فقد كان لهم « بيت الحكمة » المشهور ، وهو الجامعة العظيمة التي أنشأها الخليفة المأمون (٨١٣ — ٨٣٣ م) ، وقد زودت بمكتبة ضخمة ومعامل بها كافة التسهيلات اللازمة • وقام كبار العلماء بتدريس كل فرع من فروع المعرفة تقريبا ، وقد وفدوا إليها من كافة أرجاء الدولة • كما وفد إلى بلاط الخليفة وإلى الأسواق والمدارس ، سيل من الرحالة والزوار الذين قدموا إلى تلك المدينة العالمية من جهات نائية ، وأشاعوا جوا عالميا فيها •

وعلى النقيض من ذلك ، كانت عاصمة شارلمان في آخن بدائية • فهي بسكانها الذين لا يتعدون الوفا قليلة، وبكنيستها وقصرها المتواضعين، وحفنة العلماء الذين جاهدوا لاقتان مبادئ اللغة اللاتينية ولتدريس مناهج مبسطة من الدراسات لعدد قليل من الطلبة ، وحاجتها إلى التجارة والصناعة المزدهرة ، وغلبة نبلائها الذين لا يظهرون في المدينة إلا عند استدعائهم للقتال فحسب — هي بكل هذا وذلك إنما تشير ، بشكل ما ، إلى تفوق الشرق على الغرب في القرن التاسع الميلادي •

ولم يحاول نظام الحكم العباسي الجديد السير على منوال سلفه باستئناف حملات الغزو العسكري • بل سعى إلى اكتساب تأييد الفرنجة في الغرب ضد مسلمي إسبانيا الذين رفضوا الاعتراف بسيادة العباسيين • وقد أثار هارون الرشيد ، مثلاً ، ضجة كبرى في بلاط شارلمان عندما وصل سفراؤه عام ٨٠١ م ، ثم مرة أخرى في عام ٨٠٧ م ، يحملون هدايا فاخرة من بينها فيل وساعة مائية • وكان هذا الموقف الودي من جانب خلفاء بغداد قد خفف من الضغط الإسلامي على الغرب الأوروبي • كما كانت الحملات المتفرقة الموجهة ضد الامبراطورية البيزنطية تنتهي في كثير من الأحيان بمفاوضات سلام • وبدأت الحدود الفاصلة بين بيزنطة والدولة الإسلامية تبرز عبر آسيا الصغرى • وبهذا

التقسيم الواضح بينهما ، شعر كل من المجتمعين بالأمان فيما وراء حدوده الجديدة . والواقع أن المسلمين استطاعوا بالفعل اقتطاع أقاليم هامة معينة من الامبراطورية البيزنطية خلال تلك الفترة من الزمن ، وأهمها كريت وصقلية . ولكنهم لم يعودوا يهتمون الممالك والامبراطوريات في محلات عاصفة عاتية . وقد أزاح توقف الزحف العسكرى عبئا ثقيلا عن عاتق بيزنطة ، وأوجد حالة من الاستقرار في عالم البحر المتوسط ظل يتمتع بها حتى النصف الأخير من القرن الحادى عشر الميلادى وبداية الحروب الصليبية .

لقد استمتع العالم الاسلامى خلال القرون الاولى من الحكم العباسى برخاء ملحوظ . اذ كان المسلمون قد استولوا على أجزاء من أغنى مراكز الزراعة والتجارة والصناعة في العالم . ثم قاموا بربط هذه المراكز الاقتصادية في دولة واحدة ، مما سهل عمليات التبادل الاقتصادى بينها . كما شجع العباسيون نمو التجارة فيما يتعلق بالمنتجات والصناعات الدقيقة . لقد شجعوا التجارة كما شجعوا الزراعة بصفة خاصة رغبة منهم في توسيع قاعدة الضرائب (التى يجبوونها) . وكانت المنتجات الاسلامية ، وبخاصة الصلب الدمشقى والجلد القرطبى والسجاد الفارسى والزجاج السورى والورق والأقمشة الكتانية والقطنية والحريرية ، تعتبر من أجود المنتجات في العالم . وكانت أساليب الزراعة هي أكثر الأساليب المعروفة تقدما في هذا العصر . وقد ذهل الأوروبيون الغربيون عندما رأوا ، لأول مرة ، المنتجات الزراعية المتعددة التى تم انتاجها في اسبانيا وسورية والأراضى المقدسة . وكان مما استرعى نظرهم ، على وجه الخصوص ، الدواجن الرشيقة والسكر والفاكهة . وبسبب تفوق كل هذه النواحي ، بدأ استخدام العديد من الألفاظ الشائعة في اللغة الانجليزية التى اشتقت من المصطلحات العربية لمنتجات حوانيتهم ومزارعهم مثل المولسلى والكحول والبرتقال والليمون والحريز الدمشقى المزركش والقطن والقهوة والشربات .

وساعد على زيادة النمو الاقتصادى انتشار لغة عامة سهلت الى حد بعيد — السفر والترحال وتبادل السلع والبضائع • وأسهمت السهولة التى استطاع بها السكان المقيمون فى جزء من تلك الدولة ، فى التعرف على الظروف والأحوال المعيشية للناس فى أجزائها الأخرى البعيدة ، على خلق أذواق جديدة • واستتبع ذلك الاقبال على بضائع جديدة • ونتج عن مجموع هذه المؤثرات نمو التجارة والصناعة والزراعة • وبذلك ارتفع معدل الرخاء فى العالم الاسلامى ، بل كان هذا المعدل أعلى من أى مستوى آخر ينعم به الناس فى العالم المعاصر •

عالمية الاسلام

يحتمل كثيرا أن التطور السياسى والاقتصادى فى العصر العباسى الأول لم يسهم فى تكوين المجتمع الاسلامى بقدر اسهامه فى الانتشار السريع للاسلام ، وما استتبع ذلك من خلق مجتمع المؤمنين الكبير وحتى فى أيام حكم الخلافة السابقة ، دخل فى دين الاسلام كثير من غير العرب • ومما يدعو الى السخرية أن هؤلاء ساعدوا على سقوط حكامهم • ذلك لأن الأمويين كانوا يعاملون غير العرب ممن اعتنقوا الاسلام معاملة من هم أقل شأنًا من العرب • وعلى هذا كانوا على استعداد لمساندة التحدى العباسى الذى وعد بالمساواة بين كل المسلمين وتحقيق وحدة الاسلام • وفى ظل النظام الجديد استمر دخول الناس فى الاسلام يزداد زيادة مطردة ، حتى أصبح غالبية سكان المنطقة الممتدة من اسبانيا الى الهند من المسلمين •

ويبدو أن معظم الحالات التى اعتنق فيها أصحابها الاسلام ، نتجت أساسا عن مزايا الدين الاسلامى • فقلما لجأت الحكومة العباسية الى القوة كوسيلة لدخول الناس فى الدين الجديد • وكانت سياستها التى درجت عليها هى اعطاء حرية كبيرة لجميع الجماعات الدينية داخل نطاق الخلافة ، وبخاصة اليهود والمسيحيين الذين يعتبرون طبقا للشريعة الاسلامية جماعات كشف الله لها جانبا من الحقيقة • ولقد فرضت

الحكومة فعلا الضرائب على غير المسلمين ، ومنعتهم من تقلد وظائف معينة . ولكن يحتمل أن هذه الأمور لم تكن عنيفة لدرجة الاجبار على تغيير الدين . وهكذا انتشر الدين الاسلامي بفضل محاسنه ومزاياه ، وأصبح رباطا فعالا للوحدة .

وقد قيل مرارا ان القرن الذي يقع بين عامي ٧٥٠ ، ٨٥٠ م هو الذي أعطى تعريفا للدين الاسلامي الحنيف الذي استمر مدة طويلة باعتباره قوة فعالة مؤثرة في سير مجرى التاريخ . وقد اتخذ الدين شكله الأساسي ، بطبيعة الحال ، زمن الرسول ﷺ الذي نزل عليه القرآن بالوحي ، وجمع بعد انتقاله الى ربه بسنوات قلائل . وكرس رجال الفقه والشريعة جهودا ضخمة في العصر العباسي لدراسة وتفسير الأحاديث النبوية الشريفة المنسوبة الى رسول الله (ﷺ) . كذلك عمل هؤلاء أيضا بجد للتوفيق بين الحقائق الدينية الاسلامية وبين المفاهيم الدينية والفلسفة الأجنبية التي كانت سائدة في ربوع العالم الاسلامي . وكانت حصيلة دراسة الأحاديث الدينية ذخيرة هائلة من المادة التي أعانت على تفسير القرآن الكريم وتوضيح مفاهيمه . وأصبحت الأحاديث مصدرا لاغنى عنه بالنسبة للمسلمين المتمسكين بأهداب الدين والذين أطلق عليهم اسم المسلمين السنيين . وترتب على ذلك أن أصبحت العقيدة التي تضمنها كتاب الله ديننا دقيقا عميق المعاني . وزاد الاهتمام بدراسة الشريعة واستنباط قواعد للسلوك تناسب المسلم . ونظرا لأن القرآن لا يتضمن قدرا كبيرا من المادة التشريعية ، أصبحت الشريعة الاسلامية موضع دراسة متعمقة . واضطر رجال الشريعة والقانون الى استخلاص قوانين خاصة من المبادئ العامة ، الأمر الذي ترتب عليه اختلاف في الرأي . ولكن ، نتج عن ذلك أيضا مجموعة مفصلة كبيرة من القوانين التي تنص على حقوق المسلم وواجباته . وقد التزم أهل السنة بهذه الشريعة ، التي أصبحت مصدرا آخر من مصادر الدين الاسلامي الذي نادى به محمد ﷺ .

ولم يؤد دخول الناس في الاسلام على نطاق واسع ، بالاضافة الى الأمور المتعلقة بالعقيدة والمذهب السني ، الى تحقيق وحدة دينية كاملة في أرجاء الخلافة العباسية . ذلك أن الجماعات الكبيرة النشطة من غير المسلمين ، من اليهود والمسيحيين والزرادشتيين ، استمر وجودها داخل الدولة الاسلامية . وفي أواسط القرن التاسع الميلادي بدأت الانقسامات الجوهرية تبرز في المجتمع الاسلامي . فقد وجد السنيون تحديا من قبل طائفة الشيعة التي أضمر أتباعها على أن نسل علي زوج ابنة الرسول هو الذي حافظ على جوهر الاسلام أكثر من الخلفاء الأمويين والعباسيين الذين نظر اليهم الشيعة كمغتصبين . وأخذت هذه الطائفة في تطوير عقائدها وطقوسها الى أن انقسمت الى شيع داخلية تقف من أهل السنة موقف المعارضة . وبالرغم من هذه الانقسامات الدينية ، أدرك العالم الاسلامي أن الدين هو أوثق رباط للوحدة ، واعتبر العصر العباسي الأول العصر الذهبي للايمان الصحيح الجامع .

تطور الثقافة الاسلامية

ان الرابطة الروحية للعالم الاسلامي التي قوت من أواسرها التطورات الدينية ، قد رفعت من شأنها تلك النهضة الثقافية النشطة التي انتشرت في كافة أرجاء الخلافة . وشاهد القرن الأول من التاريخ العباسي المولد الحقيقي لثقافة اسلامية متميزة . فلم يهتم المحاربون العرب في الفترة السابقة اهتماما يذكر بالأمور الثقافية . ولذلك كانت مكونات الحياة الثقافية في ظل الحكم الأموي ، أساسا ، امتدادا للتقاليد الثقافية أيام الجاهلية وما قبل الاسلام ، من يونانية ورومانية وفارسية وهندية مع تفاعل بسيط (بينها وبين تلك الثقافات) . ولقد شاهد العصر الأموي ، بالفعل ، بداية احياء ثقافي نتج عن انتشار لغة واحدة ودين واحد . ولكن ، قبيل عام ٧٥٠ م لم يكن هذا التطور الجديد قد آتى ثماره بعد .

ولقد ارتكز الاحياء الثقافي المبهر في العصر العباسي الأول ،

والذى قدر له أن يؤثر على مجرى تاريخ العالم كله ، فى بداية الأمر على ترجمة قدر كبير من المعارف اليونانية والفارسية والهندية الى اللغة العربية • فأصبحت هذه المعارف فى متناول جميع طلاب العلم المسلمين • وكانت دائرة المادة المنقولة الى العربية مشعة هائلة ، اذ تناولت علم الفلك ، والرياضيات ، والطب ، والكيمياء ، والجغرافية ، والفيزياء ، والفلسفة ، والأدب ، وعلم الأخلاق ، والقانون • وكان أبرز هؤلاء المترجمين المتضلعين فى العلم ، والذين اتخذوا من بغداد مركزا رئيسيا لهم ، من غير العرب • لقد كانوا من السوريين والفرس الذين تعلموا كمسلمين اللغة العربية ، ولكن ثقافتهم كانت مبنية على تقاليدهم الوطنية • وفى هذا العالم الواسع للدولة العباسية الذى احتضن الجميع ، كانت معارفهم تتطلب الرعاية بصرف النظر عن مصادرهم وأصولهم • كما شاهد هذا العصر تطورا سريعا لتلك الجوانب من المعرفة ، وبخاصة ما يناسب مواضيع الدراسة مثل اللغويات والمنطق والنحو • وكان نشاط طلاب العلم المسلمين فيما بين عامى ٧٥٠ ، ٨٥٠ م يشبه نشاط طلاب العلم الكارولنجيين فى نفس الفترة من الزمن • وعلى هذا ، فمن الطبيعى أن نتحدث عن نهضة عباسية مماثلة للنهضة الكارولنجية ، طالما أن كلا منهما كانت تبحث عن أسس ترتكز عليها وينطلق منها العلم الجديد ، تكون مستمدة من التقاليد الثقافية السابقة • ومع ذلك ، ليس ثمة ما يجعل المرء يلمس انطلاقة النهضة العباسية أكثر من مقارنة دائرة الدراسات الاسلامية بمثيلاتها فى المدارس والأديرة الكارولنجية • ويبدو أن الجهود التى بذلها الكارولنجيون فى سبيل استعادة واجادة فهم عدد قليل من مؤلفات اللاتين القدامى ، كانت أمرا يرثى له اذا ما قورن بالعدد الهائل من المؤلفات العلمية والفلسفية المتنوعة التى وضع المسلمون أيديهم عليها •

ولم يترك العصر العباسى الأول سوى القليل فيما يتعلق بفن المعمار والنقش يمكن أن نحكم على أساسه على مدى التقدم الذى تم فى هذين المجالين • اذ دمرت ، لسوء الحظ ، جميع آثار بغداد العظيمة •

وتشير الشواهد القليلة الباقية الى التطور الذى طرأ على أسلوب الفن المختلط الذى نتج عن الاقتباس من النماذج اليونانية والرومانية والهندية والفارسية، والمصرية. فاذا اتخذنا أحد المساجد كأنموذج نجد أنه يشبه البهو الطويل ذى الأعمدة الموجود فى مصر ، والقوس الذى يشبه حدوة الحصان المطلق من الخارج بالجبس الناعم فى بلاد الفرس، والعقود والقبوات البيزنطية المرتكزة على أعمدة من الرخام . وأصبح استخدام الزخارف الهندسية وزخارف من الفسيفساء من خصائص الفن الزخرفى . وبسبب المحرمات الدينية التى تتمثل فى عدم إبراز أجزاء الجسم البشرى ، فان الرسم والتصوير الدينى لم يتطورا بحرية فى العالم الاسلامى . ومع ذلك فقد انتشر أسلوب نشط من أساليب الرسم فى زخرفة القصور ، وكذلك فى الرسوم الجميلة التى ازدانت بها المخطوطات . ومع ذلك ، فالدليل واضح على أن الفن الحى الجديد فى العصر العباسى ، شأنه شأن العلم الواسع المعاصر له ، انما استمد قوته الأساسية من مزيج من المصادر والأصول والتقاليد السابقة .

بيزنطة فى العصر اللايقونى (٧٤١ — ٨٤٣ م)

ليس هناك مجال للمقارنة بين ما حققه الحكام الكارولنجيون والخلفاء العباسيون من جهة ، وبين جهود الأباطرة البيزنطيين خلال النصف الأخير من القرن الثامن والنصف الأول من القرن التاسع الميلادى من جهة أخرى . لقد عانت بيزنطة من انهيار آخر فى مكانتها تلك الحقبة من الزمن . ولم تكن خسارتها اقليمية ، مثلما كان الحال منذ عهد جستنيان حتى أوائل القرن الثامن . وانما كانت الخسارة التى حلت بها قد أصابت هيبتها على وجه الخصوص . ذلك أن ادعاء أباطرتها بأنهم الرؤساء الوحيدون للعالم الرومانى المسيحى قد واجهه ادعاء الكارولنجيين المضاد بأحققيتهم فى اللقب الامبراطورى فى الغرب على الأقل . وفى نفس الوقت وجد البلاط البيزنطى منافسا قويا آخر فى البلاط الاسلامى فى بغداد . وكانت النهضة الاسلامية قد بلغت نفس

مستوى الحياة الثقافية في الدولة البيزنطية ، ان لم تكن قد تفوقت عليها ، كما تحدثها النهضة الكارولنجية • وكان الانهيار النسبي الذي أصاب بيزنطة ، الى حد كبير ، بسبب المشاحنات الدينية المريرة التي فرقت السكان شيئا وأقساما ، وأصابت الحكومة الامبراطورية ، بالشلل في بعض الأحيان • ومع ذلك ، احتفظ المجتمع البيزنطي فيما بين عامي ٧٤١ ، ٨٤٣ م بالفعل ، بقوة أساسية في صميم نظمه وثقافته مهدت الطريق لحركة احياء لامعة حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى • وقد ساعد ذلك على استعادة الامبراطورية سريعا لشهرتها من جديد •

الحركة اللايقونية ، والسياسة ، والدفاع

تعتبر المسألة الدينية موضوع الخلاف البارز في التاريخ البيزنطى في الفترة الواقعة بين عامي ٧٤١ و ٨٤٣ م • وقد أدت الهجمات الأجنبية، والحق يقال ، الى تعقد الوضع الداخلى بين وقت وآخر ، وبخاصة الهجمات التي شنّها المسلمون والبلغار ، والتي ألقت عبئا ثقيلا على كاهل الحكومة الامبراطورية ، مع أنها قلما كانت تشكل تهديدا لوجودها • وفي الحقيقة كانت القوات البيزنطية ، خلال الفترة المبكرة من العصر اللايقونى ، قادرة بالفعل على اتخاذ موقف الهجوم ضد المسلمين والبلغار • فكان ليو الثالث قد صد الهجوم الاسلامى الكبير عام ٧١٧ / ٧١٨ م ، وبدأ في تحرير آسيا الصغرى • كما قام باصلاحات داخلية تهدف الى تقوية الجيش وطبقة الفلاحين والادارة المركزية • وترك امبراطوريته عند موته أقوى نسبيا مما كانت عليه من قبل • واستغل خليفته قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥ م) الموقف الجديد بمهارة فائقة • فاستفاد من الضعف الذى حل بالعالم الاسلامى أثناء فترة انتقال الحكم من الأمويين الى بنى العباس في استرداد بقية آسيا الصغرى • وفي نفس الوقت نجح ، بعد حروب طويلة ، في ايقاف التوسع البلغارى في البلقان •

ومع ذلك ، فهؤلاء الحكام الأقوياء المشار اليهم كانوا قد أحدثوا جرحا عميقا في المجتمع البيزنطى بتفجير الصراع حول الصور والأيقونات المقدسة ، خاصة عندما أصدر ليو الثالث مرسومه في عام ٧٢٦ م الذى يقضى بمنع رعاياه من استخدام الأيقونات ، أى التماثيل والصور الملونة أو التى تستخدم فى عملها الفسيفساء ، فى العبادة الدينية . وكانت العوامل التى أدت الى اتخاذ هذا القرار معقدة . فمنذ بداية التاريخ المسيحى تقريبا كانت هناك جوانب فنية تستخدم لتجميل الطقوس والشعائر الكنسية ، بالرغم من المعارضة المستمرة بأن مثل هذه الأمور قد تؤدي الى عبادة الأوثان نفسها . وأصبحت التماثيل والصور والرسوم الملونة بألوان زاهية براقّة فى القرن الثامن وسيلة هامة للتعبير عن التقوى . وواجه بعض المؤمنين صعوبة واضحة فى التمييز بين هذه الآثار المادية الملموسة وبين الاله المعبود . ومع أن مشكلة عبادة الأيقونات كانت سائدة فى كل انحاء العالم المسيحى ، الا أنها كانت تتميز بخطورتها على وجه الخصوص فى الامبراطورية البيزنطية . وربما كانت حالة الريية والشك المقاتلة التى فرضها على سكان الامبراطورية خطر الغزو المستمر خلال القرن السابع الميلادى ، قد جعلت الكثيرين يعلقون الآمال الكبار على حدوث معجزة فى شئون حياتهم اليومية . ويتضمن الأدب البيزنطى فى ذلك العصر اشارات لاعد لها الى صور المسيح والعذراء التى كانت تتكلم ، وتشفى المرضى ، وتهدىء العواصف ، وتساعد المؤمنين البؤساء بمختلف أنواع المساعدة . وملا كثير من الناس بيوتهم بالأيقونات التى اعتقدوا فى قدرتها على اتيان المعجزات ، كما زينوا ملابسهم بها . وكانوا يبتهلون اليها ، ويرتلون لها ، ويضيئون أمامها الشموع . واعتقدوا اعتقادا راسخا بأن هذه الأيقونات ما هى فى الحقيقة الا قوى الهية .

وكان لهذا التطرف الذى تجاوز الحد ، فى النهاية ، رد فعل بين البيزنطيين . لقد كانت المعارضة قوية ، على وجه الخصوص ، فى الأناضول فى الولايات الشرقية للامبراطورية البيزنطية ، حيث احتج

الأساقفة الأقوياء على سند لاهوتى ، وحيث اتجه الفلاحون السذج البسطاء ربما نتيجة اتصالهم الوثيق باليهود والمسلمين ، الى حياة الطهر • وأصبحوا أقل ميلا الى المطالبة بصور مادية ملموسة لآلامهم • ويشير تركز حركة معارضة عبادة الأيقونات فى بلاد الأناضول الى تغلغل المؤثرات الدينية الشرقية القوية داخل الامبراطورية البيزنطية خلال القرن السابع وأوائل القرن الثامن للميلاد والتي تقلها معهم الجنود المسلمون • ولما كان ليو الثالث سورى المولد ، فقد شب على كراهية شخصية عميقة لعبادة الأيقونات • ويبدو أن هذه الكراهية ازدادت خلال السنوات العديدة التى قضاها فى الأناضول كقائد عسكرى • واشتبكت مع مسألة الأيقونات وتداخلت معها مشكلة الدور الذى تلعبه الرهبنة فى المجتمع البيزنطى • فقد كان الرهبان أثناء قيامهم بتطوير أسلوب الطقوس الدينية المعقد المنمق ، قد مارسوا سلطتهم القوية على عناصر كبيرة من السكان • وكان الدير البيزنطى النموذجى عامرا بالذخائر والآثار المقدسة التى قامت من حولها الاحتفالات الدينية المنمقة • ونتيجة لذلك تلقت الأديرة هبات لا حصر لها من المؤمنين ، بحيث بدت منافسا للأباطرة أنفسهم فى ثرواتهم ونفوذهم •

وقد منع ليو الثالث فى المرسوم الذى أصدره فى عام ٧٢٦ م ، استخدام الأيقونات فى الخدمات الدينية • ولاشك أنه كان يأمل من وراء ذلك تطهير الحياة الدينية البيزنطية من ناحية ، والقضاء على السلطة المطلقة التى كانت تتمتع بها الأديرة من ناحية أخرى • ومنذ اللحظة الأولى قبول المرسوم بمقاومة شديدة ، وبخاصة من قبل الرهبان وسكان القسطنطينية والولايات الأوروبية • ولكن ليو لم يتراجع عن قراره ، وثبت عليه • وعاد فأصدر مرسومه مستهينا بالاضطرابات الشعبية التى كانت القسطنطينية مسرحا لها • وخلع البطريرك الذى عارض فى أمر الإصلاح ، وأحل محله بطرياركا مؤيدا لحركة تحطيم الأيقونات • كما اتخذ اجراء قانونيا ضد الذين عارضوا مرسومه • وواصل خليفته قسطنطين الخامس (٧٤١ — ٧٧٥ م) وليو الرابع

(٧٧٥ — ٧٨٠ م) سياسته • وكان قسطنطين ، بصفة خاصة ، متحمسا لهذه القضية • وأخذ يجرد الكنائس ، دون هوادة ، من محتوياتها الفنية الرائعة ، مضطهدا المدافعين عنها المعروفين باسم « متعبدى الأيقونات » « Iconodules » ومع أن الاجراءات التى اتخذها قد وطدت أقدام محطى الأيقونات فى الوظائف الكنسية الكبيرة ، الا أن سياسته لم تلق مطلقا تأييد جميع رعاياه • وتحت وطأة الاضطهاد حدد متعبدو الأيقونات موقفهم ، وخرجوا بدفاع لاهوتى فعال • وكانت المعارضة البابوية (فى روما) للحركة اللاأيقونية أمرا بالغ الخطورة ، لأنها أدت الى قيام التشاحن بين البابا والامبراطور ، كما كانت السبب — الى حد ما — فى اتخاذ القرار البابوى الخاص بالتحالف مع الفرنجة • وقد أنتهى هذا الاتفاق — حسبما سلف — باستيلاء البابوات والفرنجة على أجزاء كبيرة من الأرض البيزنطية فى ايطاليا •

وبعد الموقف الصلب الذى لا يلين الذى وقفه كل من ليو الثالث وقسطنطين الخامس وليو الرابع فيما يتعلق بتحطيم الصور والأيقونات، عانت الامبراطورية (البيزنطية) من نتائج مثيرة للقلق من جراء انقلاب فجائى فى الأوضاع السياسية • ففى عام ٧٨٥ م أصبح ابن ليو الرابع البالغ من العمر عشر سنوات ، وهو قسطنطين السادس ، امبراطورا تحت وصاية أمه ايرين • ولما كانت ايرين ، بصفتها الشخصية ، تعارض حركة تحطيم الصور والأيقونات ، يساندها فى ذلك قطاع قوى فى الامبراطورية ، فقد دعت الى عقد مجمع مسكونى فى مدينة نيقية عام ٧٨٧ م لاصدار الأمر باعادة عبادة الصور والأيقونات • وبذلك اتخذ محطمو الصور والأيقونات موقف الدفاع ، واستمروا فى معارضتهم الصارمة للسياسة الامبراطورية الجديدة ، مستغلين بمهارة طموح ايرين فى الاستحواذ على العرش لنفسها ، كوسيلة لتدعيم مركزهم • وفعلا نجحت ايرين فى الاستيلاء على العرش عام ٧٩٧ م بعد أن خلعت ابنها وسلمت عينيه • ولكن ثمن طموحها كان غاليا • فقد شك الكثيرون من رعاياها فى شرعية استيلاء امرأة على العرش • وكان اعتصابها للتاج

ذريعة لتتويج شارلمان امبراطورا عام ٨٠٠ م • ولم يعترف الامبراطور البيزنطى صراحة بوجود امبراطور غربى الا فى ٨١٢ م • ولكنه بدا واضحا أن الهيبة البيزنطية قد أصابتها لطمة شديدة قبل ذلك التاريخ من جراء العمل الجرىء الذى أقدمت عليه البابوية والفرنجة • كما ضعف الدفاع عن الحدود فى عهد ايرين ، ونتج عن ذلك استئناف المسلمين والبلغار لهجماتهم تحت قيادة حاكميهم العظمين هارون الرشيد وكروم Krum •

وقد تركت ايرين التى خلعت فى عام ٨٠٢ م لخلفائها الذين جاءوا بعدها مباشرة ، تركة مثقلة بسبب مؤامرات البلاط والتهديدات الخارجية والخزانة الخاوية • وهى صعب أضيفت اليها حملة الأباطرة من جديد على الأيقونات • وفى عام ٨١٣ م تولى العرش ليو الخامس ، وهو قائد عسكرى آخر من الأناضول • وتحت تأثير منبته الشرقى ، وتشجيع رجال الدين الذين كانوا لا يزالون يكرهون استخدام الصور والأيقونات، أبدى رغبته فى مجازاة ليو الثالث وقسطنطين الخامس • ففى عام ٨١٥ م أصدر الامبراطور الجديد مرسوما يقضى بالغاء جديد للصور والأيقونات • وواصل سياسته خليفته ميخائيل الثانى (٨٢٠ — ٨٢٩ م) وثيوفليوس (٨٢٩ — ٨٤٢ م) • ومع أن هؤلاء الأباطرة جميعا قد لجأوا الى اساليب العنف لفرض سياستهم ، الا أنهم لاقتوا فى هذه المرحلة الثانية من الصراع اللاأيقونى معارضة أشد عنفا وأكثر تصميمًا واصرارا عما عرف من قبل • فقد كرس أهل القسطنطينية والولايات الغربية أنفسهم بحماسة بالغة للاحتفاظ بالصور والأيقونات التى يحبونها • ولم تفلح المراسيم والأوامر الامبراطورية فى اقناعهم بالتخلّى عنها • وقام الرهبان الذين قادوا حركة المعارضة ضد اللاأيقونية بحملة ماهرة نجحت فى توسيع شقة الخلاف حتى امتدت الى العلاقات بين الكنيسة والدولة • ونجحوا كذلك فى تشكيك الشعب فى صلاحية ادعاء الأباطرة بالسيطرة على الكنيسة • وتدعيما لهذا الاتجاه قاد شخص من دير ستوديون يدعى تيودور جيشا قويا من الرهبان المتعلمين • وبالإضافة

الى استخدام الجدل اللاهوتى ، لجا متعبدو الصور والأيقونات الى مؤامرات البلاط لخدمة قضيتهم • وأمام هذا الهجوم الماهر المدبر ، وجد الأباطرة رغم كفاءتهم كاداريين وكقادة عسكريين ، أنه من المتعذر فرض سياستهم الدينية بالقوة •

ومرة أخرى نجد أن التى أنهت الصراع اللاأيقونى كانت امرأة • فبعد موت ثيوفيلوس أصبحت أرملته تيودورا وصية على ابنها الصغير ميخائيل الثالث • وبعد أن تيقنت تماما أن الصراع اللاأيقونى قد قوض السلطة الامبراطورية ، كما أنه فقد قدرته على اقناع الناس بتأييده ، بدأت هى ومستشاروها فى ارجاع الصور والأيقونات بحرص وحذر • وفى نفس الوقت عاملت المتعلقين باللاأيقونية باعتدال ملحوظ ، الأمر الذى جعلهم يتقبلون هزيمتهم بسهولة • وقد أدت هذه السياسة المعتدلة الى غضب متعبدى الصور والأيقونات المتطرفين ، وبخاصة أتباع تيودور راهب دير ستوديون • ولكن الحكومة الامبراطورية كبحت جماحهم بكل قوة • وسرعان ما أدركوا أنه لا أمل لهم فى املاء سياسة دينية على الحكومة الامبراطورية • وبانتهاء الصراع اللاأيقونى بدأ العصر الذهبى فى التاريخ البيزنطى • ومع ذلك فقد كلف هذا الصراع غاليا ، اذ نتج عنه نزاع داخلى مرير لمدة تزيد عن قرن من الزمان ، الأمر الذى مهد الطريق لضياح الأقاليم الغنية فى ايطاليا • كما شجع ادعاءات الفرنجة فيما يتعلق بالتاج الامبراطورى ، وأضعف الدفاع عن الحدود الامبراطورية • وليس هناك من شك فى أن الأباطرة اللاأيقونيين الكبار كانوا ذوى مبادئ عالية وايمان قوى ، وقد انصب تصميمهم على اصلاح الحياة الدينية فى امبراطوريتهم • ولكن رفضهم الاتفاق والمصالحة كلفهم الكثير • فقد تسبب فى الحط من مكانة الامبراطورية اذا ما قارناها بتلك المكانة التى كان يتمتع بها العباسيون والكارولنجيون •

الحضارة البيزنطية فى العصر اللاأيقونى

وعلى أية حال ، لم يسيطر الصراع العنيف حول الأيقونات سيطرة

تامة على التاريخ البيزنطى فى الفترة الواقعة بين عامى ٧٤١ و ٨٤٣ م •
فقد عملت الامبراطورية خلال هذه الفترة على الاحتفاظ بكيانها السياسى
والاقتصادى الأساسى ، مع العمل على تطويره • وكان هذا عاملا له
فعاليتته فى استرجاع قوتها وتخلصها بسرعة مما حل بها بمجرد انتهاء
الصراع الدينى •

وترجع القوة الهائلة التى نمت بها النظام السياسى البيزنطى الى
ادعاء الامبراطور بالسلطة المطلقة باعتباره ممثل الله على الأرض • ولم
يتساهل أى امبراطور اعتبارا من ليو الثالث حتى ثيوفيلوس أبدا عن
ادعاءاته بحقه فى السلطة الأوتوقراطية ، والشعور بالمسئولية عن رفاهية
رعاياه ومصالحتهم التى احتوتها ادعاءاته المبالغ فيها • وحتى أشد
الأباطرة حماسة لحركة تحطيم الصور والأيقونات أمثال ليو الثالث
وقسطنطين الخامس وثيوفيلوس ، قد تمتعوا باحترام فائق بسبب
جهودهم التى بذلوها فى سبيل الدفاع عن الامبراطورية واقامة العدل
بين رعاياهم • فقد أصبح ثيوفيلوس ، على سبيل المثال ، بطلا فى أعين
سكان القسطنطينية لجهوده فى نشر العدالة • اذ قام بجولات قصيرة
متكررة فى تسوارع المدينة يستفسر من الناس عن أسعار المأكى والملبس،
ويوقع العقاب على المتهمين بالغش • كما سمح بمقابلة أصحاب المطالب
لعرضها عليه • وهكذا عملت البيروقراطية المركزية بكل كفاءة لخدمة
الامبراطور ، وأثبتت مقدرتها على احتفاظ الحكومة بوظائفها العادية
طوال هذه الفترة من الزمن • فكان الأباطرة على دراية تامة بمسألة
انضباط سلوك موظفيهم المدنيين العديدين • فقد أخذ ليو الثالث على
عاتقه ، مثلا ، مهمة مراجعة قانون جستنيان الذى يتميز بأهميته ،
حتى يمكن تزويد المحاكم الامبراطورية بدليل تهتدى به وتفيد منه فى
أعمالها • وكان هذا القانون الذى راجعه والذى يطلق عليه اسم ايكلوجا
Ecloga مكتوبا باللغة اليونانية بدلا من اللغة اللاتينية • كما كان
يمثل صيغ أجزاء من قانون جستنيان بصيغة حديثة لتتناسب ومطالب
العصر الجديد •

وكان العجز في الدخل يعرقل ، في فترات متباعدة ، أعمال الحكومة الامبراطورية • ولكن الاصلاحات التي قام بها الأباطرة كانت تمد الدولة ، مرة أخرى ، بالموارد المالية اللازمة لحكومة قادرة على العمل • ويبين النظام المالي السليم الذي تمتعت به الامبراطورية البيزنطية تناقضا واضحا مع الدولة الكارولنجية المعاصرة لها (في الغرب) ، والتي كان عليها أن تعتمد على الخدمات الشخصية التي يؤديها الأوصال التابعون للملك لتسيير شؤون الدولة • وقد مارس الامبراطور سلطاته بفعالية من خلال نظام كفاء للحكومة المحلية التي نفذت مشيئته في كل ركن من أركان الامبراطورية •

وربما كان النظام العسكري الذي طبقتة الدولة مصدرا أساسيا لقوتها ومنعتها • فقد استمر أباطرة العصر اللأيقوني يستخدمون الجند المرتزة في النظام (الذي اتبع للدفاع عن الحدود) خلال القرن السابع الميلادي • وكان غالبية الجند من الفلاحين الأحرار الذين منحوا الأراضي نظير الخدمة العسكرية • وعمل الأباطرة على توسيع وتنسيق نظام الثيمات حتى يضمنوا الافادة التامة من المصادر العسكرية • وحتى عندما كانت المشاحنات الدينية على أشدها ، استطاع الأباطرة اللأيقونيون الاعتماد على القوات العسكرية للعمل بكل نشاط وكفاءة ضد الأعداء الذين هاجموا البلاد من الخارج • وكان خير عون لجهود الجيش ذلك الجهاز الديبلوماسي البيزنطي المنسق أحسن تنسيق والذي أخذ يعمل في كل مكان ، سواء في العالم الاسلامي ، أو بين السلاف ، أو في بلاد البلغار والغرب بهدف اكتساب خلفاء أو القضاء على أعداء • ولم تستطيع المشاحنات الداخلية المريعة ، بصفة عامة ، أن تضعف من كيان الأوتوقراطية البيزنطية في ذلك العهد الى درجة خطيرة ، ولو أنها حولت طلاقاتها في بعض الأحيان الى مخاطر لا فائدة منها ولا جدوى من ورائها •

وحتى خلال الصراع اللأيقوني ، وبالرغم من جهود البعض ،

وبخاصة الرهبان ، لتحرير الكنيسة من السيطرة الامبراطورية ، فقد واصلت الكنيسة البيزنطية تأييدها القوى لسلطة الامبراطور الأوتواطور . فقد كان بطريارك القسطنطينية رأس الكنيسة البيزنطية ، وكان يعتبر نفسه — عادة — ممثلا للامبراطور الذي اختاره . وكان الأساقفة الذين يعملون في خدمة البطريارك يسيرون ، عموما ، وفقا لأرشاداته . وبذلك كونوا هيئة دينية واضحة المعالم تعمل على تشجيع الوحدة وقرض الطاعة داخل نطاق الامبراطورية . واستمر الشعب الذي كانت تحركه دائما المشاعر الدينية القوية في استجابته للزعامة الكهنوتية . واستمر هذا التلاحم الوثيق بين الدولة والكنيسة ، الذي بدأ مبكرا في التاريخ البيزنطى ، غير منفصم خلال الصراع اللاأيقونى . وعلى الرغم من أن هذا الارتباط لم يكد يظهر وقتذاك ، فمن المحتمل أن النزاع الدينى العنيف قد عمق الحياة الروحية فى المجتمع البيزنطى ، وبخاصة فى محيط الأديرة ، بالكشف عن المبالغة والمغالاة فى الطقوس الخاصة بالقداس الالهى ، وبإلزام المسيحيين على التفكير فيما تعنيه شعائرهم الدينية . وقد أسهمت الحركة اللاأيقونية ، أيضا ، فى فصل الكنيسة البيزنطية عن بقية المجتمع المسيحى . ولما كان البابوات يعتقدون أن الحركة اللاأيقونية هرطقة ، فقد وجهوا جهودهم الى الحفاظ على نقاء الحياة الدينية فى الغرب بدلا من تكريس جهودهم للكنيسة العالمية . وعندما انتهى الصراع اللاأيقونى تماما ، كانت البابوية قد وثقت تحالفها مع الفرنجة ، الأمر الذى أصبح معه من المتعذر استئناف العلاقات بين روما والقسطنطينية على الأسس القديمة . وكان بطاركة القسطنطينية ، بالمثل ، قد استفادوا من اتساع شقة الخلاف عندما تم الاعتراف بهم باعتبارهم قادة الكنيسة البيزنطية . ومع أنه لم تكن هناك قطيعة (دينية) حتى ذلك الوقت بين الشرق والغرب ، إلا أن كلا من شقى العالم المسيحى قد اقتنع اقتناعا راسخا بكيان مستقل خاص به .

وكانت الحكومة الامبراطورية تركز ، هى الأخرى ، على أسس

اقتصادية متينة فيما يتعلق بالريف البيزنطى • فبعد أن سلم الأباطرة بأهمية طبقة الفلاحين المستقلة ، حاولوا تحسين ظروفها وأوضاعها ، وحماية أفرادها من تعسف أفراد الطبقة الأرستقراطية من ملاك الأرض • وكان تتسجيع التجار والصناع المهرة وتقدير الامبراطورية لهم ، يعتبر جزءا من السياسة العامة للدولة • ونتيجة لذلك ظلت القسطنطينية واحدة من أعظم مراكز التجارة والصناعة فى العالم ، حتى بعد كل ما أصابها فى هذا الشأن بسبب سيطرة المسلمين على المراكز الاستراتيجية الهامة فى حوض البحر المتوسط ، وبصفة خاصة فى صقلية وكريت • ولم تكن هذه الخسائر من الفداحة لتؤثر على نشاط الأسواق والحوانيت المزدحمة بالبضائع والناس ، والتي استمرت تمد العالم بسيل من المنتجات ، الأمر الذى ساعد على تألق وتنعم وثناء المجتمع البيزنطى •

وعلى أية حال ، لا يمكن اعتبار فترة الصراع حول الأيقونات فترة ثقافية لامعة • فقد قضى النقاش حول المسائل الدينية على الفن الدينى قضاء يكاد أن يكون تاما • كما كمت أفواه كثير من العلماء باضطهادهم ونفيهم وحتى باستشهادهم • وكان جانب من أدب العصر متحيزا لفريق دون آخر تحيزا شديدا ، حتى أنه فقد قيمته كلية • ومع ذلك فقد كان للجدال اللاأيقونى تأثير قوى • فانطلقت جهود فكرية وفنية لها شأنها آتت ثمارها فى النهاية فى شكل نهضة ثقافية رائعة • لقد أثار الصراع الدينى اهتماما لاحد له بالدراسات اللاهوتية • اذ انكب الدارسون وطلاب العلم ، من كلا الجانبين ، على الدراسة جريا وراء ما يبرر آراءهم الشخصية • فأقبلوا على دراسة الكتاب المقدس وأقوال آباء الكنيسة بتعمق من نوع جديد لم يثر فقط اهتمامهم بالدين ، بل أثار أيضا بطريقة غير مباشرة اهتماما بالتربية والتعليم • فقد شحذت دراسة الكتاب اليونان القدامى ، مهارات الناس فى اللغة والمنطق وعلم البيان • ونجد مثلا واضحا لذلك فى الكتابات المستفيضة التى كتبها يوحنا الدمشقى (مات حوالى سنة ٧٥٠ م) ، وتيودور الستديونى Theodore of Studion وكانا من معارضى حركة تحطيم

الأيقونات • وقد لعب الأخير ، أيضا ، دورا هاما في تأكيد أهمية النظام الداخلي والتعلم داخل الأديرة ، وهو الإصلاح الذى أدى فى النهاية الى تخريج عدد من قادة الفكر الذين قدر لهم أن يحققوا مجدا للمجتمع البيزنطى بعد عام ٨٥٠ م •

وحتى بالنسبة للفن الذى أثرت فيه حركة تحطيم الصور والأيقونات تأثيرا مدبرا للغاية ، كان ثمة شواهد تدل على حيوية متجددة • فلم يقف أولئك الذين كانوا يعارضون بكل عنف تمثيل المسيح والعذراء والقديسين فى شكل صور ، موقف العداء بالنسبة للفنون الأخرى • ونتج عن ذلك أن عمل الفنانين على تنمية نواح جديدة عبروا فيها عن أنفسهم بمهارة بالغة فى صور للحياة اليومية ، وفى تصوير الأشخاص والموضوعات التاريخية • فكشفوا بذلك عن اتجاهات وميول واضحة نحو الواقعية التى حاكت الأساليب الهلينية • هذا ، فضلا عما استخلصوه من نظريات مشتقة من الرسوم الهندسية الاسلامية • وقال أحد المؤرخين المعروفين المعنيين بالفن البيزنطى أن فترة تحطيم الصور والأيقونات قد شاهدت بذر البذور الفنية التى انتجت محصولا ذهبيا رائعا فى أواخر القرن التاسع وخلال القرن العاشر للميلاد ، بالعودة الى نماذج العصر الكلاسيكى المتأخر • وان استمرار هذا التقليد الحيوى القائم على الاهتمام بثقافة اليونان والرومان القدماء ، والذى تأثر تأثيرا قويا بالمثل العليا الدينية ، قد أمد الحياة الفكرية والفنية فى بيزنطة بنوعية خاصة جعلها تتميز عن حضارة أوروبا الغربية والحضارة الاسلامية •

وهكذا مر عالم البحر المتوسط خلال القرن الممتد من سنة ٧٥٠ م الى سنة ٨٥٠ م بمرحلة جديدة من مراحل تاريخه • وفى سنة ٨٥٠ م كانت الحضارات الثلاث المتميزة قد أرست دعائمها بوسائلها المختلفة بشكل أوضح مما كانت عليه الحال فى سنة ٧٥٠ م • فقد كان التقدم الذى أحرزه الأوروبيون الغربيون سريعا ، وبصفة خاصة فى تنظيم

حياتهم الثقافية والدينية والسياسية • كما أضاف المسلمون إلى قوتهم العسكرية التي أثبتت وجودها ، ثقافة إسلامية متطورة ، مع تحويل عقيدتهم إلى ديانة عالمية حققة • وبالرغم مما اعتري الامبراطورية البيزنطية من ضعف في الداخل من جراء المشاحنات الدينية المستمرة ، فقد دعمت أنظمتها الأساسية ، واحتفظت بشخصيتها في النواحي السياسية والدينية والثقافية • وأما روما القديمة ، فقد حجبها عن الأنظار تقريبا في عام ٨٥٠ م المجتمعات الثلاثة الجديدة التي كانت تحتل فعلا مسرح الأحداث في عالم البحر المتوسط • وقد بدأت تمر بحالات الضغط والتوتر الناتجة عن علاقاتها الجديدة والظروف التي ألمت بها •

الفصل الثالث

الانقسام الداخلى فى الحضارة الجديدة

تفتت العالم الاسلامى :

- التفكك السياسى
- انقوى الموحدة

انتعاش الدولة البيزنطية :

الدولة البيزنطية تستعيد نفوذها السياسى فى عهد الأسرة

- المقدونية
- التطور الدينى
- النهضة الثقافية
- الدولة البيزنطية والعالم السلافى

تجزئة الامبراطورية الكارولنجية :

- نشأة ممالك الغرب الأوروبى
- نحو مجتمع اقطاعى
- الروابط العامة فى مجتمع غرب اوروبا

دخلت منطقة البحر المتوسط حوالى منتصف القرن التاسع الميلادى فى دور ثالث — وهو الأخير فى هذه الدراسة — من أدوار نشأتها وتطورها بعيدا عن وحدة روما القديمة التى انقسمت الى ثلاث حضارات هى : الحضارة الاسلامية ، والحضارة البيزنطية ، وحضارة الغرب الأوروبى . وان الملامح المميزة للقرن الذى بدأ تقريبا بعد عام ٨٥٠ م، لا تختلف عن خصائص الحضارات الثلاث التى كانت قد رسخت وتوطدت بالفعل . فقد استمرت كل منها تنمو وتتطور فى اتجاهها الخاص بها ، مؤكدة بذلك التحرك التاريخى الذى سبق اجماله فى الفصلين السابقين من هذا البحث . فلم يكن ثمة فكاك من النتائج المترتبة على ظهور الاسلام ، او صبغ الغرب بصبغة جرمانية ، أو التغييرات التى طرأت على بيزنطة فى ظل الضغط والمعاناة . وتكمن أهمية السنوات التى تلت عام ٨٥٠ م فى الأحداث التى طرأت على كل من هذه الحضارات الثلاث . فالوحدة التى كانت مظهرا من مظاهر الحضارة البيزنطية لتتمش مع مقتضيات الظروف ، والتى أصبحت تقريبا حقيقة واقعة فى كلا المجتمعين الأوروبى الغربى والاسلامى فى عهد كل من الكارولنجيين الأوائل والعباسيين الأول — قد انهارت وحلت محلها الخلافات . اذ تفككت تدريجيا عرى الروابط الداخلية لكل من هذه الحضارات المختلفة تماما عن بعضها . وتخلفت عنها مجموعات مفككة غير متماسكة من الوحدات السياسية التى ارتبطت معا بروابط ثقافية ودينية . وما تاريخ العصور الوسطى فى معظمه الا سجل للتطور المستمر لأجزاء قائمة بذاتها تكون العالم الاسلامى والامبراطورية البيزنطية والغرب الأوروبى . ومع ذلك ، فقد ظلت روابط الوحدة التى انبثق معظمها قبيل القرن العاشر الميلادى قوية ، بحيث أصبح ضروريا بالنسبة للمؤرخ أن يواصل التفكير فى المصطلحات الخاصة بحضارات الغرب الأوروبى والدولة البيزنطية والعالم الاسلامى .

تفتت العالم الاسلامى

لقد كانت القوة الدافعة للتاريخ الاسلامى خلال القرن الأول من

العصر العباسي (٧٥٠ — ٨٥٠ م) بمثابة شعور عام قوى جاهد مستميتا لخلق وحدة سياسية مع تدعيم الوحدة الدينية وامثال تراث ثقافى مختلف المصادر فى حضارة واحدة • ومع ذلك ، فقد بدأت الشروخ والتشققات فى القرن الذى تلا عام ٨٥٠ م تظهر فى النظام السياسى الاسلامى ، مما أنذر بوضوح بظهور دول مستقلة متنافسة • ولكن بينما كانت هذه القوى المنقسمة المجزأة تعمل عملها فى هذه الناحية فى العالم الاسلامى ، كان ثمة تطورات دينية وثقافية تهدف الى تحقيق درجة من الوحدة كانت لها دلالتها بالنسبة لمستقبل التاريخ الاسلامى • وفى القرن العاشر الميلادى كان الاسلام قد أصبح عالما يتكون من عدة دويلات ، تلك السمة التى ظل يتسم بها ردحا طويلا من الزمن • وكثيرا ما وقفت احداها ضد الأخرى تعارضها معارضة شديدة • ومع ذلك ، فقد وجد الأفراد الذين عاشوا فى أركان القارات الثلاث (اوروبا وآسيا واهريقية) روابط عامة تربط بينهم ، وهى روابط الدين والثقافة •

التفكك السياسى .

أصر خلفاء بغداد بعد أواسط القرن التاسع الميلادى على المطالبة بلقب « أمراء المؤمنين » الذى كان يفخر ويتباهى به يوما العباسيون العظام فى العصر العباسى الأول • ولكن البيروقراطية الشديدة المركزية، والادارة المحلية القادرة ، والنظام المالى السليم ، والتكوين العسكرى القوى ، أخذت كلها فى الانهيار سريعا بعد عام ٨٥٠ م • واعترى الحكومة المركزية فى بغداد الانحلال والفساد • كما قامت أنظمة سياسية مستقلة فى ولايات الخلافة النائية •

وأخذ تماسك الحكومة المركزية ينهار تدريجيا تحت ضغط مؤامرات البلاط والخلافات الدينية وخيانة الحكام المحليين • وفى هذه الظروف أثبت الجيش القائم الذى جند أفراده أساسا من فارس ، عدم كفاءته بعد أن فشل فشلا تاما فى حماية الخلفاء ضد المؤامرات والاغتيالات المتكررة • واضطر المعتصم (٨٣٣ — ٨٤٢ م) ، ثامن خلفاء العباسيين ،

الى ادخال فرقة من الأتراك كحرس للقصر في بغداد ، أملا في زيادة توفير الأمن لشخصه في عاصمته • وهؤلاء الأتراك هم من الآسيويين الرحل الذين كانوا لفترة طويلة من الزمن العدو اللدود للدولة (الاسلامية) على طول حدودها الشمالية الشرقية • وما لبثوا أن أقنعوا الخلفاء بقدرتهم ومهارتهم كمقاتلين • وسرعان ما استطاعوا أن يجعلوا الخلفاء سجناء لهم وألعوبة في أيديهم ، مع أنهم كانوا عبيدا لهم من الوجهة النظرية •

وحاول عدد قليل من الخلفاء في القرن التاسع الميلادي أن يضعوا حداً لنفوذ الترك • فعلى سبيل المثال نجد المعتصم نفسه يذهب الى حد نقل حكومته من بغداد بصفة مؤقتة لتفادي وقوع صدام بين حرسه التركي وأهالي بغداد • ولكن أولئك الخلفاء كانوا لا حول لهم ولا طول أمام أتباعهم الشرهين (الطامعين فيهم) • وتحول تاريخ الخلافة العباسية سريعا حتى أصبح سجلا روتينيا رتيا لثورات القصر التي نتجت عادة عن مؤامرات قام بنسج خيوطها حرس البلاط ، ولكنها كانت غالبا ناتجة ، في أساسها ، من مؤامرات الطامعين من الحریم والخصيان والزوجات والموظفين المرتبطين بالجهاز الحكومي في العاصمة ، وقد استهدف كلهم احلال خليفة بآخر • وفي عام ٩٤٥ م ، قاد أحد القادة الطموحين فعلا فرقته الحربية الى بغداد في محاولة تستهدف أسر الخليفة • ولم تعد « مدينة السلام » الغارقة في الفوضى وأعمال الشغب المتواصلة ، قادرة على القيام بعبء العمل الإداري اللازم لحكم تلك الدولة الكبيرة الشاسعة بشكل حسن • وسرعان ما بدأ القادة العسكريون الناجحون في تسمية أنفسهم بلقب « أمير الأمراء » ، دالين بذلك على تفوقهم الحقيقي على أتباع الخليفة الآخرين • وفي غمرة هذا الفساد الذي حل بالدولة تم ابعاد الخلفاء المغلوبين على أمرهم عن مسرح الأحداث • وشجعوا على التمتع بملذات الحياة ومباهجها التي بلغت درجة خيالية في بلاط بغداد • وفي القرن العاشر الميلادي بدأت الأسر المستقلة في الظهور ، أولا في شمال افريقية ، ثم في اسبانيا ، واتخذ

أربابها لقب الخلافة • وهكذا وجد على مسرح الأحداث ثلاثة من المطالبين بالسلطة • ومع ذلك ، استمر الخلفاء العباسيون يعيشون في الظل سجناء لعناصر عسكرية مختلفة حتى عام ١٢٥٨ م •

وقد عجل بهذا التفكك الذي أصاب الخلافة العباسية تلك الحركات الانفصالية الواسعة الانتشار التي نتج عنها قيام دويلات اسلامية جديدة داخل نطاق هذا الكيان المتداعي • وكانت عمليات التجزئة والتفتت معقدة الى حد أنه لا يمكن التحدث عنها بالتفصيل • ولكن نتائجها كانت واضحة تماما ، وبصفة خاصة في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر للميلاد • فقد أسس أحد ورثة الأمويين دويلة مستقلة في اسبانيا مبكرا في عام ٧٥٦ م ، وقد بلغت درجة من القوة والرخاء أن حاكمها طالب في عام ٩٢٩ م بلقب الخلافة الرفيع • ثم ظهرت دولتان أخريان في شمال افريقية في القرن التاسع الميلادي ، وكان مقرهما تونس ومراكش • وكذلك تأسست دولة أخرى منفصلة في مصر عام ٨٦٨ م على يد حاكم تركي كان قد أرسله خليفة بغداد الى ذلك الاقليم • ثم ظلت مصر بعد ذلك مستقلة ، وغدت أحد المراكز الرئيسية للقوى الاسلامية ، وبصفة خاصة بعد زوال الدولة الفاطمية التي كان بداية ظهورها في شمال افريقية ، وطالبت بلقب الخلافة بدعوى الانحدار من سلالة فاطمة بنت الرسول ﷺ ثم استولت على السلطة عام ٩٦٩ م • وكذلك برزت الى الوجود دويلات أخرى صغيرة في سورية وفلسطين وبلاد العرب ، وقد تفاوتت في مدد بقائها ومدى قوتها • وهكذا أصبحت المنطقة كلها وكأنها أرض لا صاحب لها ، تتصارع عليها آخر الامر القاهرة وبغداد والقسطنطينية واوروبا الغربية • أما في الأجزاء الشرقية من الدولة الاسلامية القديمة ، فقد أدت عدة عوامل الى زيادة تصدعها وتفككها ، من بينها تلك القوى المتزايدة بين الايرانيين والهنود والترك ، فضلا عن شعور متفاقم بعدم الرضاء عن حكم العباسيين • وتمخض عن ذلك عدد من الدويلات الهامة المستقلة • وبذلك لم تعد هناك في القرن العاشر الميلادي دولة اسلامية كبرى ، ووجد

بدلاً منها عشرة أو ثنتا عشرة دويلة متنافسة تتربص كل منها بالأخرى،
وكل واحدة تشق طريقاً خاصاً بها •

وان انحلال سلطة العباسيين وانهيارها ، والانقسام الذى ترتب
على ذلك فى العالم الاسلامى ، قد فتح الطريق للتدخل الأجنبى • ففى
عام ٨٥٠ م بدأ الخط البيانى للمد الاسلامى فى النزول ، وبدأ الاسلام
يعانى من اعتداءات الترك الأجانب فى القرن التاسع الميلادى ، والذين
أصبحوا مسلمين بحكم وجودهم داخل الدولة الاسلامية • كذلك عانى
الاسلام من الامبراطورية البيزنطية فى القرن العاشر الميلادى • ومن
الأوروبيين الغربيين فى القرن الحادى عشر للميلاد (فصاعداً) •

ولكن هذا لايعنى أن عام ٨٥٠ م يحدد نهاية التأثير الاسلامى
فى الحياة السياسية فى منطقة البحر المتوسط بصفة عامة ، وفى غرب
اوروبا على وجه الخصوص • فلقد برزت الممالك المسيحية فى اسبانيا
فى العصور الوسطى نتيجة الحروب المستمرة بين المسلمين والمسيحيين •
وكان لهذا الصراع أبلغ الأثر على معظم أجزاء الغرب الأوروبى • اذ
تأثر التاريخ الايطالى بهجمات المسلمين من تونس على صقلية وجنوب
ايطاليا فى القرن التاسع الميلادى ، كما تأثر بالهجمات المضادة التى قام
بها الايطاليون والنورمان فى القرنين العاشر والحادى عشر للميلاد •
وان احتكاك الأوروبيين المسيحيين بالمسلمين فى صقلية واسبانيا ،
والذى نتج عنه انتقال المؤثرات الثقافية الهامة من العالم الاسلامى الى
الغرب الأوروبى ، لايقل فى أهميته ودلالته عن الدور المبكر المتعلق
بالفتوحات والسيطرة السياسية •

القوى الموحدة

بينما كانت قوى كثيرة متعددة تعمل على تقطيع أوصال العالم
الاسلامى من الناحية السياسية ، كانت روابط الوحدة لا تزال قوية فى

هذا العالم في الناحيتين الثقافية والدينية ، وقد عملتا على سد الثغرات بين أجزائه المنسلخة المتنافسة ، وتعويضها عن هذا التفكك السياسى ، وربطها معا بفضل خبرة الاسلام الفائقة •

ولم يسد الحياة الدينية في الدولة الاسلامية الكبرى سلام تام في الفترة التى تلت عام ٨٥٠ م • فقد وقفت عدة حركات عسكرية انفصالية من المذهب السنى الذى يدين به العباسيون ، موقف التحدى ، وكثيرا ما عمل القادة السياسيون المتمردون على اثارة الخلافات الدينية بهدف ايجاد أسس ممكنة للتخلص من السيادة العباسية • وكانت أشد الجماعات نشاطا ، على وجه الخصوص ، الجماعات الشيعية المختلفة التى أصرت على أن الدين الحنيف قد توارثه عن الرسول (ﷺ) سلسلة من الزعماء الدينيين من سلالة على ابن عم الرسول وصهره (عليه السلام) • وثمة حركات أخرى نادت بالزهد والتقشف كانت واسعة الانتشار ، مثلها مثل الجماعات الشيعية ، وان كانت أقل ميلا منها للتحدى والعنف •

ومع ذلك ، فرغم التسليم بالأثر الذى خلفه الانفصال الدينى ، إلا أنه يجب الاعتراف بأن المعتقدات الدينية العامة كانت لا تزال تلم شمل المسلمين في مجتمع واحد • فقد اشترك السنيون والشيعية والمتزهدون والمتصوفون معا في ارساء مجموعة من القواعد الأساسية المتعلقة بالشرائع والطقوس الدينية • وان تمسك المسلمين جميعا بالقرآن الكريم قد زودهم بمصدر واحد عام يستمدون منه قوانينهم الدينية والسياسية • وتعتبر الصلاة من ورابط الوحدة الدينية للعالم الاسلامى من اسبانيا حتى بلاد الهند ، حيث يسجد المسلمون متجهين نحو مكة المكرمة وهم يؤدون نفس الصلاة الى الله وبلغة واحدة وقد يحدث أن تتحاجى وتتجادل الطوائف المختلفة ، ويترتب على ذلك سفك الدماء بسبب ما أشكل عليهم في أمور العقيدة • ومع ذلك ، فان وجود دين واحد جعل لهم فكرا واحدا وأسلوبا سلوكيا عاما موحدًا •

وخلال الشطر الأخير من القرن التاسع وطوال القرن العاشر

الميلادى ، بذل رجال الفقه والشريعة محاولات هامة للتعريف بطبيعة الاسلام وماهيته . فظهرت فى هذا العصر المجموعات الرسمية الكبرى متضمنة أقوال الرسول (ﷺ) وتفسير القرآن . كما جمعت القوانين والشرائع الاسلامية ، واشتملت على بحوث فى الفقه والشريعة اعتبرت أساسا للدين الاسلامى . ويرجع الفضل فى الجهود التى بذلت فى سبيل التعريف بالدين الحنيف الى أشخاص من جميع الدول . فقد ضم رجال العلم من كافة أرجاء العالم الاسلامى الذين كانت مؤلفاتهم منتشرة متداولة أينما وجد المسلمون المؤمنون بالله ورسوله (ﷺ) .

وكانت الرابطة الثقافية فى العالم الاسلامى هى العامل القوى الثانى من عوامل الوحدة . فقد كانت تمثل فى القرون التاسع والعاشر والحادى عشر الميلادية أحد المظاهر الكبرى فى تاريخ العالم الثقافى . وحسبما ذكرنا آنفا ، فإن ترجمة الآداب والعلوم اليونانية والفارسية والهندية الى اللغة العربية ، زودت طلاب العلم المسلمين خلال العصر العباسى الأول ، ب ذخيرة واسعة من المعرفة . فبدأوا حوالى عام ٨٥٠م فحص هذا الينبوع من الحكمة والمعلومات والمعارف التى كانت تتعارض مع تعاليم دينهم . وسرعان ما اتجه المسلمون نحو صهر هذه المادة المتشعبة فى شكل موسوعات ودوائر معارف الهدف منها تلخيص المعرفة فى كل الميادين والمجالات . ومع العمل المستمر الدائب ، كثيرا ما وجد رجال العلم المسلمين أنفسهم يجابهون مشكلات لم يستطيعوا حلها الا باستنتاجات توصلوا هم اليها تتميز بالجدة والآصال . وبذلك تحول نشاطهم من عملية النقل والجمع الى نشاط مبدع خلاق . وانتشرت نتائج هذه الدراسات المتعلقة بالتراث القديم فى كل أنحاء العالم الاسلامى ، وتعدت الحواجز السياسية ، وربطت الطبقات المثقفة فى كل مكان بأحدث معرفة أمكن الحصول عليها فى ذلك العالم المعاصر .

لقد كانت دائرة الدراسات الاسلامية خلال هذا العصر هائلة متسعة . وكان أول ما يسترعى الانتباه هو الفقه والشريعة . ومع ذلك،

كانت مجالات الدراسة الأخرى نشطة للغاية • ففى ميدان العلوم الطبيعية ابتكر رجال العلم المسلمين ، الذين اعتمدوا على مجموعاتهم وموسوعاتهم التى ضمت المعرفة القديمة ، كتباً علمية مختصرة تفضل غيرها من الكتب فى أى بقعة أخرى فى العالم المعاصر لهم • ومن الممكن أن نكتشف فى هذه المؤلفات أصول معرفتنا العلمية الحديثة • فقد تفوق المسلمون ، بصفة خاصة ، فى الطب ، حيث أضافوا الى المعارف التى استقوها من المجتمعات السابقة اكتشافاتهم الجديدة فى هذا الميدان • فكانت المؤلفات العظيمة بكل من الرازى (٨٦٥ — ٩٢٥ م) وابن سينا (٩٨٠ — ١٠٣٧) — اللذين يعرفان فى الغرب الأوروبى تحت اسمى Rhazes و Avicenna — بالنسبة لكل منهما انتاجاً نموذجياً يتمثل فيه امتزاج المعرفة القديمة بالخبرة العملية المعاصرة • وقد ترجمت مقالة ابن سينا العظيمة فى الطب الى اللغة اللاتينية فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى • وظلت المصدر الأساسى عن هذا الموضوع فى الغرب حتى بواكير العصر الحديث • وطبقت المعرفة الطبية تطبيقاً عملياً فى كثير من المستشفيات التى أقيمت تقريباً فى كل مدينة اسلامية هامة ، حيث اختبرت كفاءة الأطباء فى بعض المدن بعناية قبل التصريح لهم بممارسة المهنة عملياً • كذلك أعد العلماء المسلمون فى ميادين الفلك والكيمياء مؤلفات ضخمة تضم المعرفة السابقة فى قالب حديث ، بعد اضافة ملاحظاتهم وتجاربهم الخاصة اليها • وكان طالب العلم المسلم النموذجى الذى يدرس هذه العلوم ، يربط عادة بين علم التجيم وعلم الكيمياء القديمين بدراساته العلمية الجادة الأصيلة • ولعدة قرون وجد المهتمون بالأسرار الخفية والسحر فى الكتب العلمية الاسلامية حصيلة وافرة من المادة • ونتيجة لسهولة الترحال فى العالم الاسلامى ، أصبح بوسع الجغرافيين أن يصفوا ، بكل دقة ، الأرض ومظاهرها الطبيعية وصفاً فاق كل ما عرف عنها من قبل • كما أحرز علماء الرياضيات تقدماً ملحوظاً له قيمته ، بسبب الفرصة الفريدة التى سنحت لهم للربط بين علم الرياضة فى كل من اليونان والهند ، كأساس لعلوم الرياضيات عندهم • فكان الجبر الذى اخترعه الخوارزمى فى القرن التاسع الميلادى هو النتاج

الرئيسى لعلماء الرياضيات المسلمين ، فـضـيـلا عن النـظـام العـددى العربى . وقد وصلت تلك الابتكارات الى مرتبة الكمال والتمام فى ثبات ورسوخ فى القرون التالية ، الى أن انتقلت الى الغرب فى النهاية لتكون أساسا لعلوم الرياضيات الحديثة .

ومع أن طلبة العصر الحديث قد يبهرهم ما حققه المسلمون من منجزات فى مجال العلوم ، الا أنه يجب ألا يفوتهم الدور الذى قام به الفلاسفة المسلمون وأهميته بالنسبة للتطور الذى أصاب الدراسات الفلسفية بعد ذلك . فقد استهوى كثير من علماء العرب المذهب العقلى اليونانى القائل بتحكيم العقل فى كل شىء ، وبخاصة ما نادى به ارسطو . هذا ، بينما وجد خريق آخر من العلماء ، ومعظمهم من الفقهاء الذين مالوا الى الزهد أكثر من مناداتهم بالمذهب العقلى ، ووجدوا فى الأفلاطونية الجديدة مصدرا هاما لتأملاتهم . وسرعان ما ترجموا هذه المؤلفات وغيرها من كتب الفلاسفة اليونان القدامى الى اللغة العربية . وتعدى كبار الفلاسفة المسلمين مجرد الترجمة ، وسعوا ليس فقط للتوفيق بين الآراء الأفلاطونية والأرسطالية ، وانما للتوفيق بينها وبين الفقه الإسلامى . وكان هذا عملا شاقا يتطلب من الفيلسوف أن يجد أساسا عاما بين المعتقدات الواضحة للدين الإسلامى وبين الأفكار المنطقية المجردة والمعقدة التى تضمنتها الفلسفة اليونانية دون القضاء على رأى منها . وقد بلغت جهود ما يمكن أن نطلق عليه الفلسفة المدرسية الإسلامية ذروتها فى المؤلفات الكبرى لابن سينا الذى سبق الإشارة اليه ، والغزالى (١٠٥٨ - ١١١١ م) ، وكذلك ابن رشد (١١٢٦ - ١١٩٨ م) ذلك المسلم الاسباني المعروف فى الغرب باسم Averroës . وترك هؤلاء الفلاسفة أثرا بالغاً على الفلاسفة اللاهوتيين لليهود والمسيحيين الذين كانوا هم أيضا يحاولون التوفيق بين معتقداتهم الدينية والفلسفة اليونانية . وبسبب ما أسهم به الفلاسفة المسلمون ، الى جانب تأثيرهم على الآخرين ، احتلوا مكانة هامة فى تاريخ الفلسفة .

ان مجموعة الكتب التي قام بتأليفها الفقهاء والمحامون والعلماء والفلاسفة المسلمون ، بالإضافة الى عدد غير قليل من الشعراء والقصاصين والمؤرخين ، والتي لم تتعرض لها هذه الدراسة بسبب ضيق المكان ، أوجدت معينا من المعرفة أسهم في جمع أولئك الذين يعيشون في أماكن متباعدة جغرافيا في مجتمع ثقافي واحد . وقد نبع هذا الفيض الهائل من المعرفة من مصادر قديمة متعددة استطاع رجال العلم المسلمين أن يصيغوها في قالب جديد طبقا لمعتقدات الدين الاسلامي . وقد أمكن لهذه المعرفة ، في صورتها الجديدة ، أن تصبح عامة بحيث يستفيد منها جميع المفكرين المسلمين . كما بررت مطالبتهم بالوقوف على قدم المساواة من الناحية الثقافية ، مع بقية العالم ، وربما تفوقوا عليه . وكان واضحا للعيان ذلك النشاط والالمام الواعي والخلق الذي تميزت به الثقافة الاسلامية في القرون التاسع والعاشر والحادي عشر الميلادية . وزاده وضوحا وجود دين واحد أصبح الأساس الدائم المتين للحضارة الاسلامية .

وكانت هذه المحصلة الثقافية ذات أهمية خاصة بالنسبة للدارس في تاريخ اوربا بسبب تأثيرها القوي في سبيل احياء الحياة الثقافية في الغرب . وقد أخذ طلاب العلم الغربيون منذ أواخر القرن الحادي عشر وخلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد يستخلصون لأنفسهم قدرا كبيرا من المعرفة الاسلامية في الناحيتين العلمية والفلسفية ، وأضافوها الى ذخيرة ثقافتهم الهزيلة المتبقية التي كانوا قد استمدوها أساسا من المصادر اللاتينية (القديمة) . لقد كان تأثير العلوم الاسلامية على اوربا قويا لدرجة أن المؤرخين يرون أنها أسهمت في قيام « نهضة القرن الثاني عشر » . وليس هنا مجال متابعة هذا الموضوع ، وان كان يجب تذكير القارئ بأن أهمية التاريخ الاسلامي الثقافي خلال القرنين التاسع والعاشر ، وما يعنيه من دلالات بالغة ، تكمن ليس فقط في دوره كدافع للوحدة داخل نطاق العالم الاسلامي ،

بل أيضا في دوره كقوة حضارية امتد أثرها وتأثيرها الى ما وراء الحدود
الاسلامية .

انتعاش الدولة البيزنطية

ان كانت الامبراطورية البيزنطية قد انكمش حجمها واهترت
كرامتها فيما مضى ، الا أنها بدأت حوالى عام ٨٥٠ م تستمع بمولد
جديد لقوتها السياسية وتماسكها الدينى وحيويتها الثقافية . وبذلك
بات من المؤكد قيامها بدور بارز في تاريخ البحر المتوسط لعدة قرون
تالية ، وامتداد نفوذها داخل قسم كبير من العالم السلافى . وبدأ
السلاف البدائيون ينهلون من نهل الدولة البيزنطية الحيوى ، وبخاصة
في أمور الدين والثقافة ، ولو أنهم نجحوا في الاحتفاظ بشخصيتهم
وذاتهم من الوجهة السياسية والجنسية . وبذلك احتوت دائرة النفوذ
البيزنطى هذا العنصر المتنوع في اطار الوحدة التى تميزت بها حضارة
البحر المتوسط في أواخر القرن التاسع وخلال القرن العاشر الميلادى .

الدولة البيزنطية تستعيد نفوذها السياسى في عهد الأسرة المقدونية

أصدرت الحكومة البيزنطية ، حسبما أسلفنا ، مرسوما باعادة
الصور والأيقونات في الخدمات الدينية . وبذلك وضعت نهاية للنزاع
اللاأيقونى الذى أشاع الفرقة والانقسام في الامبراطورية فترة غير
قصيرة من الزمن . ونتج عن استعادة بيزنطة لتوازنها السياسى
الذى أعقب ذلك مباشرة ، واستمر طوال القرن العاشر وبواكير القرن
الحادى عشر الميلادى ، نهضة كبيرة كان من شأنها قيام العصر الذهبى
للقوة البيزنطية . وكان أولئك الذين أرسوا بنائها السياسى القوى هم
حكام الأسرة المقدونية التى تقلدت زمام السلطة عام ٨٦٧ م ، والبنى
ضمت عددا من الأباطرة العظام الذين برزت شهرتهم في التاريخ
البيزنطى .

كرس أول امبراطورين من هذه الأسرة وهما بازيل الأول (٨٦٧ —

٨٨٦ م) وايو السادس (٨٨٦ - ٩١٢ م) ، جهودهما الكبرى لاعادة تجديد وتقوية البنيان الداخلى للمجتمع البيزنطى • وقلما نجد رجلين مثلهما اختلف كل منهما عن الآخر اختلافا تاما • ومع أن بازيل من أصل ريفى ، الا أنه ترك بيته فى مقدونية واتجه الى القسطنطينية وهو لا يزال فى سن الرجولة • وفى العاصمة الكبيرة استرعت قوته البدنية الهائلة ومهارته فى ترويض الخيل ، انتباه الامبراطور ميخائيل الثالث • وانتهت العلاقة الوثيقة التى توطدت بين الاثنين ، والتى قوت من أوامرهما جلسات اللهو والمرح المستمرة ، فجأة وبشكل قاس عندما أجهز بازيل على ميخائيل عام ٨٦٧ م ، واستولى على أعنة الحكم • وكان يهمل الصفوة المستازة من المفكرين فى المدينة •

ورغم التناقض الواضح بين هاتين الشخصيتين ، فقد عمل كل من بازيل الأول وليو السادس بكل همة ونشاط لتحقيق هدف واحد هو اعادة بناء نظام سياسى قوى • ونتج عن جهودهما فى هذا السبيل مجموعة هائلة من التشريعات ، أهمها التعريف الجديد لمفهوم الحاكم الأوحد المستبد والمختار من قبل الله • وبلغت هذه التشريعات ذروتها عندما أصدر ليو السادس قانون البازيليكا Basilica • وهو عبارة عن مجموعة من القوانين مدونة باللغة اليونانية ، واستمدت كثيرا مما جاء فى مجموعة قوانين جستنيان اللاتينية التى كان قد عفا عليها الزمن ، وتم تعديلها لتتمشى مع الاصلاحات القانونية التى قام بها ليو الثالث فى القرن الثامن الميلادى • وبإضافة العديد من القوانين الفردية والكتب التفسيرية ، أصبحت هذه المجموعة التشريعية دستورا مناسباً لأكثر النظم الحكومية التى ظهرت حتى ذلك الوقت فعالية وكفاية • وبذلك بلغت الدولة البيزنطية ، بفضل الحق الإلهى ، فى عهد المقدونيين أوج مجدها •

وان كانت تشريعات المقدونيين الأوائل قد عرفت مفهوم الحكم الاستبدادى ، فقد وضعه حكام هذه الأسرة موضع التنفيذ • فمنذ

عهد بازيل الأول وحتى حكم بازيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) ، كانت الحكومة البيزنطية نموذجا يحتذى فى كفاءتها الممتازة . فكان الأباطرة هم صورا حية للدولة . ومع أن بازيل الثانى كان بلا منازع أبرزهم جميعا ، الا أنه كان من أوجه كثيرة نموذجا للأسرة المقدونية من أولها الى آخرها . فقد قال عنه أحد المعاصرين له « انه لم يحكم طبقا للقوانين المكتوبة ، بل طبقا لقانون غير مدون هو من وحيه الخاص » . ولما كان بازيل الثانى رجلا يتمتع بطاقة هائلة وذكاء وطموح ، فقد أمضى فترة حكمه كلها فى نشاط دائم مكرسا جهوده الشخصية للشئون العسكرية والمالية والسياسية للامبراطورية . وكان البلاط الامبراطورى فى القسطنطينية يتكون من جهاز ضخم من الخبراء المدربين الذين حددت مراتبهم وواجباتهم ورواتبهم بتفصيل وتدقيق . وان نظام الرقابة الصارم الذى فرضته تلك البيروقراطية على التجارة والصناعة والزراعة البيزنطية ، قد ضمن الموارد المالية اللازمة ، وكذلك المواد الخام الضرورية ، وجعل الامبراطورية تنعم باستقرار اجتماعى ورخاء اقتصادى . وتم اصلاح نظام الثيمات الذى استمر يؤدى دوره كوسيلة فعالة للإدارة المحلية والتجنيد العسكرى . ولم يمتد تأثير دبلوماسية بيزنطة البارعة الى ماوراء حدودها فحسب ، بل أصبحت هذه الدبلوماسية نموذجا يحتذى فى جميع أنحاء العالم المتحضر . كما تضاعفت أهمية قوتها العسكرية والبحرية فى البحر المتوسط وفى شرق اوروبا . ولكن الحكومة البيزنطية التى دبت فيها الحياة من جديد ، لم تسلم بطبيعة الحال من التهديد من حين لآخر بسبب مؤامرات البلاط والثورات العسكرية والقتال التى أثارها الشعب . وكان أشدها خطرا ملاك الأرض الطموحين الذين ينتمون الى الطبقة الأرستقراطية ، والذين كافحوا دون هوادة فى سبيل حرمان الفلاحين من أراضيهم ، وتكوين اقطاعيات أكبر ، وتحدى الحكومة المركزية والاستهانة بها . ومع ذلك ، فقد كان جهاز العمل فى الأسرة المقدونية ، بلا منازع ، يمثل أقوى حكومة فى منطقة البحر المتوسط كلها خلال القرنين التاسع والعاشر

وبداية القرن الحادى عشر للميلاد ، كما يعتبر من أنجح نماذج الحكم المطلق فى التاريخ بأسره .

وقد أدى اعادة التنظيم الداخلى الى احياء النفوذ البيزنطى فى مجال الشئون الدولية . ففى نهاية العصر اللأيقونى كان مركز بيزنطة الدبلوماسية والعسكرى غير مستقر على الاطلاق ، واستمر على هذه الحال أثناء حكم المقدونيين الأوائل . فكان المسلمون لا يزالون يمارسون ضغطا خطيرا على صقلية وايطاليا البيزنطية وآسيا الصغرى . كما أن ظهور الروس واغاراتهم على أسوار القسطنطينية عام ٨٦٠ م قد شكل تهديدا من اتجاه جديد . ولكن البلغار كانوا يمثلون الخطر الداهم ، وكرست الموارد البيزنطية أساسا لمواجهة هجماتهم (ودفعها عن البلاد) . وبلغ الضغط البلغارى ذروته أثناء حكم الملك سميون (٨٩٣ — ٩١٧ م) . وان الجهود المستميتة التى بذلها هذا الملك المقتدر فى سبيل انشاء امبراطورية بلغارية تقف الند للند أمام الامبراطورية البيزنطية ، قد قللت بشكل فعال من النفوذ البيزنطى فى البلقان ، وأجبرت الحكومة الامبراطورية على الخضوع للحاكم البلغارى والاذعان لمطالبه .

ومع ذلك ، ففى الربع الثانى من القرن العاشر الميلادى ، كانت بيزنطة مستعدة للقيام بهجوم مضاد . ففى منطقة البلقان دفعت الدبلوماسية البيزنطية ومشاكل بلغاريا الداخلية الدولة البلغارية الى اتخاذ موقف الحياد فى بداية الأمر . وأثناء قيام بيزنطة بعملية تفتيت قوى البلغار وعزلهم ، استطاعت أن تكون شبكة معقدة من العلاقات السياسية مع الامارات السلافية فى كل من البلقان وروسيا ، وأيضا مع الجماعات المقاتلة المتنقلة كالهغار والبتشنج والخزر . وبعد أن تمكنت بيزنطة من حفظ السلام فى البلقان بفضل دبلوماسيتها ، شنت هجوما عسكريا كبيرا ضد الدولة الاسلامية المفككة . واستطاعت سلسلة من الحملات الصليبية أثناء حكم اثنين من الأباطرة العسكريين هما نقفور فوكاس (٩٦٣ — ٩٦٩ م) ويوحنا تريمسكس (٩٦٩ — ٩٧٦ م) ،

ارساء دعائم النفوذ البيزنطى ، مرة أخرى ، فى شمال سورية وأرمينية . كما استطاع الاسطول البيزنطى ، فى نفس الوقت تقريبا ، بعد أن دبت فيه الحياة من جديد ، استعادة جزيرة كريت وقبرص . وبذلك عاد النفوذ البيزنطى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط الى سابق عهده .

وبعد أن أجبرت الحكومة البيزنطية المسلمين على التراجع شرقا ، أصبح لها مطلق الحرية فى القضاء على التهديد البلغارى . وكانت قد استطاعت من قبل خلال القرن العاشر الميلادى أن تجر المملكة البلغارية بدهاء للدخول فى فلكها نتيجة النفوذ الدينى والثقافى . وأخيرا عمل الامبراطور بازيل الثانى الذى أثاره تدخل البلغار فى الشئون البيزنطية ، على تسوية الحساب معهم بغزو مملكتهم وضمها الى الامبراطورية البيزنطية باعتبارها ولاية من ولاياتها . وان حملاته النشطة التى أكسبته لقب « ذابح البلغار » ، لم تؤد فقط الى ازالة عدو قديم ، بل أكدت أيضا السيادة البيزنطية على السكان السلاف فى معظم شبه جزيرة البلقان وفى مساحة شاسعة تمتد نحو الشمال والشرق عبر أواسط أوروبا الى داخل روسيا . وفى نفس هذا الوقت حاولت الامبراطورية البيزنطية الاحتفاظ بقدم راسخة فى الجنوب الايطالى ، ولو أن جهودها العسكرية والدبلوماسية الكبرى كانت موجهة الى الشرق والشمال .

وهكذا ، ففى الوقت الذى بلغت فيه الأسرة المقدونية ذروة قوتها فى عهد بازيل الثانى ، استعادت الدولة البيزنطية مكانتها فى قمة العالم . وفاقته أعمال بازيل الثانى ما حققه أى امبراطور سابق منذ عهد جستنيان . ثم زادت رقعة الامبراطورية زيادة كبيرة باستعادة شمال سورية وأرمينية وبلغاريا وكريت وقبرص . وأصبحت بيزنطة تعتمد على حكومة قومية ، يدعمها رخاء اقتصادى ونظام اجتماعى ثابت ومستقر . وهكذا قدر لها أن تعمر لفترة طويلة تالية ، على الأقل من الناحية السياسية .

التطور الديني

ان القرار الذى اتخذ بشأن النزاع اللائقونى لم يؤد الى نهضة سياسية فحسب ، بل فتح أيضا صفحة جديدة لنهضة دينية سرت فى أوصال الكنيسة البيزنطية . وترتبت على هذه النهضة ثلاثة تطورات تسترعى الانتباه هى : اتساع هوة الشقاق بين بطاركة القسطنطينية وبابوات روما ، ذلك الشقاق الذى كان نذيرا بالقطيعة الدينية النهائية بين الكنيستين الشرقية والغربية . أما التطور الثانى فهو التكييف المستمر للمظاهر المميزة للفكر والممارسة الدينية اللذين أبعدا الكنيسة البيزنطية عن الطوائف المسيحية الأخرى . وأخيرا تلك الجهود المتحمسة التى بذلها الكنيسة البيزنطية من أجل زيادة قوة الحكومة فى البلاد ، وبخاصة فيما يتعلق بمدى فعاليتها وتأثيرها خارج نطاق الامبراطورية .

لقد بدا أن الصدام بين روما والقسطنطينية الذى تولد عن النزاع اللائقونى قد انتهى باعادة استخدام الصور والأيقونات . ومع أن الامبراطورة تيودورا لم تأخذ رأى البابوية بهذا الخصوص ، الا أن النظام الامبراطورى فى عام ٨٤٣ م عزز مركز البابوية . وهكذا ، قبضت ، مرة أخرى ، على زمام الحكم هيئة تهتم بايجاد سلام مع روما . وكانت الآمال بالوفاق واتحاد الكنيستين قد بدت بראהة رائعة فى أواسط القرن التاسع الميلادى . ولكن بعد ذلك بفترة وجيزة سرعان ما أدت مشاحنات جديدة مريرة الى ابتعاد الكنيستين عن بعضهما ، وازدياد الهوة بينهما عمقا واتساعا .

لقد خلف الصراع اللائقونى داخل الكنيسة البيزنطية نفسها حركة مثقلة بالفرقة والشقاق . وثمة فئة من الكهنة والرهبان نذرت نفسها للقضاء على كل آثار الحركة اللائقونية ، مع العمل بهمة أكبر للاستقلال الدينى عن الحكومة الامبراطورية . وقد ناضلت ضد كل من نادى بالاعتدال وسعى للتوفيق بين هذه الآراء الدينية المتعارضة مع التعلون

مع السلطات المدنية من أجل وحدة المجتمع البيزنطى • وقد أثار المتطرفون ، الذين كانوا مستائين من البطارقة المعتدلين الذين اختارهم الأباطرة البيزنطيون ، تدخل روما المتكرر • وعندما وجد البابوات أنفسهم فى المعضلة ، برروا موقفهم الذى لم يكن هناك مناص منه ، على أساس أن لهم السلطة العليا فى الكنيسة العالمية • ولم تنتكر الحكومة البيزنطية وغالبية رجال الدين لهذا المطلب ، ولكنهم رفضوا تطبيقه عندما تعارضت القرارات الخاصة به مع مصالح الدولة البيزنطية وكنيستها •

وفى عام ٨٥٨ م تخرج الموقف عندما خلع البطريرك اجناتىوس Ignatius وحل محله فوتيوس Photius ، وهو علمانى مثقف مدنى كفاء • والتجأ كل من فوتيوس والحكومة البيزنطية الى روما ملتجئين الموافقة على هذا التغيير ومباركته • وكان البابا آنذاك هو نيقولا الأول الذى تمسك بوجهة نظر متشددة فيما يتعلق بسلطة البابوية ، والذى كان يتلهف بشدة الى تأكيد سلطته كلما كان ذلك ممكنا • وفعلا بعد مفاوضات مستفيضة رفض فى النهاية اقرار انتخاب فوتيوس وأصدر قرار الحرمان ضد البطريرك • وغنى عن القول ان الحكومة البيزنطية لم تقبل هذا القرار ، كما رفضه فوتيوس نفسه •

وان ادانة البابا نيقولا للبطريرك فوتيوس قد أملاها عليه موضوع خلاق جديد يتميز بأهميته البالغة بالنسبة لكل من روما والقسطنطينية • فبعد عام ٨٦٠ م بوقت قصير تطورت إمكانية العمل التبشيري الهام فجأة فى مورافيا وبلغاريا ، وكانت كل منهما تدخل فى نطاق ولاية ايليريا التابعة لسلطة الكنيسة الرومانية ، الى أن استولى عليها ليو الثالث عام ٧٣٢ م • وكان نيقولا تحدوه الآمال الكبار فى تنصير المورافيين والبلغار وادخالهم فى حظيرة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، مدفوعا فى ذلك بنظرية سيادة روما العالمية ، ولو أنه كان واضحا أن الحكومة البيزنطية لن ترضى بمثل هذا التطور أن يحدث بين أشد

أعدائها خطرا عليها • ورأت أنه اذا استطاع المبشرون البيزنطيون تنصير المورافيين ، فسيكون للقسطنطينية حليف هام يقف في ظهر البلغار الذين يهددونهم • واذا نجحوا في تحويل البلغار الى المسيحية (الأرثوذكسية) ، أمكن وضع أساس طيب لعلاقات أكثر سلما وهدوءا بين تلك المملكة الخطيرة وبين الامبراطورية البيزنطية • وفيما يتعلق بهذه المسألة الحيوية ، تحرك فوتيوس ذو البصيرة الثاقبة بسرعة ، وشكل فرقا تبشيرية فيما بين عامي ٨٦١ و ٨٦٤ م تعمل في كل من مورافيا وبلغاريا • وكان النجاح الذي أحرزه (في هذا السبيل) سببا في ازدياد عداوة روما عمقا وحدة •

ومع ذلك ، لم يكن النصر الذي أحرزته بيزنطة في مجال العمل التبشيري تاما • فسرعان ما وجد المبشرون البيزنطيون في مورافيا أنفسهم أمام منافسيهم الجرمان الذين سعوا للحصول على مساعدة البابوية • والتجأ الملك البلغاري بوريس الذي تعمد عام ٨٦٤ م على يد كهنة بيزنطيين الى روما أملا في كسب موافقة البابوية على انشاء بطريركية بلغارية منفصلة (عن بيزنطة) • وبذل نيقولا قصارى جهده لاستغلال هذه الالتماسات • هذا ، بينما ناضل فوتيوس خوفا على ضياع المصالح البيزنطية • وفي الوقت الذي اتسعت فيه الحركة المحتدمة (بين روما والقسطنطينية) ، بدأ البلغار يستغلون بشدة الخلافات العقائدية بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية ، وكل فريق يحاول اقناع المتصرين الجدد أن معارضتهم ليسوا على صواب وأنهم هراطقة في عقيدتهم وطقوسهم •

وفي عام ٨٦٧ م قامت ثورة (في بيزنطة) أدت الى خلع فوتيوس واعلان بازيل الأول امبراطورا • ومات نيقولا الأول بعد ذلك بوقت قصير • وبذل بازيل والبطريارك الجديد اجناتئوس الذي سبق الإشارة اليه ، جهدا كبيرا لتسوية النزاع مع روما ، بهدف تعزيز أقدام الأسرة الجديدة • ووافقت البابوية على إعادة اجناتئوس الى منصبه ، وانتزعت

من البيزنطيين الساخطين اعترافا بحق روما في الفصل النهائي في أمر النزاع القائم في الكنيسة البيزنطية . ولكن هذا النصر كانت تشويبه المرارة بسبب ما بدا من ارتداد بلغاريا طواعية الى عقيدة القسطنطينية . فانتهز البيزنطيون هذه الفرصة وسمحوا للبلغار بأن تكون لهم وظيفة رئيس أساقفة مستقلة بهم ، وبذلك زاد النفوذ الديني البيزنطي ، بينما تضاعلت فرص بابوية روما في بلغاريا . وحاولت البابوية في السنوات التالية أن تستعيد نفوذها في بلغاريا ، وحانت فرصتها عندما مات اجناطيوس عام ٨٧٧ م . وأعاد بازيل الأول فوتيوس الى كرسي البابوية ، وسعى للحصول على موافقة روما من أجل تقليد رجل سبق أن صدر ضده قرار الحرمان الكنسي من قبل كل من بازيل والبابا .

ومع ذلك ، فقد كان البابا يوحنا الثامن راغبا في التفاوض في هذا الأمر . فانعقد مجلس هام في القسطنطينية خلال عامي ٨٧٩ — ٨٨٠ م أسفر عن موافقة أعضائه على حسم الخلاف والتراضى . وتم الاعتراف بفوتيوس كبطريرك شرعى ، بينما عادت بلغاريا الى حظيرة الكنيسة الرومانية . وكان هذا الوفاق علامة على عودة السلام بين روما والقسطنطينية التي عانت الشيء الكثير لسنوات عديدة طويلة . واحترام البيزنطيون مطالبة روما بالسلطة الكنسية العليا ، وذلك بالسماح للبابوية بأن يكون لها دور هام في اتخاذ قرار بشأن صلاحية فوتيوس لمنصب البطريركية ، كما أرضوا مطالب روما في بلغاريا . وفي مقابل ذلك نجحت الكنيسة البيزنطية في الحصول على اعتراف صريح بشرعية بطريركية فوتيوس القدير . وقد أدت فترة رئاسته الثانية الى تقوية الصرح الداخلى للكنيسة البيزنطية ورفع شأنها .

وفي الواقع أفاد البيزنطيون فائدة كبرى من هذه التسوية . فعلى الرغم من اعترافهم بسيادة روما ، الا أن الصراع الطويل أثبت مقدرة الحكومة الامبراطورية (في بيزنطة) على اختيار بطاركتها وفقا لمشيئتها . كما لم تعد البابوية (في روما) تعتمد على نفوذ الكنيسة البيزنطية

للضغط والتأثير الكاملين على الحكومة الامبراطورية وموظفيها الدينيين . واستطاعت الحكومة البيزنطية وكنيستها عن طريق السياسة الحاذقة ، فضلا عن لباقتها ومهارتها في اثارة مشاعر الجماهير ، ابطال اشراف روما على الشئون الدينية في بيزنطة . هذا ، على الرغم من الاعتراف بسيادة روما من حيث المبدأ كما أن عودة بلغاريا الى العقيدة الرومانية لم يكلف البيزنطيين شيئا ، لأن البلغار رفضوا قبول توجيه روما لهم . وربما أدرك بازيل الأول وفوتئوس أن البلغار كانوا يميلون بشدة الى العقيدة والثقافة البيزنطية ، حتى أن فرصة تقبلهم لسيادة روما كانت ضيئلة . وعلى أية حال ، غقد تطورت الكنيسة البلغارية بعد عام ٨٨٠م ، وازداد ارتباطها قوة وتوثقا مع القسطنطينية على حساب روما . ويرجع هذا ، الى حد بعيد ، الى فوتئوس الذى ساعد على انماء وتطوير سياسة مبنية على مصالحه محترمة مع روما ، الى جانب استغلاله المنسق لكل فرصة ترفع من مكانة التنظيم الداخلى للكنيسة البيزنطية وتعمل على تعزيزه وتقويته . وان النجاح الملحوظ لسياسته تلك ، قد يفسر الاساءة البالغة التى وجهها قادة الكنيسة الغربية لهذا البطريرك العظيم في السنوات الأخيرة .

وهكذا ، بدأت باتفاقية عام ٨٨٠ م فترة ممتدة من السلام النسبى بين روما والقسطنطينية . ولم يكن باستطاعة البابوية ، بعد أن انغمست بشدة في شئون ايطاليا السياسية ، وبعد أن أضعفتها اللامركزية الاقطاعية التى تغلغت في الحياة الكهنوتية في الغرب ، أن تتدخل في الشئون البيزنطية . وعندما كانت العناصر الغاضبة المستاءة في بيزنطة تسعى للحصول على مساعدة البابوية من حين لآخر ، كان بوسع الأباطرة والبطاركة عادة منع التدخل الفعال دون اثارة سخط البابوية وثورتها . ولم تستطع النزاعات التى قامت بسبب الخلافات العقائدية العنيفة ، تحدى سلطة البطاركة . وان تسرب النفوذ الدينى البيزنطى بين السلاف في البلقان ووسط اوروبا والروسيا ، قد طبعها بطابع لا يمحى ، مما شجع السلاف المسيحيين على الاتجاه صوب الأديرة البيزنطية ، وبصفة

خاصة تلك الجماعات العديدة التي كانت تعيش فوق جبل آثوس Athos لتعلم الدين والآداب على أيدي المعلمين البيزنطيين • كذلك أدت الانتصارات العسكرية التي أحرزها الأباطرة في الشرق الى عودة الصلات القوية النشطة بين بطريارك القسطنطينية وبطاركة الشرق • وترتب على كل تلك التطورات أن ازدادت مكانة الكنيسة البيزنطية وبطاركتها ، وتأصل استقلالها • كما قوى الاحساس بزعامتها بين من اعتنقوا المسيحية من السلاف ، وبين المسيحيين « المحررين » في الشرق •

وعلى أية حال ، فقد أدت الظروف المتغيرة مع بداية القرن الحادى عشر الميلادى ، مرة أخرى ، الى تصاعد العداء بين روما والقسطنطينية ، والذي تسبب آخر الأمر فى حدوث القطيعة الدينية التى لا تزال قائمة حتى وقتنا هذا • ومع أن قصة الانفصال النهائى تخرج عن نطاق هذه الدراسة ، الا أنه جدير بالذكر تماما أن احياء الكنيسة البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية ، أدى بشكل فعال الى الانقسام النهائى • فقد اعتاد البطاركة البيزنطيون على الاستقلال بكنيستهم • ، وعلى التمتع بمكانة مرموقة والقيام بدور قيادى • لقد أدركوا أنهم ليسوا بحاجة الى احناء رؤسهم أمام مطالب البابوات الذين أصرروا على تأكيد سيادتهم • ، وبصفة خاصة أثناء حركة الاصلاح الكبرى فى القرن الحادى عشر الميلادى ، والذين اشتدوا فى ادانة الطقوس والتعاليم الدينية البيزنطية •

لقد أدى انتعاش الكنيسة البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية الى ترايد الاختلافات وتباينها بين العقائد والطقوس فى الكنيستين الشرقية والغربية • كما ميز بداية طور ثان فى هذا التطور • اذ عمل الأباطرة وبطاركتهم المقتدرون على تحديد الطقوس الكنسية ، وشجعوا على 'تنقية' الدين من الشوائب العالقة به داخل نطاق امبراطوريتهم • وان المشاحنات التى قامت بين الكنيستين الرومانية والبيزنطية ، التى تفاقمت أثناء القطيعة الدينية وبعدها ، أكدت بصفة أساسية اختلاف الآراء فيما يختص بزواج الكهنة وقانون الايمان والنظم المتعلقة بالنصيام ونظام

العبادة أثناء القداس والعمليات الخاصة بتناول الأسرار المقدسة . وكانت الاختلافات الظاهرية ، على أية حال ، ترمز الى اختلافات جوهرية في الأمور الروحية لكل من الكنيستين . وكانت الكنيسة البيزنطية في العصر اللايقوني واقعة تحت تأثير أفكار المتطهرين . ولكن بعد عام ٨٥٠ م بدأت العناصر البيزنطية القديمة في الظهور ثانية في الطقوس الدينية . ويمكن ادراك هذا التطور الجديد في الطقوس الأرثوذكسية البيزنطية المحكمة ، في تلك الرمزية الشديدة في الفن الديني البيزنطي ، وفي أمجاد الموسيقى الكنسية البيزنطية ، وفي تعقيدات اللاهوت الأرثوذكسي البيزنطي ، وكذلك في الدور الفعال الذي قامت به الديرية في الحياة الدينية البيزنطية . فضلا عن مفاهيم التقوى الممثلة في الأعياد الدينية البيزنطية . وربما كان من الصواب القول بأن كثيرا من هذه المظاهر الفريدة قد اتخذت شكلها النهائي في عهد الأسرة المقدونية التي أعقبت الحركة اللايقونية . ولا شك أن خبرة هذه الأسرة وحنكتها قد قضت على كل أمل كانت تصبو اليه الكنيسة الرومانية لفرض طقوسها الرومانية في شتى أنحاء العالم المسيحي بعد انتهاء الصراع اللايقوني . كما وضعت أساسا لمجادلات ومنازعات أكثر حدة وعنفا حول ممارسة الشعائر والطقوس الدينية في العصور التالية .

أما المرحلة الثالثة البارزة من مراحل القطيعة الدينية ، فهي تلك التي ساندت فيها الكنيسة البيزنطية بشدة اتساع نطاق السلطة المطلقة للدولة . فقد كان المفهوم الامبراطوري الأساسي عن الكنيسة أنها عضو للدولة وسند لها ، والامبراطور باعتباره قائدا دينيا الى جانب قيادته السياسية . ولكن هذا المفهوم كان موضع التحدى العنيف أثناء الصراع اللايقوني عندما حاول الأباطرة فرض سياسة دينية لم تلق القبول من جماهير الشعب بوجه عام . لقد قاومت هذه السياسة قطاعات لها وزنها في الكنيسة البيزنطية ، وكانت نهاية الصراع الخاص بالصورة والأيقونات ، بشكل ما ، نصرا للكنيسة على الدولة . ولكن في عهد الأسرة المقدونية استعاد الأباطرة ، مرة أخرى ، سلطتهم على السلك الكهنوتي . ولكنهم

استخدموا تلك السلطة بمنتهى الحرص والحذر ، وأظهروا احتراما عظيما للكنيسة ، وقلما تدخلوا في الشؤون العقائدية . وقد عبر عن هذه السياسة بوضوح أحد الأباطرة المقدونيين ، اذ قال « أنا اعترف بسلطتين في العالم : السلطة الكهنوتية والسلطة الامبراطورية . وقد أناط خالق الكون الى الأولى مهمة رعاية الأرواح وخلص النفوس والى الثانية مهمة ادارة النواحي العلمانية والأمر الزمنية . ولتأمن كل من هاتين السلطتين من الهجوم عليها حتى ينعم العالم بالرخاء » .

وعلى أية حال ، لم يكن الأباطرة ، في الحقيقة ، بحاجة لاجبار الكنيسة على شيء ما ، لأن الشخصيات الدينية الرئيسية في القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، أحست بمسئولية متقدمة نحو صالح الدولة . وبذلت كل جهد ممكن لتوجيه عامة الشعب نحو الامبراطور المعظم في شتى المناسبات باعتباره خادم الرب ، ودافعت بحماسة عن سلطته المطلقة . وكان رجال الدين متحمسين ، على وجه الخصوص ، لمساندة السياسة الخارجية البيزنطية . وسعى المبشرون البيزنطيون ، بشكل مطرد الى ربط معتنقى المسيحية الجدد بالقسطنطينية ، وبذلك أصبحوا مسئولين مسئولية كبرى عن تلك الروابط القوية التي ربطت عددا كبيرا من السلاف ببيزنطة . وأصبح الاتحاد التام بين الكنيسة والدولة نهائيا خلال عصر الأسرة المقدونية . وقلما نجد في تاريخ البشرية بأجمعه مثالا أفضل من كنيسة الدولة تلك ، تعمل في الحدود المتاحة لها على تعظيم الامبراطور وتلقين المؤمنين مبدءا للولاء للدولة . واعتبارا من القرن التاسع الميلادي فصاعدا كانت علاقة الكنيسة البيزنطية بالدولة تمثل نقیضا للصراع العنيف الذي قام بين الكنيسة والدولة في الغرب ، والذي قسم المجتمع الأوروبي الغربي على امتداد فترة طويلة من تاريخ العصور الوسطى .

النهضة الثقافية

لقد أدت النهضة الثقافية الالامعة الى زيادة تألق المجتمع البيزنطي

الناهض. في عهد الأسرة المقدونية • واستطاع العالم البيزنطى ، خلال الحقبة الطويلة التى عانى فيها من الحصار ، والتقى فرقته فيها المشاحنات الدينية. الداخلية ، أن يحافظ على تراثه القيم من الثقافة الكلاسيكية اليونانية والعلوم المسيحية الأولى ذات الأصول اليونانية • وبتسوية المشاحنات الدينية وحياء النشاط السياسى فى منتصف القرن التاسع الميلادى ، استمد العلماء والفنانون وحيهم من هذا التراث القديم لخلق أروع شكل للثقافة البيزنطية •

ولما كانت هذه النهضة قد بدأت فى أواسط القرن التاسع الميلادى، فقد تميزت ، على وجه الخصوص ، بالتوسع فى النشاط العلمى فى جامعة القسطنطينية • وتركزت برامجها على الدراسات الكلاسيكية اليونانية • وكان من بين أساتذتها أعظم قادة الفكر فى ذلك العصر ، وعلى رأسهم البطريرك العظيم فوتيوس • كما كانت الحكومة الامبراطورية ، دوماً ، هى الحامى الأساسى للعلوم والفنون ، وأخرجت عدداً من العلماء العظام فى ذلك العصر من بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها • فكان ليو السادس المعروف بليو العاقل وقسطنطين السابع من رجال العلم والعلماء الممتازين والكتاب الذين يتميزون بوفرة الانتاج • وقد ساندت الدولة المدرسة الكبرى فى العاصمة ، فكان فيها أساتذة يتقاضون بسخاء وعن جدارة • وكان جميع الطلبة يقبلون بالمجان ولا يدفعون أى رسوم على الاطلاق • وزاد الاهتمام بالدراسات الكلاسيكية، وأضفى الأدب والفلسفة والعلم على الثقافة البيزنطية فى العصر المقدونى روحاً علمانية ملحوظة ، بالرغم من متابعة الدراسات الدينية بولع وشغف فى المكتبات الكبرى بالأديرة •

وربما كانت أبرز مظاهر النهضة المقدونية المتعددة الجوانب ، هو جمع دائرة معارف استمدت مادتها من أدب بلاد اليونان القديمة الذى يتميز بغزارته • وشأنهم شأن المسلمين المجاورين لهم ، استطاع علماء الدولة البيزنطية فى القرون التاسع والعاشر والحادى عشر الميلادية

أن يضعوا كتباً دراسية في جميع الموضوعات التي يمكن تصورها ، مثل القانون ، والإدارة العامة ، والعلوم العسكرية ، والتاريخ ، والعلوم الطبيعية ، والزراعة ، والطب ، واحتفالات البلاط ، وحياة القديسين ، وعلم الأخلاق ، واللغويات ، والديبلوماسية ، وغير ذلك من المواد الكثيرة الأخرى . وإن دلت مثل هذه القائمة من المواد على شيء ، فإنما تدل على أن العلماء كانوا شديدي الرغبة لخدمة مجتمعهم في الشؤون العملية . وقد احتاج مثل هذا العمل إلى مكتبات ضخمة . ولهذا تميز العصر المقدوني بمجموعات الكتب العظيمة ، وعلى وجه الخصوص كتب الأدب اليوناني القديم . وقد استلزمت عملية الافادة من هذه المادة ، بطبيعة الحال ، تدريباً لغوياً واعياً . ولما كانت اللغة اليونانية التي تكلمها أهل بيزنطة في القرن العاشر الميلادي ، تختلف اختلافاً بينا سواء من ناحية النطق أو المفردات أو النمو ، عن لغة الكتاب الكلاسيكيين القدامى ، فقد تم إحياء الدراسات اللغوية لتدريب الطلبة على استيعاب ما كتبه المؤلفون ، ومحاولة تقليد أسلوبهم الأدبي بعد ذلك . ولقد كتبت شروح وتفسيرات عديدة لتوضيح النصوص القديمة ، والعمل على تكييفها لتلائم التعاليم والحياة المسيحية . ولكن العديد منها كان يعكس نزعة إنسانية واتجاها نحو السفسطائية والعلمانية ، الأمر الذي يكشف عن مدى تأثير الكتاب الإغريق القدامى على شارحيهم ومفسريهم .

ومع أن هذا العصر الذهبي لم يكن بادئ ذي بدء خلاقاً ومبدعاً ، إلا أن القوة الدافعة للدراسة وعملية الجمع والتحصيل قد انتقلت إلى مرحلة الجودة والأصالة . فسجل فريق من المؤرخين المشهورين أعمال الحكام السابقين عنهم والمعاصرين لهم . كما تم وضع سير وتراجم بقلم المؤلفين من الرهبان بصفة خاصة ، وهم الذين تخصصوا في كتابة سير القديسين . وغالباً ما قدمت المناقشات اللاهوتية التي لا تنتهي تفسيرات جديدة للعقيدة . وكان جانب كبير من شعر هذه الفترة على منوال النماذج الكلاسيكية . واستطاع أحد الشعراء أن ينظم في القرن العاشر الميلادي ملحمة شعرية بيزنطية . ولكننا نجد أشد الإلهام عمقا

فى تلك القصائد والترانيم التى تعبر عن المشاعر والانفعالات الشخصية الجياشة ، كما تعبر عن التقوى العميقة فى النهضة الدينية •

وفى هذا العصر ، أيضا ، اكتملت ملامح وأساليب الفن البيزنطى الرئيسية • وقد أضاف البيزنطيون الى الفنون الكلاسيكية من ناحية خطوطها وأشكالها ، لمسة من ذوقهم ومواهبهم فى الزخرفة الغزيرة والألوان البارزة ، بحيث تتلائم واحتياجاتهم • وهكذا تطوّر التقليد الأعمى للنماذج الهلنستية ليصبح أسلوبا أصيلا قويا • وان أعظم مخلفات العصر المقدونى هى كنائس القسطنطينية الفخمة بجدرانها المغطاة بالفسيفساء الملونة التى تصور ليس فقط القصص المعروفة المثيرة للعواطف والواردة فى الكتب الدينية المسيحية بواقعية غريبة ، بل تبهر أيضا نظر المشاهد لتلك الألوان الزاهية التى تشبه الجواهر المطلية باللونين الذهبى والأسود • ووجد ، أيضا ، فن علمانى نابض بالحياة ، وبخاصة فى القصور والمباني العامة • ومع أن المتبقى منه قليل ، فهناك ما يكفى لتعريفنا بصفاته المميزة • لقد كان الفن والمعمار البيزنطى فى القرن العاشر الميلادى محل إعجاب الكثيرين خارج الامبراطورية • فتم تقليده بكل تفاصيله تقريبا فى الغرب الأوروبى والعالم السلافى ، وترك أعمق الأثر فى كل منهما فيما يتعلق بتطور الذوق الفنى •

لقد كشفت النهضة البيزنطية فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد عن محصلة ثقافية تفوق بكثير ما أنتجته النهضة الكارولنجية، ولم يقف معها على قدم المساواة سوى المسلمون • وفوق هذا وذاك ، أكدت النهضة البيزنطية بقاء التراث اليونانى القديم فى شكله الأصلى ، أكثر من نسخه المترجمة الى العربية واللاتينية التى وصلت الى العالم الاسلامى أو الغرب المسيحى • واعتمد علماء الغرب الأوروبى فى العصور المتأخرة ، وبخاصة فى عصر النهضة ، كلية على المعارف البيزنطية للوصول الى مناهل العلوم الكلاسيكية اليونانية • وفى نفس الوقت ، خطت النهضة البيزنطية خطوة حيوية فى العملية الطويلة التى تهدف الى خلق ثقافة

مصطبغة بالصبغة الهلينية قدر لها أن تزدهر في القسطنطينية وحواليها.

الدولة البيزنطية والعالم السلافي

بعد أن استعادت الدولة البيزنطية قوتها الفعالة ، أصبحت بعد عام ٨٥٠ م قادرة على مد نفوذها في رقعة واسعة من العالم السلافي الذي عوضها عن خسارتها في آسيا وأفريقية والغرب الأوروبي خلال القرون السابقة . كما أصبح بوسعها ، في نفس الوقت ، تغيير مصير السلاف تغييرا تاما .

لقد تغلغت التأثيرات البيزنطية في العالم السلافي على مستويات عدة . فمنذ القرن السادس الميلادي فصاعدا ، عبرت القبائل السلافية الحدود البيزنطية في البلقان ، واستقرت بين المجتمعات البيزنطية في مساحة كبيرة من شبه الجزيرة . وسرعان ما تعود القادمون الجدد على أساليب حياة جيرانهم الأكثر رقيا . وحتى الصدام المسلح المتواصل بين المجتمعين نتج عنه احتكاك ثقافي مفيد عن طريق السياسة البيزنطية التي تهدف إلى توطئ أسرى الحرب السلاف في جميع أنحاء الامبراطورية . وكان ثمة سيل مطرد للتبادل الدبلوماسي أدى إلى ارتحال آخر الأمراء السلاف إلى القسطنطينية . كما سافر المبعوثون البيزنطيون وأتباعهم إلى عواصم البرابرة . فلم يجد الأمراء السلاف مفرا ، بعد ما رأوه من عظمة وأبهة البلاط البيزنطي ، وتألق المجتمع البيزنطي ، وفخامة القسطنطينية ، من محاولة تقليد بيزنطة في عواصمهم البدائية . وغالبا ما استطاعت الدبلوماسية البيزنطية الناجحة إدخال الامارات السلافية ضمن منطقة النفوذ الامبراطوري . وهكذا فتحت قنوات اتصال ثابتة انتقل عبرها التجار ومنتجات الامبراطورية إلى جزء كبير من العالم السلافي .

وعلى أية حال ، كانت المسيحية هي الرباط الأساسي المتين بين الدولة البيزنطية والعالم السلافي . وقد استغرقت عملية تحويل

السلاف الى المسيحية وقتا طويلا . فقد بدأت عندما استقر السلاف أولا على طول حدود الامبراطورية الرومانية في عهدها المتأخر . ولم تبذل الكنيسة البيزنطية لمدة طويلة أى جهد تبشيري مخطط (في هذا المجال) . وكانت عملية ادخالهم في المسيحية بطيئة جدا . واستمر الحال على هذا المنوال حتى منتصف القرن التاسع للميلاد عندما اتخذ فوثيوس سياسة أكثر قوة . وكان مندوباه الرئيسيان هما الكاهنين العالمين المقوقس Cyril وميثوديوس Methodius اللذين عرفا بحق باسم « رسولى السلاف » . وأوقدهما ، الى مورافيا عام ٨٦٢ م استجابة لطلب أمير مورافى لارسال بعثة تبشيرية (الى بلاده) . وكرس المقوقس وميثوديوس جهودهما الكبيرة لتطوير خدمة القديس السلافى وازساء أدب تعليمى مناسب للمورافيين . ولتحقيق هذه الغاية فقد كيف المبشران الأبجدية اليونانية للوفاء باحتياجات لغة سلافية مكتوبة . وبذلك تملقا السلاف واستطاعا اقناعهم بنسختهم الخاصة بهم من الكتاب المقدس . ولكن الأهم من ذلك هو التطور اللغوى أيضا الذى جعل فى الامكان نقل تلك الدائرة الواسعة من مختلف العلوم البيزنطية الى السلاف بلغاتهم المختلفة . ولم يكن عمل المقوقس وميثوديوس التبشيرى فى مورافيا بصفة دائمة ، بل أنه فى عام ٨٨٥ م طرد الجرمان رسوليهما واعتنقوا المسيحية على المذهب الرومانى . وعندئذ التجأ المبشران الى بلغاريا التى رحبت بهما ، فتابعوا بنشاط فائق عملية خلق مسيحية سلافية وثقافية سلافية ، وكلاهما مستمد من بيزنطة .

وبدأ ادخال بلغاريا فى المسيحية عام ٨٦٤ م بعماد الحاكم البلغارى على يد كهنة بيزنطيين . واستمر البلغار يتأرجحون فترة قصيرة بين المسيحية الرومانية والمسيحية البيزنطية . وأخيرا ، انحازوا كلية الى القسطنطينية ، بسبب رغبة بيزنطة فى السماح لهم بهيئة تنظيمية مستقلة خاصة بهم يرأسها بطريرك بلغارى ، مع موافقتها على استخدام القديس السلافى الجديد . وبلغ من رغبة الحكام البلغار فى تقوية

المسيحية ، أن اقتبسوا ما يمكن اقتباسه من بيزنطة لمدة قرن من الزمان تقريبا بعد اعتناقهم المسيحية • كما ترجموا العديد من الكتب الدينية اليونانية الى اللغة البلغارية ، وكان ذلك نقطة البداية للأدب الوطني البلغاري • كذلك شيد البلغار أديرتهم على نمط الأديرة البيزنطية ، وبدأ رهبانهم يزاولون أنشطة مماثلة ، مثل كتابة حياة القديسين ونسخ الكتب المقدسة • وكانت معظم الكنائس البلغارية نماذج مطابقة للفن المعماري والزخرفي البيزنطي •

وأخذت المؤثرات البيزنطية تتسلل ، أيضا ، الى داخل روسيا في عصر الأسرة المقدونية • وكانت الامبراطورية قد أبدت اهتمامها منذ فترة طويلة بمختلف السكان الذين يقطنون جنوب روسيا ، وبصفة خاصة القبائل الآسيوية الرحل التي كانت تكتسح تلك المنطقة من وقت لآخر • وفي عام ٨٦٠ م هاجم شعب يطلق على نفسه اسم الروس مدينة القسطنطينية ، ومنها جاءت كلمة روسي • وليس واضحا تماما من هم هؤلاء القوم ، ولكن يحتمل أنه كانت لهم علاقة ما بالامارات الجديدة التي ظهرت في روسيا خلال القرن التاسع الميلادي • ففي ذلك الحين أسس السويديون (المعروف في التاريخ الروسي بالفرانجيين) Varangians مدنا بجذاء الطرق النهرية التي تصل بحر البلطيق بالبحر الأسود والقسطنطينية وسرعان ما أصبحت كييف أهم هذه المدن جميعا • وامتدت سلطة حكامها لتشمل السلاف المحيطين بها ، مكونة بذلك اماره قوية • وقد نشأت علاقة حيوية بين القسطنطينية وكييف • واتخذت في بعض الأحيان شكل الحرب نتيجة هجمات عديدة قام بها السلاف ضد القسطنطينية • وفي أحيان أخرى اتخذت شكل محالفات بينهما زودت أباطرة بيزنطة بسند قوى ضد البلغار • كذلك وجد بين القسطنطينية وكييف دائما تبادل تجاري واسع • وفي مناسبات قليلة قام أمراء وأميرات من كييف بزيارة القسطنطينية لمشاهدة عجائب المدينة ، وليخلع أباطرتها عليهم الألقاب • كما وجدت ، أيضا ، الجماعات التبشيرية طريقها من الامبراطورية الى اماره كييف ، واستطاعت ضم

متنصرين جدد رغم نفوذ المسيحية الرومانية القوى الذى تغلغل فى روسيا عن طريق بلغاريا ومورافيا وغرب أوروبا • وأخيرا ، فان تحويل الأمير فلاديمير Vladimir الى المسيحية البيزنطية وزواجه من أخت الامبراطور بازيل الثانى عام ٩٨٨ أو ٩٨٩ م ، قد فتحت الطريق لسيل لا يتوقف من التأثيرات البيزنطية فى المجالين الثقافى والدينى ، التى امتدت فى اتجاه الشمال الى قلب العالم السلافى • وقد تم الحفاظ على هذه المؤثرات والتوسع فيها بعد تنظيم الكنيسة الروسية التى ارتبطت برباط وثيق بالسلك الكهنوتى البيزنطى •

وثمة نماذج عديدة لانتشار الثقافة البيزنطية السريع فى العالم السلافى • فقد كانت القوانين التى سنها الأمراء السلافيون على نسق القوانين البيزنطية • وان قدرا كبيرا من الأدب الدينى المترجم من اليونانية قد بدأ انتشاره وتداوله باللغات السلافية • كذلك شيدت الكنائس وزينت وفقا للأساليب البيزنطية • وتأصلت جذور الرهبنة بين السلاف • كما تم تصميم بلاطات الأمراء الوطنيين على نمط القصر المقدس فى القسطنطينية • واتبعت نفس الأساليب البيزنطية فيما يتعلق بنظم الحكم والادارة • ونهجت الأرستقراطية السلافية نهج المجتمع البيزنطى • وقد حقق السلاف الشرقيون تقدما سريعا فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين بسبب المؤثرات البيزنطية • ومع ذلك حاولت الحكومات السلافية البدائية الاحتفاظ باستقلال واسع النطاق • وكقاعدة عامة ، لم تحاول الدولة البيزنطية غزوها سياسيا ، وانما آثرت الاكتفاء بربطها بها كأقمار لا تستطيع الانفصال عن كوكبها بسبب الجاذبية المغناطيسية للدين والفن والعلم البيزنطى • وكان هذا الاتجاه نحو الشمال هو الخطوة الأخيرة فى تقدم وانتشار الحضارة البيزنطية الجديدة •

تجزئة الامبراطورية الكارولنجية

لقد تحطم فى القرن التاسع الميلادى حلم الغرب الأوروبى فى

دولة مسيحية كبرى يحكمها امبراطور واحد ، نتيجة تفتت الامبراطورية الكارولنجية الى مجموعة من الدول التي ورثتها • وكان الانهيار مدمرا حتى أن هذه الدول تفتت بدورها الى وحدات سياسية صغيرة • وبذلك بدأ عصر اقطاعي غير مستقر في الغرب • وعلى أية حال ، فإن الصدمة لم تكن من القوة لتقضى على الروابط التي جعلت من المسيحية الرومانية وحدة واحدة ، ولتقضى على الثقافة اللاتينية التي تمخضت عن النهضة الكارولنجية •

نشأة ممالك الغرب الأوروبى

كان ثمة شواهد على ضعف الامبراطورية بدت بوادرها في أواخر حكم شارلمان ، وأصبحت تنذر بالخطر في عهد لويس التقي (٨١٤ — ٨٤٠ م) • فقد بدأ ابن شارلمان ، الشديد الورع والمثالية ، حكمه — كما سبق الإشارة — بمحاولة تقوية الامبراطورية والعمل على رفع قدر الوظيفة الامبراطورية • وكان سنده الرئيسى مجموعة نشطة من القادة الكنسيين والعلمانيين الذين شاركوه اعتقاده في ضرورة وجود دولة مسيحية قوية يجب أن تبنى على المثالية المسيحية • ومع ذلك ، فقد فشل الامبراطور ومعاونوه في اقناع رعيته البائسة المتناثرة عن امبراطورية تمتد من سكسونيا الى روما ومن بريطانيا الى وسط المانيا • ومع أنه يحتمل أن الكثيرين قد أدركوا أن شارلمان ، ذلك المحارب القوي والمشرع الفذ ، قد حقق آمالهم ، الا أنهم لم يتفهموا ما حاول أن يحققه ابنه الذى يقل عنه مقدرة والذى يحيط به كهنة هم موضع ثقته • ولقد تكشف عدم المبالاة بحلم لويس التقي ، بل والوقوف منه موقف العداء، عندما اصطدم هذا الحلم لأول مرة بعقبة كأداء •

وكانت مشكلة الوراثة امتحانا هي الأخرى • فقد نادى المثل الأعلى الكارولنجى بوضوح بأن تظل الامبراطورية موحدة تحت امرة حاكم واحد • ولكن التقليد الجرمانى الذى كان تأثيره قويا في تشكيل

كافة نواحي الحياة اليومية للكارولنجيين ورعاياهم ، كان يرى أن المملكة ما هي الا جزء من الممتلكات الخاصة ، وأنها بناء على ذلك يجب أن تقسم بين أبناء الملك عند وفاته . ونجد أن لويس نفسه قد تردد في تمسكه بمبدأ الوحدة الذي مزقته قوة دفع التقليد الجرمانى ، الأمر الذى عزز طموحات أبنائه ونبلائه . وفى عام ٨١٧ م أصدر مرسوما لصالح الوحدة الامبراطورية ، نص على أن يرث ابنه الأكبر لوثير Lothair اللقب الامبراطورى والقسم الاكبر من الامبراطورية . هذا ، بينما خصص لولديه الآخرين مملكتين صغيرتين داخل نطاق الامبراطورية وتحت سيادة لوثير . وبدأ الابنان الصغيران يتآمران منذ الوهلة الأولى للحصول على قسم يكون أكثر عدلا . وكذلك تعرض موقف لوثير ومعاونيه من رجال الامبراطورية لخطر شديد ، عندما أنجبت زوجة لويس الثانية ابنا رابعا حاول أن يحصل له على نصاب فى تقسيم جديد فى عام ٨٢٩ م . وقد أصبحت حكومة لويس بالشلل منذ عام ٨٣٠م نتيجة سلسلة من الثورات التى أثارها أبنائه . وشارك النبلاء فى هذه الثورات ، لأنهم وجدوا أن المتنافسين الملكيين على استعداد لشراء ولائهم لهم مقابل منح من الأرض .

وخلف لوثير والده كامبراطور فعلا فى عام ٨٤٠ م ، واحتفظ بلقبه حتى وفاته عام ٨٥٥ م . ولكن ولدى لويس الآخرين اللذين كانا لا يزالان على قيد الحياة ، وهما شارل ولويس ، ثارا ضد أخيهما . وبعد كفاح مرير استطاعا اجبار لوثير فى عام ٨٤٣ م على الموافقة على معاهدة فردان التى خصصت لشارل مملكة ضخمة للفرنجة الغربيين اشتملت على معظم فرنسا الحديثة . كما حصل لويس على مملكة مساوية لها فى الحجم للفرنجة الشرقيين تقع شرقى نهر الراين . واحتفظ لوثير بشريط مستطيل من الأرض يمتد من مصب نهر الراين حتى ضفته الغربية ، ثم يستمر امتداده الى داخل ايطاليا . وكان له اللقب الامبراطورى ، ولكن أهميته كانت قد تلاشت تقريبا لأن الحاكمين

الآخرين كانا يتمتعان باستقلال فعلى • وفى الحقيقة ، يمكن القول انه انبثقت عن الامبراطورية الكارولنجية ثلاث ممالك •

وحاول الاخوة الثلاثة الاحتفاظ بعلاقات يسودها السلام لسنوات قليلة بعد عام ٨٤٣ م ، والتعاون على أساس المشاكل والمصالح المشتركة • وأما الكنيسة التى ظلت طويلا مخلصه للمثل الأعلى للوحدة المسيحية ، فقد عملت بجد لبث روح التعاون بين الكارولنجيين • وفضلا عن ذلك ، فقد سببت الثورات الداخلية والهجمات الشرسة لغزاة جدد ، المتاعب لكل ملك منهم • اذ بدأ المسلمون فى شمال افريقية اغاراتهم على ايطاليا ، وبلغ الأمر أن دخلوا روما فى عام ٨٤٦ م • ثم كان الفيكنج المتوحشون الذى قدموا من شواطئ بحرى الشمال والبلطيق فى شكل جماعات كبيرة متتابعة الى أنهار اوروبا ووديانها ، ليشيعوا الذعر والخراب بضرباتهم الجريئة المفاجئة التى يستطع الملوك دفعها •

ولكن هذه المصالح المشتركة لم تكن كافية لحفظ التعاون بين الاخوة • ففى عام ٨٥٥ م مات لوثير ، وقسمت مملكته التى تمثل شريطا مستطيلا بين ثلاثة أبناء • وبذلك وجدت ثلاث ممالك جديدة هى اللورين وبرجنديا وايطاليا ، الى جانب مملكتى الفرنجة الغربيين (فرنسا) والفرنجة الشرقيين (المانيا) • واتخذ أحد أبنائه ، وهو لويس الثانى (٨٥٥ — ٨٧٥ م) ، لقب امبراطور الى جانب لقبه كملك على ايطاليا • وكرس معظم طاقاته ، أساسا ، للدفاع البطولى عن ايطاليا ضد المسلمين • وقلما أطل ببصره عبر جبال الألب الى ما كانت عليه الامبراطورية القديمة • اذ أدرك أنه ليس بوسعه الحصول على أى جزء من تلك المنطقة التى سرعان ما أغرقتها الفوضى • كما واجه شارل الأصلح حاكم الفرنجة الغربيين تهديدات خطيرة بسبب تمرد النبلاء الذين حرصهم أخوة لويس الجرمانى • ولم ينجح فى محاولاته التى قصد بها ضد غزوات الفيكنج التى زاد عنفها وقسوتها فى اقليم الفرنجة الغربيين على وجه الخصوص • ومع أن لويس كان بوسعه غزو مملكة

شارل في مناسبتين ، الا أنه واجه صعابا شديدة مع أمرائه في مملكة الفرنجة الشرقيين . وبذل كل من لويس وشارل جهدا كبيرا في محاولة الاستيلاء على أراضى ابني أخيهام ملكى اللورين وبرجنديا . وقد حققا نجاحا جزئيا عندما اقتسما اللورين بينهما في عام ٨٧٠ م . ولكنهما دفعا الثمن غاليا نتيجة انتصارهم ، بسبب الامتيازات التى طالب بها النبلاء ، تلك الامتيازات التى عجلت بانحلال الامبراطورية وانهارها . وبعد موت الامبراطور لويس الثانى في عام ٨٧٥ م ، سيطر على التاريخ الكارولنجى اتجاهان متساويان في أثرهما السيء . فمن ناحية ، سعى المتمسكون القلائل بالمثل الأعلى الامبراطورى القديم ، وعلى رأسهم البابوية ، للبحث دون جدوى عن أمير من سلالة الكارولنجيين يمكن وضع التاج الامبراطورى فوق رأسه . ومن ناحية أخرى ، كان الانهيار قد دب في أوصال الحكومة المركزية داخل كل مملكة من تلك الممالك الكارولنجية المتعددة ، الأمر الذى أتاح للأفصال الملكيين الأقوياء الحصول على استقلال حقيقى ، مما شجعهم تماما على انتخاب ملوك لم يكونوا أصلح حالا من الملوك الميروفنجيين الأواخر الذين كانوا عاطلين « لا يفعلون شيئا » .

وانتهت مطالبة البابا بأباطرة أقوياء بالفشل . فكل امبراطور جاء بعد عام ٨٧٥ م كان نفوذه على الامبراطورية كلها أقل من نفوذ سابقه . وأما آخر من حمل اللقب الامبراطورى ، لم يكن أكثر من ملك ايطالى ضعيف ، وكانت القوة النامية لطبقة النبلاء الايطاليين قد ألقت بظلها عليه الى حد بعيد . وحوالى عام ٩٢٤ م كان قد خبا الحكم الكارولنجى في عالم مسيحى غربى يمثل وحدة سياسية فعالة . وحتى العرش الامبراطورى نفسه ظل خاليا اعتبارا من عام ٩٢٤ م وحتى عام ٩٦٢ م عندما استحوذ اوتو الكبير على التاج ، وهو امبراطور جرمانى كانت رقعته الامبراطورية تشتمل فقط على مملكة الفرنجة الشرقيين وذلك الجزء الايطالى الواقع تقريبا الى الشمال من روما . وكان هذا الفساد التام الذى دب في أوصال السلطة السياسية الموحدة خطيرا ، وبصفة

خاصة بالنسبة للبابوات الذين وجدوا أنفسهم في حاجة لمن يتولى حمايتهم ، والذين كانت طموحات النبلاء الرومان مصدر تهديد لهم .
وفضلا عن ذلك ، فقد استمرت الغارات الاسلامية على ايطاليا ، الى جانب ظهور قوة غازية جديدة تتمثل في المجريين أو الهنغار ، الأمر الذى زاد هوة الفوضى السياسية عمقا واتساعا .

أما عن الممالك الكارولنجية الواقعة شمال جبال الألب ، فقد تفككت بسرعة تحت الضغط المتزايد لغارات الفيكنج والمجريين ، بالإضافة الى الاستقلال المطرد لكبار النبلاء . وكان الملوك الكارولنجيون الذين جاءوا بعد شارل الأصلح (توفى عام ٨٧٧ م) ولويس الجرمانى (توفى عام ٨٧٦ م) غير أكفاء ، ولم يعمرؤا طويلا ، وقد كرسوا مواهبهم المحدودة أساسا لمشاريع تستهدف حرمان ذويهم من الأرض . واختفى تقريبا احساس الكارولنجيين بالمسؤولية نحو اقامة العدالة والنهوض بالدين والدفاع عن المملكة والاشراف على الأفصال التابعين لهم . واغتصب النبلاء الأقوياء الوظائف الحكومية واتخذوها لأنفسهم نتيجة اهمالها . وقد جعلوا من هذه الوظائف العامة التقليدية ارثا يتوارثونه . وأرسوا المبدأ القائل بأن المنح الملكية من الأراضى هى حق مكتسب لهم لا يرد . وقاموا ، بدورهم ، بانشاء دوائرهم الخاصة من الأفصال التابعين لهم . وهكذا تقوض بسرعة فائقة المبدأ الخاص بملكية قوية تشبه الحكم الكارولنجى المبكر .

وقد قدر للدولة الكارولنجية أن تعود الى سابق عهدها خلال فترة قصيرة من الزمن تمتد من عام ٨٨١ م وحتى عام ٨٨٨ م ، عندما انتخب شارل السمين ابن لويس الجرمانى ملكا على الفرنجة الشرقيين ، وملكا على ايطاليا وامبراطورا ، ثم أخيرا ملكا على الفرنجة الغربيين . وبذلك أعيد توحيد الامبراطورية كلها تحت لواء حاكم كارولنجى واحد . ولكن هذا لم يكن سوى فاصلا عريضا . فقد نتج عن موت شارل المبكر فى عام ٨٨٨ م ليس فقط عودة الاتجاه الانفصالى الذى دام طوال النصف

قرن السابق ، وانما وجد أيضا رد فعل شديد سرى ضد الكارولنجيين • وحتى قبل وفاة شارل السمين انتخب نبلاء الفرنجة الغربيين ايودو Eudo كونت باريس ملكا عليهم • وكان شفيعه في ذلك دفاعه القوى عن باريس ضد الفيكنج • وهكذا عادت أخيرا الأسرة الكارولنجية الى عرش الفرنجة الغربيين ، وظلت تتمتع به حتى عام ٩٨٧ م • ولكن انتخاب عام ٨٨٧ م الذي أكد حق الكارولنجيين في وراثة العرش ، لم يعد الآن يسمح به النبلاء ورجال الدين • وكان الحاكم الكارولنجي الأخير لملكة الفرنجة الشرقيين ، والذي ينحدر من سلالة الكارولنجيين ، هو لويس الطفل الذي مات في عام ٩١١ م ، فانتخب رجال الدين ونبلاء الفرنجة الشرقيين الأقوياء دوق فرنكونيا ، وهو شخص غير كارولنجي ، ملكا عليهم • وفي كل من ايطاليا وبروفانس وبرجنديا ، ارتقى العروش الملكية ملوك غير كارولنجيين •

وهكذا بدد ورثة شارلمان ميراثهم • وأصبح اللقب الامبراطوري الذي أنشئ عام ٨٠٠ م لتوحيد المسيحيين الغربيين يحمله في عام ٩٠٠ م ملك ايطالي ضعيف لم يكن صوته مهابا في ايطاليا أو في أى مكان آخر • وحلت محل الامبراطورية دول جديدة هي فرنسا والمانيا وايطاليا وبرجنديا وبروفانس • ومع أن هذه الممالك كانت تحمل لقرون عديدة بصمات أصلها الكارولنجي ، الا أن ظهورها في القرن التاسع الميلادي كان بداية مرحلة جديدة في التاريخ الأوروبي •

ولكى نعطي صورة كاملة للتقسيم السياسى المتزايد للغرب ، يجب أن نذكر كلمة هنا عن مصير بقية الغرب الأوروبى سياسيا • فخلال القرن التاسع الميلادى شاهد العالم تجمع القبائل السكندنافية المقاتلة في ثلاث ممالك متميزة هي : النرويج والدانمارك والسويد • ويبدو أن هذه الممالك المشاغبة تحت القيادة الاسمية لملوك ضعاف أنتجت موجات لا نهاية لها من المغامرين الفيكنج الذين هاجموا الأجزاء التى استطاعوا الوصول اليها في غرب اوروبا والروسيا والجزر البريطانية وايسلندا

وجرينلاندا ، وربما وصلوا الى امريكا الشمالية فيما بين أواخر القرن الثامن وأوائل القرن العاشر الميلادى • واستقر كثير من الغزاة فى النهاية فى الأراضى التى أغاروا عليها ، ومن بينها مقاطعة نورمانديا الفرنسية وشمال انجلترا وايرلندا وايسلندا ، ومناطق نوفجورود وكييف فى روسيا • وفى هذه الأماكن المبعثرة هنا وهناك استقر الفيكنج بسرعة، ولعبوا دورا حيويا فى التاريخ الأوروبى قبل أن يذوبوا فى السكان المحليين • وبالرغم من هذه الهجرات ، فقد استمرت الممالك السكندنافية فى الارتقاء ، وقامت بدور هام متزايد فى تطور أوروبا السياسى •

وكان القرن التاسع قرنا حاسما فى تاريخ انجلترا المبكر • وقام الفيكنج بشن سلسلة متلاحقة من الغارات المدمرة على الدول الصغيرة التى لم تأخذ شكلها النهائى بعد ، والتى كان قد أقامها الغزاة الجرمان الأول • ونتج عن ذلك غزو واحتلال جزء كبير من شمال بريطانيا ، ترتب عليه رد فعل قومى قوى • وكان بطل التحرير والاسترداد هو الفريد الكبير (٨٧١ — ٨٩٩ م) الذى أنقذ مملكته من الفيكنج بدفاعه عن مقاطعة وسكس جنوب انجلترا ، واكتسب لقب « مؤسس » انجلترا • وقاد خلفاؤه الذين جاءوا بعده مباشرة قوات وسكس فى هجوم مضاد أعادوا به فتح شمال انجلترا ، وأقاموا مملكة انجليزية موحدة لتتضم الى الحكومات المستقلة الأخرى التى ظهرت فى غرب أوروبا •

نحو مجتمع اقطاعى

كان تصدع الامبراطورية الكارولنجية يمثل شيئا أكثر من انقسام غرب أوروبا الى ممالك مستقلة • فقد كان ، فى الحقيقة ، التجسيد الواضح تماما للعيان للتغيير الأساسى الذى طرأ على البناء السياسى والاجتماعى والاقتصادى للمجتمع ، والذى أدى فى النهاية الى قيام النظام الاقطاعى • ومع أن مراحل التطور الاقطاعى لم تكن مطلقا متماثلة فى جميع أنحاء الغرب ، الا أنها تضمنت بصفة عامة تطورات

واسعة مؤكدة هي : تحديد السلطة الملكية ، وتحديد الالتزامات السياسية ، وربط السلطة السياسية بملكية الأرض ، وظهور طبقة النبلاء التي اضطلعت بأعباء الحرب و الحكم وسيطرت على شعب من الأرقاء ، ونمو النظام الاقطاعي . وكانت كل من هذه السمات والمظاهر التي ستكون النظام الاقطاعي ، قد ظهرت وتأصلت جذورها من قبل ، حتى أن ما حدث في القرن التاسع الميلادي ، ما هو الا النتيجة النهائية لعملية تطور طويلة .

وكان التحديد المطرد للسلطة الملكية من الناحيتين القانونية والعملية عن طريق تطور نظام التبعية ، هو إحدى الخصائص المميزة لازمة الطاحنة في القرنين التاسع والعاشر للميلاد . ومع أن الكارولنجهين العظام كانوا قد أحاطوا أنفسهم بعدد كبير من الرجال الذين ارتبطوا بهم عن طريق أداء يمين الولاء والاخلاص ، الا أنهم لم يعتبروا ذلك قيذا على سلطاتهم . وبينما كان هؤلاء الأوصال ، الذين أطلق عليهم اسم « المعاوين الخصوصيين » مرضيا عنهم من الملك وينتظر منهم القيام بخدمته ، فقد ظلوا خاضعين للسلطات المحلية . وأثناء حكم لويس التقي كان ثمة تغيير جوهري أخذ يؤثر على هذا الموقف . ذلك أن رجال الدين الذين حاولوا التأثير على سياسة الحكومة ، حرضوا هؤلاء الأوصال التابعين للملك ، فبدأوا يصرون على تحديد أكثر وضوحا لمسؤوليات الملك حيالهم . واضطر كل كارولنجي متبرم من ذلك ، أن يرضخ لهذه المطالب بهدف تدعيم قوته ضد الكارولنجهين الآخرين المنافسين له . وهكذا اتخذت الملكية بشكل متشدد نظاما يقوم على أساس التعاقد (بين طرفين) . فالأوصال ، من ناحية ، لهم حقوق وعليهم واجبات . والملوك ، من ناحية أخرى ، لهم حقوق وعليهم مسؤوليات مقابل ذلك . ولكن الأوصال ، بشجاعة متزايدة ، نقضوا عهود التبعية والولاء للملك ، على أساس أنه فشل في الوفاء بالتزاماته نحوهم . وان مثل تلك التصرفات ، التي كانت تعتبر قبل ذلك بقليل خروجاً خطيراً عن الواجب ، غالباً ما دعمتها القوانين الشرعية وساندها

العرف السائد • فلم يعد الملك حاكما مطلقا ، وانما غدا سييدا يؤيده عامة سكان مملكته الذين يدينون له شخصيا بالولاء أفصالا لسيادة متزايدة بدأت تتخلى عن ولائها له ، لأنها أصبحت أفصالا لسيادة آخرين • وقد بلغ الملوك الكارولنجيون الأواخر درجة من الضعف لم يكن أمام من هم أكثر ضعفا سوى اختيارا محدودا ، وهو أن يضعوا أنفسهم تحت رحمة أشخاص أقوياء مقابل الوعد بتوفير الحماية لهم • ونتج عن هذه الاجراءات شبكة معقدة متشابكة من الروابط الشخصية بين عامة الناس والسيادة دون أية اشارة الى الملك وسلطاته •

وهكذا أختفت السلطة الملكية كلها تقريبا ، وتجمعت السلطة السياسية الحقيقية بسرعة في قبضة ملاك الأرض • وطلب الأفضال من سادتهم ، بشكل متزايد ، منحا من الأرض أو وظائف تمكنهم من الوفاء بالتزاماتهم نحوه • وكان هذا التطور متفقا مع ما سار عليه الكارولنجيون الأوائل • وبالتدريج أصبحت هذه المنح أو الحصص حسبا كان يطلق عليها ، لايمكن التصرف فيها ، خاصة بعد أن غدت وراثية في أواخر القرن التاسع الميلادي • وترتب على عملية منح هذه الحصص من الأرض للأفضال ، استنزاف الموارد الملكية وبصفة خاصة أثناء فترة الاضطراب في القرن التاسع عندما سعى الملوك مستميتين لكسب الأتباع ، واضطروا الى منح وظائف ملكية وراثية كالاقطاعات • وأصبح بمقدور هؤلاء النبلاء اغتصاب منح كبيرة من الملك كانوا ، عادة ، يقسمونها الى اقطاعيات أصغر • وبذلك أوجدوا كيانات سياسية مستقلة عن الملك تعتمد ، أساسا ، على نفسها • وسرعان ما طالب الأفضال بحقوقهم في السلطة السياسية كامتياز ضروري لهم • وقد أدت كل هذه العوامل الى تفتيت السلطة السياسية ، وانهيار نفوذ الحكومة المركزية ، وزيادة حصانة السادة النبلاء من ملاك الأرض •

وان النتائج العملية لتطور نظام التبعية والحصص الاقطاعية في الامبراطورية الكارولنجية ، تكاد تتحدى أى بيان • وبصفة عامة ، فإن

كل دولة كارولنجية جاءت بعد دولة كارولنجية أخرى ، انقسمت في الواقع الى امارات عديدة مستقلة . وغالبا ما ترتب في نفس الوقت تقسيم جزئي داخل التقسيمات الادارية للامبراطورية الكارولنجية القديمة . وقد عهد الى الكونتات والأدواق الذين كانوا من بين أهم موظفي الملوك الكارولنجيين ، بممارسة السلطة الملكية في أقسام ادارية معينة محددة ، وكانوا يزودون عادة بمعونات تتمثل في هبات من الأرض . وكان نجاح هذا النظام ، من وجهة النظر الملكية ، يعتمد على رغبة الأفضال في احترام سلطة الملك العليا . وطالب الكارولنجيون الأقوياء باحترام كاف ليتسنى تسيير النظام . ولكن الموقف أخذ يتغير في أواسط القرن التاسع الميلادي . إذ أصر الكونتات والأدواق اصرارا متزايدا على نيل حقوقهم كأفضال . وكثيرا ما اعطوا تلك الحقوق أولوية على واجباتهم كموظفين ملكيين . فاغتصبوا من الملك ملكيات أكبر من الأرض ، استمدوا عن طريقها سلطة أكثر استقلالا . وأهم من ذلك كله ، أنهم — على سبيل المثال — بدأوا يعتبرون امتيازات وظائفهم مثل تحصيل الضرائب والغرامات ، جزءا من حصصهم الاقطاعية باعتبارها دخلا خاصا لهم . كما أصرروا على أن تكون أرضهم ووظائفهم السياسية وراثية في نسلهم . ولم يكن الملوك بحكم العادة الاخذة في النمو والحاجة المتزايدة للتأييد ، قادرين على الوقوف في وجه هذه المطالب . وبذلك تفتت ممالك فرنسا والمانيا وايطاليا وبرجنديا وبروفانس مع بداية القرن العاشر الميلادي الى امارات واضحة الحدود قدر لها أن تلعب دورا هاما في التاريخ المتأخر اكل مملكة منها . ولما كانت هذه الحصص الاقطاعية تعامل باعتبارها أبعديات للأفضال الذين حكموها ، فقد أصبحت في الواقع بمثابة دويلات مستقلة تحت السيادة الاسمية للملك . وفضلا عن ذلك ، فقد حدثت في داخل كل دويلة نفس العملية . إذ ادعى الأفضال التابعون للكونتات والدوقات لأنفسهم ، بدورهم ، أحقيتهم في السلطة المستقلة داخل حصصهم الصغرى ، مثلما فعل سادتهم تماما بكونتياتهم ودوقياتهم . وبلغ بعض السادة درجة من القوة أنهم تحكموا

في أفصالهم • ولكن معظمهم لم تكن لهم القدرة على ذلك • وبهذه العملية زال تقريبا مفهوم السطة العامة ، وكان يتم التعبير عن الحقوق والواجبات السياسية بمصطلحات تدل على علاقة السادة والأفصال بعضهم ببعض من جهة ، وارتباطهم سويا بالأرض من جهة أخرى •

ومع ذلك ، فقد بقيت الملكية بعد تفتت السلطة العامة الى قوى خاصة • وطالما أن التبرير الشرعي الوحيد لوجود الحصص الكبيرة من الأرض أنها مستمدة من سلطة التاج ، فقد كان الدوقات والكونتات العظام حريصين دائما على انتخاب الملك • على الرغم من أنهم لم يعنوا بتوجيه الاحترام الكافي للسلطة الملكية • وطبقا لذلك ، اعترف مجتمع الغرب الأوروبي الممزق في بداية القرن العاشر الميلادي بالملوك الذين استمدوا سلطاتهم الفعالة من حقوقهم كسادة اقطاعيين فحسب • ويعتبر جانب كبير من تاريخ أوروبا الغربية اعتبارا من عام ٩٠٠ م فصاعدا قصة مفادها كيف استطاع هؤلاء الملوك استخدام حقوقهم الاقطاعية الأساسية ، تدعمها التقاليد الكارولنجية الباقية القائلة بأن الملك هو قائد رعيته وقت الحرب، وهو حاميهم فيما يتعلق بأمور العقيدة، وأنه قادر على إعادة بناء ملك قوى — أو بكلمة أدق في التعبير — ملك اقطاعي قوى •

ان تحول النظام السياسي من الملكية المركزية الى الاعتماد أكثر فأكثر على العلاقات الشخصية ، كان له تأثير قوى على التطور الاجتماعي لغرب أوروبا • فقد كان عدد الرجال الذين تملكوا الأراضي ومارسوا السلطة السياسية ، أي أولئك الذين شاركوا تماما في المجتمع الاقطاعي، قليلا • وبين مراتب هؤلاء الصفوة من السادة اللوردات والأفصال ، سرعان ما تطور نمط مميز من الحياة مستمد مباشرة من النظام الاقطاعي، مثل الحرب والحكم وإدارة الأرض والاحتفاظ بالمركز بين الأقران • وقد تم تنمية هذا الأسلوب من الحياة بكل حرص ، متمثلا في الشجاعة والولاء والبسالة في الحرب والتركيز على الشؤون المحلية والاستقلال

في العمل • ولم تستطع هذه الطبقة النبيلة الحاكمة المقاتلة أن تعبر تعبيرا واعيا عن مثلها الاقطاعية العليا الا في القرنين العاشر والحادي عشر للميلاد • ولكن بعام ٩٠٠ م فرضت الطبقة الأرستقراطية من اللوردات والأفصا زعامة حقيقية في الغرب الأوروبي •

وواضح أن مصير غالبية السكان كان قد تقرر بهذا التركيز الجديد على تملك الأرض وعلى المحلية ، الأمر الذي عجل بظهور نظام الاقطاعيات الكبيرة • ولما كانت الأرض هي المصدر الوحيد للثروة ، فقد أعتمد النبلاء الاقطاعيون تماما على استغلالها بنجاح للوصول الى السلطة • فركزوا اهتمامهم بدرجة متزايدة على تطوير الاقطاعيات الواسعة المكتفية ذاتيا ، التي أخذت في الظهور منذ العصر الروماني • وبنهاية القرن التاسع الميلادي كان السيد اللورد أو الفصل الهام يسيطر على ضياع عديدة ، وقد احتفظ بجزء من الأرض للوفاء بحاجاته • وقسم الباقي الى حصص صغيرة لتأجيرها للفلاحين • ومقابل استخدامهم لهذه القطع من الأرض دفعوا للسيد اللورد من نتاجها • كما قاموا بحرث أرض السيد الخاصة داخل الاقطاعية • وللتأكد من سلامة سير العمل لهذا النظام ، كان غالبية الفلاحين مرتبطين شرعا بالاقطاعات كأقنان • وكان السيد الاقطاعي بالضرورة يتولى توجيه حياتهم السياسية والاجتماعية ، وبذلك تم ممارسة تجربة حكومة محلية خاصة بكل اقطاعية على حدة • ومع أن النبيل كان السيد الذي لا ينافسه أحد في الاقطاعية ، فقد كانت ثروته تعتمد على كد أقتانه في أرضه ، وهي حقيقة شجعت على اتخاذ سياسة أبوية تعمل لصالح القن ، وان كان هذا لم يمنع من ظهور وتطور طبقة اجتماعية متميزة خاصة بالفلاحين • وبالرغم من أن التسلط على اقطاعيات مستقلة بذاتها قد أدى الى تفتيت أوروبا اقتصاديا وسياسيا ، وتحويلها الى مجتمع يعتمد كلية على الزراعة ، الا أن النظام الاقطاعي الجديد استطاع الوفاء بحاجات أوروبا المادية ، وأوجد عالما مستقرا حيث لقي الضعيف الحماية والوسيلة

لضمان لقمة العيش ومقومات الحياة وسط الاضطرابات التي سببتها
حالة الفوضى العسكرية والسياسية •

الروابط العامة في مجتمع غرب أوروبا

ان اختفاء الحكومة الكارولنجية القوية في القرن التاسع الميلادي ،
لم يؤد فقط الى تمزيق الوحدة السياسية للامبراطورية ، وانما أدى
أيضا الى فسخ الروابط التي ربطت مناطق أوروبا المستقلة بالحكومة
المركزية الكارولنجية • كما ان النظام الاقطاعي الذي بدأ في الظهور ،
والغزوات الجديدة التي تعرضت لها أوروبا، وفشل المثالية الكارولنجية —
كل هذا هدد الروابط الدينية والثقافية التي ربطت الأوروبيين الغربيين
معا • ومع ذلك ، فان التطور الديني والثقافي في النصف الأخير من
القرن التاسع وبواكير القرن العاشر للميلاد ، ترك بالفعل بعض القوى
الموحدة التي يجب أن يحسب حسابها •

لقد شاهد النصف الأخير من القرن التاسع الميلادي تطورا مستمرا
للعالم المسيحي الروماني • وان الموضوع الأساسي في التاريخ الكنسي
هو تحديد أكثر وضوحا لمطلب الكنيسة برعاية المجتمع الغربي • وتحت
قيادة الحكام الكارولنجهين العظام ، كانت العقيدة الرومانية والطقوس
الدينية والنظام الروماني قد انتشرت وسادت في معظم أنحاء الغرب •
كما كان هدف المجتمع النهائي الذي تأصلت جذوره ، هو العمل من أجل
تحقيق الغايات المسيحية • وقد رفع هذا الاتجاه من قدر الكنيسة
الرومانية ، ولكنه فرض عليها أيضا ثيودا معينة • فقد تصرف كل من
شارلمان ولويس التقى بالفعل ككاهن أعظم ، وقد تمتعا بحقوق وواجبات
تتعلق بتنظيم هيئة رجال الدين واصدار القوانين الدينية وفرض الحياة
الأخلاقية • ولكن بعد عام ٨٤٠ م استطاعت الكنيسة تأكيد استقلالها
الى درجة كبيرة ، باستغلال الفرصة التي اتاحت لها نتيجة انحلال
السلطة الكارولنجية • فجمعت بشجاعة مجموعات القوانين الكنسية

التي كانت تستهدف تدعيم النظام الكنسى • ولكن هذا ترتب عليه ، الى جانب ذلك ، مطالبة السلطة الكنسية بمختلف درجاتها توجيه النشاط السياسى • وقد ضمنت هذه القوانين ، بشكل متزايد ، للكنيسة حقها فى ادارة أملاكها الخاصة • والأهم من ذلك ، هى الروح البابوية التي انتعشت من جديد مطالبة بالاستقلال • وكان للبابوات ، على أساس الأحداث التي وقعت فى عهدى شارلمان ولويس التقي ، حق منح التاج الامبراطورى • وفى أواخر القرن التاسع الميلادى كانوا يختارون الأباطرة • كما نشطوا فى قمع المنازعات الأسرية التي كانت تنشور بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وفى توجيه اللوم الى الملوك على السلوك غير اللائق • وان دراسة متأنية لأعمال البابا نيقولا الأول (٨٥٨ — ٨٦٧ م) والبابا يوحنا الثامن (٨٧٢ — ٨٨٢ م) ، تكشف انهما قد نقضا الوضع الذى كان قائما أيام شارلمان ، ومفاده أن الكاهن هو حامي السلام والنظام والوحدة ، والملك هو خادم للكنيسة قدر له أن يعمل من أجل تحقيق هذه الغايات • ومع ذلك ، فقد تم كبح طموحات البابوية مبكرا فى القرن العاشر الميلادى عندما استطاع النبلاء الايطاليون المنتصرون السيطرة على البابوية وتحويلها الى اقطاعية يهبونها لمن يشاءون • ومنذ ذلك الحين تورط معظم الأساقفة تورطا شديدا فى النظام الاقطاعى ، وأصبحت مصالحهم الى حد بعيد محلية وخاصة •

ومع ذلك ، فقد أحرزت الكنيسة انتصارات هامة تهدف الى تحقيق استقلالها عن السلطة العلمانية وذلك قبل تطبيق النظام الاقطاعى على المجتمع الذى حول الدولة الى حالة من الفوضى • وعلى عكس ما حدث بالنسبة للتدخل والانهيال التامين للنظام السياسى ، حولت الكنيسة روحها النامية من أجل التحرر الى احساس مثمر بالمسؤولية عن مصير المجتمع • وأصبحت هذه هى القوة العظمى التي تشد من أزر الغرب ووحده • وقد تركزت روح التعليم الكنسى حول الاخاء بين المسيحيين ، والتزام الجميع بطاعة الله وما أعد سبحانه وتعالى لجميع الناس فى الحياة الأخرى • وان مقدرة الكنيسة على التحلل من ربط شخصيتها ربما

كاملا بالأسرة الكارولنجية ، بعد أن نسي الحكام الكارولنجيون العمل على تحقيق هذه المنل العليا ، جعلها المؤسسة الوحيدة الباقية التي ترمز للشخصية العامة للمجتمع الغربى • وفى هذا المقام لا يختلف العالم المسيحى الغربى كثيرا عن العالم الاسلامى • فقد كانت هناك ، أيضا ، اعتقادات وطقوس وقيم أخلاقية عامة لا تزال باقية تحمل سمات مجتمع يقوم على نظام يسوده الاضطراب فى القوى السياسية •

وقد عملت الكنيسة كقوة تدعو الى الوحدة بطريقة أخرى هامة فى أواخر التاسع الميلادى • فقد استمرت جهودها التبشيرية بين أولئك الذين عاشوا داخل اطار الغرب الأوروبى • واستطاعت أن تكسب باستمرار متتصرين جدد فى اسكنديناوه وبين السلاف الذين كانوا يقيمون فى شرق اوروبا ، وذلك رغم ما أملتة ظروف هذا العصر من متاعب • وقد نشر المبشرون الناجحون • وهم غالبا من جماعة الرهبان البندكتيين ، الطقوس والعقائد الغربية ، وبذلك أوجدوا الصلة بين المعتنقين الجدد للمسيحية والعالم « القديم » •

واستمرت الثقافة اللاتينية ، هى الأخرى ، تؤدى دورها كرباط عام خلال النصف الأخير من القرن التاسع الميلادى • ويمكن القول ، ولو على سبيل السخرية ، أن النهضة الكارولنجية قد أتت بعض ثمارها فى ذلك العهد • فبعد موت شارلمان تدهورت دائرة بلاطه اللامع ، وانتقل مركز النشاط الثقافى فى الامبراطورية الى الأديرة • وفى هذه الأماكن المنعزلة النائية ، استمر العمل على أساس النمط القديم • فكلت اللغة اللاتينية تدرس ، والكتب تنسخ ، والمقالات اللاهوتية تؤلف ، والتاريخ يكتب ، والسير والتراجم تدون • وقد جذب كل دير اليه الرواد من كل البلاد ، وأصبح على اتصال مستمر بالعلماء فى الأديرة الأخرى فى جميع أنحاء الغرب • وغدت أديرة الامبراطورية الفرنجية مأوى لعدد كبير من العلماء الذين اضطروا الى الهروب من انجلترا وايرلندا تحت ضغط هجمات الفيكنج ، وقد أحضر هؤلاء

اللاجئون معهم كتباً ثمينة أثرت مكتبات الأديرة ، ومجموعه من المواهب والمقدرات التي أدت الى تعميق وتنويع الحياة الفكرية والأدبية . وفي أواخر القرن التاسع وبدايات القرن العاشر الميلادي ، انتقل النشاط الدراسي والأدبي عبر القنوات الدينية أكثر مما كان سائداً في عصر شارلمان . وكانت المسائل اللاهوتية الأساسية تناقش بتمعن وروية ومهارة . وربما كان يوحنا سكوتوس اريجينا John Scotus Erigena الأيرلندي ، هو اللاهوتي الذي أثار السخط والغضب في ذلك العصر ، عندما تصدى لمشكلة القضاء والقدر والارادة الحرة . كذلك وضع باسكاسيوس رادبرتوس Paschasius Radbertus مؤلفاً هاماً عن طبيعة القربان المقدس ، مما أثار مناجحات حامية بين اللاهوتيين الآخرين . وقد تناولت مؤلفات أجوبارد Agobard ، وهنكمار Hincmar ، وجوناس Jonas ، وجميعهم من الأساقفة المشهورين ، ومشكلات تتعلق بالنظرية السياسية التي تختص بالعلاقات بين الكنيسة والدولة ، وطبيعة السلطة الملكية . كما ظهرت مؤلفات في التاريخ والتراجم ، وهي تتناول في معظمها بيوتات ديرية خاصة وقادة دينيين . وبالرغم من الاهتمام المتزايد بالدين ، فقد ظل هناك اهتمام حيوي بالعلوم الكلاسيكية اللاتينية . ويعتبر رابانوس ماوروس Rhabanus Maurus من الأشخاص الذين تركوا أثراً بالغاً في ذلك العصر . وهو تلميذ الكوين Alcuin . وقو نهج نهج استاذة فيما يتعلق بالتعليم والفنون الحرة .

وفي ظل هذه الظروف أكدت الكنيسة سيادتها على الحياة الثقافية التي تمتعت بها قبل النهضة الكارولنجية ، وأصبح بمقدورها ، مرة أخرى ، التشديد والتركيز على الآراء والأفكار التي تخدم مصالحها الخاصة . وإذا كانت الانجازات الثقافية في الغرب أثناء القرن التاسع وبدايات القرن العاشر للميلاد ، لم تستطع أن تنافس تألق العالين البيزنطي والإسلامي وقتها ، إلا أنها حافظت على الأقل على تقليد

يتعلق بالعلم والمعرفة وعلى نوع من التعليم كانا ، فى النهاية ، أساسا يؤكد من جديد نفوذها الثقافى فى غرب اوروبا .

وعلى أية حال ، لا يمكن استكمال صورة اوروبا الغربية فى اواخر القرن التاسع وبواكير القرن العاشر للميلاد ، دون الاشارة الى الأثر الذى تركه التنظيم السياسى والاجتماعى السىء على الحياة الدينية والثقافية فى ذلك العصر . فان تحول مجتمع علمانى الى مجتمع اقطاعى كان له انعكاس قوى على التنظيم الدينى آنذاك . فقد تحولت الوظائف الكهنوتية العليا الى اقطاعيات ، ونتيجة لذلك غالبا ما وضع النبلاء العلمانيون الطموحون الذين اهتموا أساسا بمكاسبهم المادية أيديهم عليها . وكان كبار رجال الدين الذين يهيمنون على تلك الوظائف الاقطاعية ، مطالبين بتقديم جميع الالتزامات المتعارف عليها فى النظام الاقطاعى ، بما فيها الواجب الأساسى وهو الخدمة العسكرية . وكثيرا ما وجدوا أنفسهم يستهينون بواجباتهم الروحية من أجل الأمور الدنيوية . وقد اشتكى كثير من أولئك الذين تناولوا الحياة الدينية فى القرن العاشر الميلادى بالشرح والتعليق ، بأن علمانية المراتب العليا فى الكنيسة أسهمت فى انهيار الحياة الروحية بين غالبية المسيحيين فى غرب اوروبا . كما نتج عن الحروب الأهلية وغزوات البرابرة فى القرنين التاسع والعاشر للميلاد ، تدمير كثير من الكنائس والأديرة ، وبصفة خاصة فى انجلترا وشمال فرنسا . ولم يكن بوسع العادات الاقطاعية النامية رفع روح التقوى والمسؤولية الاجتماعية والذوق الفنى أو الأدبى . وفى الحقيقة ، فان النبيل الاقطاعى فى ذلك العصر لم يوجه سوى قدرا ضئيلا من الرعاية للتهذيب الدينى والثقافى . ولذا افتقد غرب اوروبا فى هذا الدور الصعب القيادة النشطة التى كان قد تمتع بها فى القرن الثامن وبواكير القرن التاسع الميلادى ، عندما عمل الحكام الكارولنجيون والبابوات ورؤساء الأديرة كنقاط تجمع أو صمام أمن ضد الخطر القائم على الدوام ، والذى كان يتمثل فى الارتداد الى

البربرية • وكان ذلك يعنى أن النضال من أجل الحفاظ على أى قدر من الوحدة باسم الدين والثقافة ، قد أصبح أمرا ميئوسا منه •

وفي القرن الذى جاء بعد عام ٨٥٠ م ، ساعدت كل من المدينيات الثلاث العظيمة التى كانت قائمة حول حوض البحر المتوسط ، على ظهور قدر من الاختلافات الداخلية ، وبخاصة فيما يتعلق بالشئون السياسية ، لم تكن بادية للعيان من قبل • فقد انقسمت الحضارة الاسلامية وحضارة اوروبا الغربية الى دويلات عديدة مستقلة ، بل لقد انقسمت فى الغرب الى امارات اقطاعية عديدة • وامتد نفوذ بيزنطة السياسى حتى بات بمقدورها اجتذاب ممالك سلافية عديدة لتدور فى غلكها • وبذلك أوجدت مجموعة من الولايات التى تعيش معا ، ولو أن الامبراطورية البيزنطية نفسها ظلت محتفظة بوحدة قوية • ومع ذلك ، فإن ظهور الوحدات السياسية المختلفة داخل نطاق كل حضارة من تلك الحضارات (الثلاث) ، لا يعنى نهاية الكيان الأكبر ، أى نهاية الحضارة نفسها • اذ استمرت القوى الدينية والثقافية تربط هذه الوحدات السياسية الى درجة أن كلا من هذه الكيانات الثلاثة : اوروبا الغربية ، وبيزنطة ، والعالم الاسلامى — ظلت تحتفظ بصفاتها الفريدة الخاصة بها والتى تكونت منها حضاراتها •

خاتمة

بعد أن تتبعنا الأحداث الرئيسية التى أدت الى الانتقال من الحضارة الكلاسيكية الى الحضارات الثلاث الجديدة ، فيما بين نهاية القرن السادس والقرن العاشر للميلاد ، نختتم حديثنا ، مرة أخرى ، بإثارة السؤال الذى طرحه جريجورى الكبير فى بداية تلك الفترة ، وهو : ماذا تبقى بعد الآن من متع العالم ومباهجه بعد زوال روما ؟ ان أى فرد شاهد القرن العاشر الميلادى ، وعليم ببواطن الأمور بما يسمح له بتفهم الصورة الكاملة فى البلاد التى احتضنها فى يوم من الأيام الأسلوب الكلاسيكى فى الحياة ، باستطاعته أن يجد بعض الاجابات عن ذلك السؤال •

ويمكن لمثل هذا الشخص أن يدرك منذ البداية أن عصر جريجورى كان يتميز بالتشاؤم الشديد ، عندما استنتج أن الحضارة الكلاسيكية ، التى رمزت اليها روما ، قد اندثرت وولت • ولكن بقايا آثارها كانت فى القرن العاشر الميلادى متداخلة فى نظم وعادات وأفكار الناس الذين كانوا يعيشون فى منطقة شاسعة مقرامية الأطراف ، يحدها الأطلنطى فى الغرب ونهر اندوس فى الشرق • كما يحدها بحرى الشمال والبلطيق بشمالا • أما من الجنوب فتحدها منطقة ساحل شمال افريقية وبلاد العرب والفرس • وكانت الكنائس والمباني العامة فى كل مكان تعكس النماذج الكلاسيكية فى العمارة والزخرفة • وفى حجرات الدراسة ومكتبات العلماء والأديرة كانت مؤلفات افلاطون وارسطو وفرجيل وهوراس وغيرهم من كتاب اليونان والرومان القدماء ، مصدرا هائلا للوحى والالهام فيما يتعلق بالدراسات الفلسفية والعلمية والأدبية • أما بالنسبة لرجال الدولة والأمراء ، فقد كان القانون الرومانى هو الدليل للمبادئ الصحيحة لحرفة السياسة وتسيير أمور الدولة • وربما كان أشدها تأثيرا على من يمعن النظر فى أحداث القرن العاشر ، أن دلالات التراث الكلاسيكى قد وصلت الى ما وراء حدود عالم البحر المتوسط ، لتؤثر على أهل اسكنديناوه والبلغار والمورافيين والروس الذين كان الرومان القدماء لا يكادون يعرفون عنهم شيئا ، وربما لم

يكونوا يعرفونهم على الاطلاق • وان أحد الانجازات العظيمة التي تحققت في عصر ما بعد جريجورى ، كان المجهود الناجح للشعوب المختلفة العديدة في سبيل انقاذ العناصر الهامة للحضارة الكلاسيكية الآخذة في الانقراض ، بما يتمش ومصلحتها • وقد أسمت هذه البقايا بدرجة غير قليلة في ابراز « مباحج » عالم القرن العاشر الميلادى •

ومع ذلك ، فان المدقق في القرن العاشر سوف يدرك قطعاً أن فيه « أمجاداً » لا تستند على بقايا التراث الكلاسيكى • وآية ذلك تلك المدن العظيمة التي ترجع الى ذلك العصر • فقد كانت القسطنطينية في عهد بازيل الثانى لها تأثير وحيوية اثينا زمن بركليس أو الاسكندرية الهلينية أو روما في عهد اوغسطس • وقد رمزت أسوارها القوية العظيمة التي كانت سدا حاجزا منيعا ضد حشود الأعداء ، الى قوة الامبراطورية التي تحكمها تلك المدينة • وان القسطنطينية بسكانها المليون ، والذين يتفاوتون بين الثراء الفاحش الذى لا يصدق العقل وبين الفقر المدفع ، قد عاشوا حياة مثيرة ملؤها العزم والتصميم ، وهم يشعرون بالأمن والأمان داخل اطار زمانهم ، دون لهفة لا داعى لها لعصر كلاسيكى أعظم وأفضل مما هم فيه • وكان الامبراطور (البيزنطى) صاحب الجلالة المعين من قبل الله ، يعيش مع بطانته المتألقة في القصر المقدس الفخم ، وهو يحب رعاياه ويرعاهم • كما أبعد الخطر عن المدينة ذلك الاسطول العظيم الواقف في ميناء « القرن الذهبى » ، والحرس الامبراطورى المقيم في العاصمة • وان الحوانيت التي لا عد لها ، والمزودة بالمواد الخام التي ترد من جميع أجزاء العالم المتحضر ، والتي يرتادها التجار بحثا بكن شغف عن المنتجات المصنوعة بمهارة ، لبيعها في الخارج ، قد أتاح الفرص الكافية لكسب لقمة العيش • كما كان آلاف من الكهنة ومئات الكنائس الجميلة تمد الناس بالغذاء الروحى • وكان الرهبان في الأديرة ذات القلالى المبعثرة في جميع أنحاء المدينة ، يصلون من أجل الخطاه والحزاني ، بينما عمل العلماء في الجامعة العظيمة على زيادة ادراكهم بطرق الله نحو الانسان • وكان التحرر من

روتين الحياة العادية يتمثل في مباريات السباق والمباريات الرياضية في ملعب الهيدروم ، وكذلك في المواكب والاحتفالات البهيجة التي تجوب الشوارع كل يوم • ولا يوجد سوى القليل من المدن ، على امتداد التاريخ ، التي استطاعت أن تبلغ ما بلغت القسطنطينية من ثراء وتنوع في الحياة في القرن العاشر •

وما قيل عن القسطنطينية يمكن أن يقال عن المدن الرئيسية في العالم الاسلامي ، مثل بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق • فكانت المساجد الرائعة والقصور المزخرفة تضيئ سحرا وجمالا على كل منها • وكان بلاط الأمراء الحاكمين مبهرًا للبصر ومثيرًا للغاية • وكانت أسواقها وحوالياتها عامرة بالمنتجات الأجنبية ، كما تدفقت شعوب العالم المتحضر وهي تتراحم في مشاهد يعجز عنها الوصف ، حيث الضجيج والحركة والاسراف • ولما كان الغرب الأوروبي يتميز بوضعه المتخلف ، فلم يكن بوسع الادعاء بأن له عواصم عظيمة ، وذلك باستثناء روما التي لاتصل الا بالكاد الى عالمية القسطنطينية أو بغداد • بل كانت ، أساسا ، مركزا دينيا ، ومقرا للبابوية وكنيسة القديس بطرس العظيمة التي كانت تجذب اليها أعدادا من الحجاج من جميع أجزاء العالم المسيحي الغربي • وان تواجدهم في المدينة ، الى جانب أوجه النشاط التي مارسها الطبقة الأرستقراطية المحلية المثيرة للاضطراب ، جعل المدينة تعيش في الضوضاء والغليان • ولكن لم يوجد فيها ما يمكن مقارنته بما وجد في المدن الشرقية • وكان الغرب منعزلا ، الى درجة كبيرة ، عن بقية العالم بسبب صعوبة السفر ومخاطره • كما كان يفتقد الثروة والتجارة ، وتلك الدائرة الواسعة من المهارات الفنية التي تؤدي الى تجمع الناس سويا في أعداد كبيرة • وحتى باريس ولندن كانتا مدينتين متواضعتين ، اذ سيطر عليهما المحاربون الاقطاعيون أو الأساقفة • وان مصر العاصمة الكارولنجية ، وهي مدينة آخن ، يعتبر نموذجا لحياة المدينة في الغرب • فبدلا من أن تكون روما جديدة كما كان يتوقع شارلمان ، ظلت مجتمعا

صغيرا غطط يشعر بالاختناق لحاجته الى التجارة والصناعة ، وبسبب القوضى السياسية التى تعمقت جذورها هناك •

وحتى خارج نطاق مدن القرن العاشر العظيمة ، كانت هناك دلالات على أنه مازالت توجد مباحج فى العالم • فقد اشتكى جريجورى العظيم أن الحقول التى رآها كانت بورا قاحلة • ومن الصعوبة بمكان الأخذ بهذه الشكوى بالنسبة للقرن العاشر • فان الفلاحين الأحرار الأثداء فى بيزنطة ، الذين تولت الحكومة الامبراطورية أمر حمايتهم ، والذين ساهموا مساهمة شخصية فعالة فى الدفاع عن الامبراطورية ، كانوا ينعمون برخاء ملحوظ • وان المزارع الغنية التى امتدت فى وديان دجلة والفرات والنيل ، حيث أحيا الحكام المسلمون من جديد نظم الري ، لم تعد منتجة بعد الآن • وكانت البساتين وحقول القمح الغنية فى اسبانيا موضع اعجاب كل من مر بها • وكان النظام الاقطاعى فى معظم أنحاء الغرب الأوروبى ، بعد انشاء اقطاعيات واسعة قام بفلاحتها أرقاء من الفلاحين ، قد حقق درجة كبيرة من الاكتفاء الذاتى • وفى الواقع ، لم تكن قوة الانتاج عالية فى معظم الاقطاعيات ، لأن اقتصاد الغرب الأوروبى لم يعط أى فرصة لفائض فى الانتاج • كما كانت لاتزال توجد مساحات شاسعة بين الاقطاعيات غير منزرعة على الاطلاق • ورغما عن ذلك ، ففى داخل كل قرية اقطاعية كان هناك قدر لا بأس به من الأمن الاقتصادى والاستقرار الاجتماعى ، جعل حياة الملاح أمرا محتملا ، بل وعامرا بالرخاء فى بعض هذه الاقطاعيات • وكان الرهبان البندكتيون ، بصفة خاصة ، أصحاب دخول كبيرة بسبب الاقطاعيات الديرية الجديدة ، بالاضافة الى تطوير أساليب زراعية جديدة ، وعلى وجه الخصوص فى تلك الجهات التى كانوا قد وفدوا اليها كمبشرين • وبذلك كانت ثمة علامات بأن نهاية العصر الكلاسيكى لم تكن تعنى الفقر التام بالنسبة لمن قاموا بحراثة الأرض وفلاحتها ، أو بالنسبة لأولئك الذين اعتمدت معيشتهم على الزراعة • ففيما بين القرنين

السادس والعاشر للميلاد ، أعيد بناء الحياة الزراعية على أساس مرض .

وإذا دققنا فيما وراء مظاهر الحياة اليومية ، سوف نكتشف ، بكل تأكيد ، أن القرن العاشر الميلادي كانت له موارد الخاصة الروحية والأخلاقية والفكرية ، التي جلبت أيضا البهجة للعالم . فان الاسلام الذى لم يعرفه جريجورى العظيم ، قد أعطى لحياة الملايين معنى وأسبغ عليهم الرعاية . كما أن المسيحية نفسها كان قد اتسع نطاق نفوذها لاقليمى وزادت سلطتها ، وأثرت حياة المؤمنين بها فى القرون المضطربة التى أعقبت بابوية جريجورى . وقد أمدت أفكارها كل من بيزنطة والعرب بالارشاد والالهام لاهياء العلم والتعليم . كذلك سرت آراؤها ومفاهيمها فى النظم السياسية والعادات الاجتماعية والحياة الأسرية والأخلاق ، لتمد النظام الاجتماعى بالتوجيه والمغزى . وكان التنظيم المسيحى فى بيزنطة يشكل قوة لها وزنها تدعو الى الوحدة ، وتؤيده فى ذلك السلطة العلمانية . كما كان حلقة وصل حيوية بين الامبراطورية وتوابعها فى العالم السلافى . أما فى غرب اوروبا ، فكانت هناك الكنيسة العالمية وعلى رأسها البابا ، وكانت تمثل فعلا الرابطة الوحيدة التى تربط الوحدات السياسية الناشئة بعضها ببعض . وان القداس الجميل الذى كان يقام فى الكنائس العظيمة ، مثل كنيسة أيا صوفيا فى القسطنطينية ، أو كنيسة القديس بطرس فى روما ، والذى كان يقام أيضا فى الكنائس الصغرى التى لا تتميز بالفخامة فى سكسونيا وبلغاريا وروسيا وانجلترا — ان هذا القداس جعل الناس أكثر قربا من الله ، ورفع من روحهم المعنوية وسط تعاسات العالم وآلامه الجاثمة دوما فوق صدورهم . ولقد امتزج السلوك والعادات المتأصلة لكل من الجرمان والعرب والسلاف والأتراك ، بأساليب المجتمع الكلاسيكى الذى كان أكثر استقرارا ورصانة وتحضرا ، الأمر الذى أنعش الحياة وعمل على توسيع المدارك والآفاق واشباع نفوس الملايين من ورثة الحضارة الكلاسيكية . وقد ساهم هؤلاء الناس « الجدد » جاheids ،

في بعض الحالات ، في إعادة بناء الصرح السياسي والاجتماعي . كذلك تأثر الاقطاع في غرب اوروبا تأثرا شديدا بخبرات السادة الجرمان الذين كانوا يتعشقون الحروب ، مثلما تأثر بالنظم القانونية التي كانت سائدة بينهم . وتلون الشعر المتألق في العصر العباسي بنفسية وقيم القبائل العربية التي كانت تعيش حياة البداوة .

وأمام كل هذه الشواهد الدالة على انجازات القرن العاشر المادية والروحية ، سوف يستنتج الملاحظ المدقق أن نهاية العالم القديم لم تكن نهاية جميع العوالم المتحضرة . وسوف يدرك أن النظم السياسية ، والأفكار والمذاهب الدينية ، وطرق التفكير ووسائل التعبير ، والتنظيمات الاقتصادية والاجتماعية التي تشكلت في القرون الوسطى المبكرة لتحل محل النظام القديم ، كانت جميعها بمثابة أساس سليم ومرض بالنسبة للحياة الحاضرة وأحلام المستقبل لأناس احتوتهم هذه الحضارات الثلاث .

وفي الحقيقة ، فإن الأساليب الجديدة للمعيشة كانت جميعها مختلفة عن النظام اليوناني — الروماني ، وكان كل أسلوب منها مميزا عن الآخر . وتميط هذه الحقيقة اللثام عن العصور الوسطى المبكرة ، تلك العصور التي يشار إليها بطريقة خاطئة بأنها العصور المظلمة . وان الاختلافات والفروق التي جعلت عالم القرن العاشر الميلادي بمعزل عن العصر القديم ، والتي ميزت الحضارات البيزنطية والاسلامية والأوروبية الغربية عن بعضها ، كانت نتيجة مجهود خلاق بذل في القرون التي جاءت بعد عام ٦٠٠ م . فقد كان محمد (ﷺ) ، وشارلمان ، وجستيان ، وفوتئوس ، وجريجوري الكبير ، وهارون الرشيد روادا . وهكذا كان المحاربون العرب ، والفلاحون البيزنطيون ، ونبلاء الفرنجة ، والرهبان البندكتيون ، وأرقاء الأرض في اوروبا الغربية . لقد شاركوا جميعا في اكتشاف الأساليب الجديدة لكل شيء وعملوا على تطويرها

وتحسينها ، كما ساهموا في عملية البناء التي على أساسها أقيمت الحياة المتحضرة .

وبوسع المدقق في القرن العاشر الميلادي أن يقول دون تردد أنه كانت توجد متع ومناهج كثيرة في العالم . وربما تعتريه الدهشة من أن الحضارات القائمة حوله كانت عامرة بالبهجة مثلما كانت الحضارة الكلاسيكية من قبل . ولاشك أنه سمع أناسا حوله يتجادلون ان كانت الدولة البيزنطية أو الاسلام أو اوروبا الغربية ، قد هيأوا أفضل الظروف والأوضاع للبشرية ، من حيث البهجة والبهاء والتقوى . ولكن شيئًا واحدًا لا يمكن الجدل بشأنه أو النزاع فيه ، وهو أن الحضارة لم تمت بزوال روما . لقد انبثقت في أشكال جديدة مختلفة من بين رماد روما لتنتقل ببني البشر الى مرحلة جديدة من مراحل التاريخ .

جدول زمانی مرکز

- ٤٨٠ — ٥٤٣ م فترة حياة بندكت اوف نرسيا مؤسس النظام
البندكتى .
- ٤٨١ — ٥١١ م فترة حكم كلوفيس مؤسس الأسرة الميروفنجية في
مملكة الفرنجة .
- ٥٢٧ — ٥٦٥ م عهد الامبراطور جستنيان الأول .
- حوالى ٥٧٠ — ٦٣٢ م فترة حياة محمد (ﷺ) .
- ٥٩٠ — ٦٠٤ م فترة بابوية جريجورى العظيم .
- ٦١٠ — ٦٤١ م عهد الامبراطور هرقل .
- ٦٢٢ م هجرة الرسول (ﷺ) من مكة .
- ٦٣٤ — ٧١٣ م عصر الفتوحات الاسلامية .
- ٦٦١ — ٧٥٠ م الدولة الأموية .
- ٦٧٣ — ٧٣٥ م فترة حياة بيده .
- ٦٨٠ م المجمع المسكونى السادس فى القسطنطينية للبت فى
مسألة الخلاف حول طبيعة المسيح .
- ٧١١ — ٧١٣ م غزو المسلمين لاسبانيا .
- ٧١٤ — ٧٤١ م شارل مارتل وزير البلاط فى دولة الفرنجة .
- ٧١٧ — ٧٤١ م فترة حكم الامبراطور ليو الثالث الأيسورى .
- ٧١٧ — ٧١٨ م فشل الحصار الاسلامى للقسطنطينية .
- ٧٢٦ م بداية الحركة اللايقونية .
- ٧٣٢ م معركة تورز ، الفرنجة يصدون التوسع الاسلامى .
- ٧٣٥ — ٨٠٤ م فترة حياة الكوين .
- ٧٤١ — ٧٦٨ م بين القصير كوزير للبلاط فى دولة الفرنجة، ثم ملكا .

- ٧٥٠ — ١٢٥٨ م فترة حكم الخلافة العباسية •
- حوالى ٧٥٠ — ١٠٠٠ م العصر الذهبي للثقافة الاسلامية •
- ٧٥١ م انتخاب بين القصير أول ملك كارولنجى على الفرنجة •
- ٧٥٥ م « هبة بين » وتأسيس الدويلات البابوية فى ايطاليا •
- ٧٦٨ — ٨١٤ م فترة حكم شارلمان •
- ٧٧٢ — ٨٠٥ م شارلمان يغزو السكسون ويحولهم الى المسيحية •
- ٧٧٤ م شارلمان يغزو مملكة اللباردين فى ايطاليا •
- حوالى ٧٨٠ — ٨٥٠ م النهضة الكارولنجية •
- ٧٨٠ — ٨٥٠ م فترة حياة الخوارزمى عالم الرياضيات المسلم •
- ٧٨٦ — ٨٠٩ م فترة حكم الخليفة هارون الرشيد أعظم خلفاء العباسيين •
- ٧٩٦ م شارلمان يدمر امبراطورية الآفار •
- ٨٠٠ م البابا ليو الثالث يتوج شارلمان امبراطورا •
- حوالى ٨٠٠ م ابتلاء غرب اوروبا بغارات الفيكنج •
- ٨١٤ — ٨٤٠ م فترة حكم الامبراطور لويس التقى ، وبداية انهيار الامبراطورية الكارولنجية •
- ٨٤٣ م معاهدة فردان وتقسيم الامبراطورية الكارولنجية •
- ٨٤٣ م نهاية النزاع اللأيقونى •
- حوالى ٨٥٠ م بداية التفكك فى العالم الاسلامى •
- حوالى ٨٥٠ م بداية النمو السريع للاقطاع فى غرب اوروبا •
- ٨٥٨ — ٨٦٧ م
- و ٨٧٧ — ٨٨٦ م ؟ فترة بطرياركية فوتيوس •

- ٨٦١ م بداية تحول المورافيين الى المسيحية على يد المقوقس ومتوديوس •
- ٨٦٤ م بداية اعتناق البلغار للمسيحية على يد المبشرين البيزنطيين •
- ٨٦٥ — ٩٢٥ م فترة حياة الرازي ، الحجة المسلم في الطب •
- ٨٦٧ — ١٠٤٦ م فترة حكم الأسرة المقدونية للامبراطورية البيزنطية ، العصر الذهبي لبيزنطة في القرون الوسطى •
- ٨٧١ — ٨٨٩ م فترة حكم الملك الفريد الكبير في انجلترا •
- ٨٨١ — ٨٨٨ م فترة حكم شارل السمين آخر كارولنجي يحكم الامبراطورية الموحدة •
- ٨٩٣ — ٩٢٧ م فترة حكم سمعان مؤسس أول امبراطورية بلغارية •
- ٩٢٩ م تأسيس خلافة اسلامية منفصلة في اسبانيا •
- ٩٦٩ م اقامة الخلافة الفاطمية في مصر •
- ٩٧٦ — ١٠٢٥ م فترة حكم الامبراطور بازيل الثاني •
- ٩٨٠ — ١٠٣٧ م فترة حياة ابن سينا الحجة المسلم في الطب والفلسفة •
- ٩٨٨ أو ٩٨٩ م اعتناق فلاديمير الروسي الديانة المسيحية •

اقتراحات لمزيد من القراءة والاطلاع

ثمة مراجع مفيدة باللغة الانجليزية ، تعالج موضوع الحضارات
الثلاث معا في فترة العصور المبكرة ، وهى :

- Moss, H. St. L.B., The Birth of the Middle Ages, 395-814,
Oxford, 1934. (1)

وهو أفضلها •

- Deanesly, M., A History of Early Medieval Europe, 476 to 911,
London, 1956.
— LaMonte, J. L., The World of the Middle Ages New York. 1949.

وهما ، أيضا ، من الكتب المفيدة ، بالرغم من أن أولهما لا يزود القارئ
بمعلومات دقيقة وافية عن تاريخ كل من بيزنطة والاسلام •

- Cambridge Medieval History, Cambridge, Eng., 1936.

ومجموعة كامبريدج لتاريخ العصور الوسطى هى ثمرة عمل جماعى
مشترك بقلم عديد من العلماء المبرزين فى العالم • وهذا ، ويبدو فى
الجزئين الثانى والثالث الاجتهاد •

وبالنسبة لأولئك الذين يستخدمون اللغات الأجنبية غير الانجليزية،
توجد كتب عديدة ممتازة ، ومن بينها كتاب لويس هالفن بصفة خاصة •

- Halphen, L., Les barbares des grandes invasions aux conquêtes
turques du XIe siècle, in Peuples et civilisation :
Histoire générale, ed. Louis Halphen and Philippe Sagnac. Vol.
V; 5th ed., Paris, 1948.
— Halphen, L., Das Mittelalter bis zum Ausgang der Staufer, 400 -
1250, in Propyläen Weltgeschichte, Vol. III; Berlin, 1932.

(١) نقل لى اللغة العربية تحت عنوان : موسى (هـ) : ميلاد العصور الوسطى
٣٩٥ — ٨١٤ — ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد — راجعه الدكتور
الباز العرينى — القاهرة ١٩٦٧ . [المترجم] •

وهناك مؤلفات تفصيلية عن الامبراطورية ، هي =

- Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire, 324 - 1453, 2nd Eng. ed., rev.; Madison, Wis., 1952.
- Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Oxford, 1956; New Brunswick, N.J., 1957.

ويمكن أن نضيف اليهما مؤلفى بيورى الرائعين :

- Bury, J. B.,
1 — History of the Later Roman Empire, 395 - 565, 2 vols.; London, 1923; Dover paperback. 1958.
2 — History of the Eastern Roman Empire, 802 - 867, London, 1912.

ويتضمن كتاب جوان هاسى دراسة موجزة تزود القارئ بعرض سريع لتاريخ بيزنطة السياسى ، مع معالجة موضوعية للنظم البيزنطية :

- Hussey, J. M., The Byzantine World, London, 1957. (٢)

ومن المراجع الهامة ، أيضا ، مايلى :

- Baynes, N. H., The Byzantine Empire, London, 1925. (٣)
- Runciman, S., Byzantine Civilization, London, 1933; Meridian Books, 1956.

وقد تناول التاريخ الاسلامى تناولاً جيداً كل من فيليب حتى وكارل بروكلمان :

- Hitti, P. K., History of the Arabs from the Earliest Times to the Present, 6 th, ed.; London, 1956.
- Brockelmann, C., History of the Islamic Peoples, New York, 1947.

(٢) نقل الى اللغة العربية تحت عنوان : هسى (ج.م.) العالم البيزنطى — ترجمة وتقديم وتعليق دكتور رافت عبد الحميد — القاهرة ١٩٧٧ .

[المترجم]

(٣) نقل الى اللغة العربية تحت عنوان (ن) : الامبراطورية لبيزنطية تعرب دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد — القاهرة ١٩٥٠ .

[المترجم]

أما كتاب برنارد لويس ، وان كان أقل حجماً ، إلا أن له وزنه :

— Lewis, B., The Arabs In History, London, 1950.

وناقش كل من هاملتون جب و أ. جويوم الملامح الرئيسية للدين
الإسلامي باختصار :

— Gibb, H. A., Mohammedanism : An Historical Survey, 2 nd ed.;
New York and London, 1953; New American Library, 1949.

— Guillaume, A., Islam, 2nd ed. rev.; Harmondsworth, Eng., 1956;
Penguin Books, 1954,

وتوجد تراجم عديدة للقرآن الكريم باللغة الانجليزية ، وبخاصة
ترجمة ن. ج. داود N.J. Dawood في مجموعة بنجوين
Penguin Books

هذا ، وقد ألهمت مشاكل الغرب الأوروبي في العصور الوسطى
المبكرة الأقلام ، الأمر الذي تمخض عنه صدور العديد من الكتب الهامة
خلال السنوات الأخيرة ، نذكر من بينها :

— Pirenne, H., Mabomet and Charlemagne, London, 1939; Meridian
Books, 1957.

— Dawson, C., The Making of Europe, New York, 1945; Meridian
Books, 1956.(1)

— Burns, C. D., The First Europe : A Study of the Establishment
of Medieval Christendom, A. D. 400-800. New York, 1948.

— Davis, R. H. C., A History of Medieval Europe from Constantine
to St. Louis, London, 1957.

— Wallace-Hadrill, J. M., The Barbarian West, 400-1000, London,
1952. (2)

-
- (١) له ترجمة بالعربية تحت عنوان : دوسن (ك .) : تكوين أوروبا —
ترجمة ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زبادة والدكتور سعيد عبد
الفتاح عاشور — القاهرة ١٩٦٧ — [المترجم] .
- (٢) له ترجمة بالعربية تحت عنوان : والاس — هادريل : أوروبا في صدر
العصور الوسطى (٤٠٠ — ١٠٠٠ م) — تعريب وتقديم وتعليق
الدكتورة حياة ناصر الحجي — الكويت ١٩٧٩ . [المترجم] .

وثمة مراجع تتناول مواضيع أكثر تخصصا ليست في صميم دراستنا ، ومع ذلك فهي تمتاز بقيمتها الفائقة فيما يتعلق بشرح وتفسير الفترة موضوع الدراسة ، وهي :

- Lot, F., The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages, New York, 1931.
- Dopsch, A., The Economic and Social Foundations of European Civilization, New York, 1937.
- Bark, W. C., Origins of the Medieval World, Stanford, Calif., 1957.

ويمدنا كتاب صموئيل ديل بدراسة تفصيلية للأوضاع الاجتماعية والفكرية خلال العصر الميروفنجي المضطرب :

- Dill, Sir S., Roman Society in Gaul in the Merovingian Age, London, 1926.

وبالنسبة للتاريخ الكارولنجي ، فإنه لم يلق حظه من الدراسة المناسبة الواهية باللغة الانجليزية ، وأفضل كتاب عنه باللغة الفرنسية هو :

- Halphen, L., Charlemagne et l'empire carolingien, Paris, 1947.

هذا ، وقد تناول ف.م. ستنتون تاريخ انجلترا ابان تلك الفترة ، بمهارة :

- Stenton, F. M., Anglo-Saxon England, 2 nd ed., Oxford, 1947.

وعالج جبريل ترفيل بترى تاريخ الفيكنج :

- Turville - Petri, G., The Heroic Age of Scandinavia, London, 1961.

كما عالج فرنسوا لويس جانز هوف ، بوضوح ، المشاكل المعقدة المتعلقة ببدايات الاقطاع :

- Ganshof, F. L., Feudalism, New York, 1952.

وطالما أن المسائل الكنسية تظهر بوضوح في فترة تاريخ العصور المبكرة ، فإن المؤلفات المتعلقة بتاريخ الكنيسة تتميز بقيمتها الفائقة بالنسبة لقارىء • وهناك كتابان مفيدان ، بصفة خاصة ، في هذا الشأن ، هما :

- Latourette, K. S., A History of Christianity, New York, 1953.
- Hughes, P., A History of the Church, Vol. I, 2nd ed.; New York, 1949.

والكتابان يركزان على تطور المسيحية في غرب أوروبا ، ويوجهان بعض الاهتمام الى المسيحية في الدولة البيزنطية • ويمكن أن نضيف اليهما الكتاب التالي :

- French, R. M., The Eastern Orthodox Church, London, 1951.

أما كتاب جوستاف شنير ، فهو مليء بالآراء الحية عن دور الكنيسة كعامل حضارى في غرب أوروبا :

- Schenker, G., Church and Culture in the Middle Ages, Vol. I, Patterson, N. J., 1956.

ولا يمكن للباحث المتعمق في تاريخ الكنيسة اغفال واحد من الاعمال الخالدة في العصر الحديث :

- Fliche, A. & Martin, V. (eds.), Histoire de l'église depuis les origines jusqu'à nos jours, Paris, 1934 sqq.

وقد أسهم في كتابة الأجزاء الخامس والسادس والسابع العديد من الثقات ، وهى تغطى الفترة التى تناولناها في هذا البحث • ومن المراجع المفيدة في المشكلة المعقدة للتاريخ الثقافى الكتاب التالي :

- Artz, F. B., The Mind of the Middle Ages, A. D. 200-1500, 2 nd ed.; New York, 1954.

وهو يزود القارئ بمجمل واضح للنشاط الثقافي في كل من الغرب
الأوروبي والدولة البيزنطية والعالم الاسلامي .
ومن الكتب الطيبة في التاريخ الثقافي للغرب الأوروبي كتاب :

— Laistner, M. L. W., *Thought and Letters in Western Europe, A. D. 500-900*, rev. ed; Ithaca, N.Y., 1957.

ومن المراجع المثيرة للراء والقضايا كتاب هنري أوسبون تايلور :

— Taylor, H. O., *The Mediaeval Mind*, Vol. I, 4 th ed.; New York, 1925.

أما المراجع التالية فدأثرتها أوسع من الفترة الزمنية التي تناولتها
هذه الدراسة :

— Baynes N. H. & Moss H. St. B; (eds.), *Byzantium : An Introduction to East Roman Civilization*, Oxford, 1948.

— Arnold, T. & Guillaume, A. (eds.), *The Legacy of Islam*. Oxford, 1931.

— Grunebaum, G. E. von (ed.), *Medieval Islam : A Study in Cultural Orientation*, 2 nd; Chicago, 1953.

والكتاب الأخير مفيد فيما يتعلق بتقييم الدور الثقافي للعالمين البيزنطي
والاسلامي .

ومن المؤلفات القيمة عن مكانة السلاف في تاريخ تلك الحقبة من
الزمن كتاب :

— Dvornik, F., *The Making of Central and Eastern Europe*, London, 1949.

ومن المراجع الجيدة ، بصفة خاصة ، في تاريخ روسيا المبكر ،
ما يلي :

— Vernadsky, G.,

1 — *Ancient Russia*, New Haven, Conn., 1943.

2 — *Kievan Russia*, New Haven, Conn., 1948.

كشاف

باسماء الاعلام والأماكن والمصطلحات

(١)

ارسطو : ١٦٥ ، ٢٠٧	ابن رشد : ١٦٥
ارثيبالدلوييس : ١٣	ابن سينا : ١٦٤ ، ١٦٥
ارمينية : ٥٢ ، ٧٢ ، ٨٦ ، ١٧١	ابرو (نهر) : ١١٢
اسبانيا : ١٨ ، ٢٤ ، ٤٢ ، ٤٩	ابو بكر : ٧٠
٥٠ ، ٥٥ ، ٧١ ، ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٦	الأتراك (الترك) : ١٥٩ ، ٢١١
١١٢ ، ١١٥ ، ١٣١ ، ١٣٦ — ١٣٨	اثناسيوس : ١٦
١٥٩ — ١٦٢ ، ٢١٠	آثوس (جبل) : ١٧٧
اسرة بنى العباس : ١٣٣	اثينا : ٢٠٨
الأسرة الايسورية : ١٨ ، ٢٦	اجناتيوس : ١٧٣ — ١٧٥
٢٧ ، ٦١ •	اجوبارد : ٢٠٢
الأسرة العامورية : ٢٦ ، ٢٧	الاحاديث النبوية الشريفة : ٢٤ ،
اسرة السكسون : ٣٤	١٣٩ ، ٦٧ ، ٦٤
اسرة كابية : ٣٤	آخن : ١٩ ، ١٠٩ ، ١١٥ ، ١١٩ —
الأسرة الكارولنجية : ١١ ، ١٧	١٢١ ، ٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ،
٩٧ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٨	٢٠٩
١٠٩ ، ١١٦ ، ١٢٢ ، ١٩٢ ، ٢٠١	الأخوان البندكتان : ١٢٠
الأسرة الميروفنجية : ١٧ ، ٧٩	الاديرة البندكتية : ١٧ ، ٣٦ ، ٩٤ ،
١٠٠ ، ١٠١	١١٦
الأسرة المقدونية : ٣١ ، ٣٣ ، ١٥٥	الاديرة البيزنطية : ١٧٦ ، ١٨٠ ،
١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٧ — ١٨٠	١٨٥
١٨٥	الاديرة الكارولنجية : ١٤١
اسرة هرقل : ٥٦ ، ٦١	الاديرة الايرلندية : ٩٤
الأسندر الاكبر : ٤٥	ادريان الأول : ١٨
الاسكندرية : ١٦ ، ٤٣ ، ٢٠٨	الأرثوذكس : ٩
اسكتديناوه : ٢٠١ ، ٢٠٧	الأراضى المقدسة : ٨٦ ، ١٣٧
الاسلام : ٩ ، ١٠ ، ٢٤	الارساليات الدينية : ٨٧ ، ٩٠ ،
٣٠ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٣ ، ٦٦ ، ٦٧	١٠٤
٦٨ ، ٧٠ ، ٧٣ — ٧٧ ، ٨٢ ، ٩٧	
١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ —	

الامارات السلافية : ١٣٦ ، ١٧٠	١٦٣ ، ٢١١ ، ٢١٣
الامبراطورية : ٢٨ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ١٢١	آسيا : ١٧ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ١٨٣
امبراطورية تانج : ٧٢	آسيا الصغرى : ٩ ، ١٤ ، ٣٣ ، ١٣٦ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦٢ ، ١٣٦
الامبراطورية الرومانية القديمة :	١٤٢ ، ١٧٠
٥ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ — ١٤ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٧٧	الاشتقاقات (دائرة معارف) : ٩٤
٨٧ ، ٨٢ ، ٧٩	اشبيلية : ٩٤
الامبراطورية الرومانية الشرقية	الاغريق : ١٦ ، ٢٥ ، ٣٤
(انظر الدولة البيزنطية) : ١٨ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٤٣ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٧٤	الآفار : ٩ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٧ ، ٩٩ ، ١١٢ ، ١١١
الامبراطورية الرومانية الغربية	افريقية : ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧١ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ٨٦ ، ١٥٩
المقدسة : ١٨ ، ٢٧	١٦٠ ، ١٨٣ ، ١٨٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٧
الامبراطورية الكارولنجية : ٣٤ ، ١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٥٥ ، ١٨٦ ، ١٨٩	افغانستان : ٧١
١٩٣ ، ١٩٥ ، ١٩٦	افلاطون : ٢٠٧
الامبراطورية الفارسية : ٥٢ ، ٧٠	الاقتصاد الطبيعي : ٢٠ ، ٢١ ، ٣٤
امريكا الشمالية : ٩٣	الاقتصاد النقدي : ١٢ ، ٢١ ، ٢٨ ، ٣٣
امير المؤمنين : ١٥٨	اقتانيا : ١٢١
امير الأمراء : ١٥٩	الاقطاع : ١٢ ، ٢٠ ، ٣٤ ، ٢١٢
أمير القصر : ١١	اكس لاشابل : ٢٢
الاناضول : ١٤٤ ، ١٤٥	اكويتانيا : ١١٢
الانبياء العبرانيون : ٦٧	الآلب (جبال) : ١٠٧ ، ١٨٩ ، ١٩١
انجلترا : ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٤	ألبرت ماليه : ٢٢
١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢١١	ألفريد الكبير : ١٩٣
	المانييا : ١٧ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ، ١٩٦
	الكوين العظيم : ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ٢٠٢

بروفهيدا : ٨٥	الباريليك (قانون) : ١٢٨ ، ١٦٨
بريتاني : ١١٢	باسكاسيوس رادبروتس : ٢٠٢
بريطانيا : ٤٣ ، ٧٨ ، ١٨٧	الباريون : ١١٢
البسفور : ٤٠ ، ١٠٠	بافيا : ١١٠
بترس : ٢٨ ، ١٠٥ ، ١١٥	بالاديوس : ١٦
بطريق القسطنطينية : ٢٦	بين القصير : ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٣ ،
بغداد : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٣ ،	١٠٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٧ ، ١١٩
١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٥٨ ،	بين هرستال : ١٠١ ، ١٠٤
١٥٩ ، ١٦٠ ، ٢٠٩	البشنج : ١٧٠
بلاد العرب : ١٦٠ ، ٢٠٧	البحر الأسود : ١٨٥
بلاط الشهداء (تورز — بواتييه) :	بحر البلطيق : ١٨٥ ، ١٨٩ ، ٢٠٧
٧١	بحر الشمال : ٣٤ ، ١١١ ، ١٨٩ ،
البلغار : ٣١ ، ٣٣ ، ٥٥ — ٥٩ ،	٢٠٧
٩٩ ، ١٤٣ ، ١٥٠ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،	البحر المتوسط : ٥ ، ٨ ، ٢٤ ،
١٧٤ ، ١٧٦ ، ٢٠٧	٣٢ ، ٣٤ ، ٤٠ — ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٤ ،
بلغاريا : ١٧٠ — ١٧٥ ، ١٨٤ —	٥٥ ، ٦٢ ، ٦٤ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٧ ،
١٨٦ ، ٢١١	٨٣ ، ٨٥ ، ٩٩ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ،
البلقان : ٥٢ ، ٥٤ ، ١٤٣ ، ١٧٠ ،	١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٧ ،
١٧١ ، ١٧٦ ، ١٨٣	١٦٩ ، ١٧١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧
بندكت اوف نورسيا : ١٦ ، ٩١	بدعة نسطور : ١٤
بنو أمية (أنظر الأمويون) : ٧٢	البرابرة (انظر الجرمان ايضا) :
بواتييه : ٧١	١٦ ، ٢١ ، ٤٢ ، ٨٨ ، ٩٩
بوريس (ملك البلغار) : ١٧٤	البرانس (جبال) : ٧١ ، ١١٢
بولس الشماس : ١١٥	برجنديا : ٣٤ ، ١٠١ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ،
بونيفاس : ١٠٤ ، ١٠٦	١٩٢ ، ١٩٦
بيت الحكمة (بغداد) : ١٣٦	بركليسي : ٢٠٨
بيت المقدس : ٢٤ ، ٣٢ ، ٦٠	برنارد اوف انيان : ١٢١
بيزنطة (الامبراطورية الرومانية	البروتوكول الامبراطوري (كتاب) :
الشرقية) : ٢٤ ، ٢٦ ، ٨٢ ، ٩١ ،	٣٣
١٠٠ ، ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٤٢ ،	بروهانس : ٣٤ ، ١٩٢ ، ١٩٦

١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٩ ، : الثقافة البيزنطية : ١٧٦ ، ١٨٠ ،
١٨١ ، ١٨٥ ، ٢٠٤ ، ٢١٠ ، ٢١١ .

الثقافة اللاتينية : ١٨٧ ، ٢٠١
ثيس (نهر) : ١١٢
الثيمات : ٢٨ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ١٥٠ ،
١٦٩

ثيودورا : ٢٧ ، ١٤٨
ثيودريك : ١٠
ثيودولف : ١١٥
ثيوفيلوس : ٢٧ ، ١٤٧ ، ١٤٩ —

(ج)

جامع عمر : ٧٥
جامع بيت المقدس : ٧٤
جامعة باريس : ٢٢
جامعة القسطنطينية : ١٨٠ ، ٢٠٨
جامعة المأمون : ٢٤
الجامعة المسيحية : ٥١
الجاهلية : ١٤٠
جبل طارق : ٧١

الجرمان (أنظر البرابرة) : ٧ ،
٨ ، ١١ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٩ ، ٤٣ ،
٤٩ ، ٥٠ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٣ ، ٨٥ ،
٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٩ ، ١١٠ ، ١١٩ ،
١٧٤ ، ١٩٣ ، ٢١١ ، ٢١٢ .

جريجورى (أسقف تورز) : ٨٠
جريجورى الكبير (العظيم) : ١٥ ،
٢٥ ، ٣٩ — ٤٦ ، ٦١ ، ٩٠ ، ٨٩ ،

(ت)

تاريخ أوروبا الاقصادى
والاجتماعى فى العصور الوسطى
(كتاب) : ١٣
تاريخ الفرنجة (كتاب) : ٨٠
التاريخ الكنسى للشعب
الانجليزى : ٩٤

التراث اليونانى : ٢٥
الترك (أنظر الأتراك) : ١٦١
التركستان : ٧١
تشيلبريك : ٨٠

تنظيم الإدارة فى الامبراطورية
(كتاب) : ٣٣
التوراة : ٦٩ ، ١٠٦

تورز (موقعة) : ٧١ ، ١٠٣
تونس : ١٦٠ ، ١٦١
تيودورا : ١٧٣

تيودور الستديونى : ١٤٧ ، ١٤٨ ،
١٥٢

(ث)

الثقافة الاسلامية : ١٤٠ ، ١٥٤ ،
١٦٦

- ٩٥ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٢٧ ، ٢٠٧ ،
٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ •
جريجورى الثانى : ١٥
جريجورى الثالث : ٢٦
جرينلاند : ١٩٣
الجزر البريطانية : ١١٢ ، ١٩٢
جستتيان : ٨ ، ٤٠ ، ٥٠ — ٥٣ ،
٥٧ ، ٨٩ ، ١٤٢ ، ١٤٩ ، ١٦٨ ،
١٧١ ، ٢١٢ •
الجند المرتقة : ١٩ ، ٥٧ ، ٥٨ ،
١٥٠ •
جند المسيح : ٩٢ ، ١٢٧
جورج استروجورسكى : ٢٨
جورج جوردون كولتون : ٢٠
جوستاف جرونيياوم : ٣٠
جوناس : ٢٠٢
جون لامونت : ٢٢
جيرار : ١٣
جيروم : ١٦
جيل ايزاك : ٢٢
جيمس برايس : ١٨
- الحركة اللايقونية : ١٥ ، ٢٦ ،
٢٨ ، ٦١ ، ٩٧ ، ١٠٥ ، ١٧٨
الحروب الفارسية : ٥٤
الحروب الصليبية : ٣١ ، ٣٣ ،
١٣٧
حزقيال : ٣٩
الحضارة الاسلامية : ١٠ ، ٢٣ ،
٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٦٢ ، ٦٩ ،
١٠٠ ، ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٦٦ ، ٢٠٤ ،
٢١٢ •
الحضارة البيزنطية : ٩ ، ٢٧ ،
٢٩ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٦٢ ، ٩٧ ، ١٥٧ ،
١٤٨ ، ٢١٢ •
الحضارة الغربية : ٢٩ ، ٤٦ ،
٤٩ ، ١٥٧ ، ٢١٢
الحضارة الكلاسيكية : ٧ ، ٨ ،
٤٠ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٧٩ ، ٢٠٧ ،
٢٠٨ ، ٢١٢ ، ٢١٣
حلب : ٣٣
الحوليات الديرية : ٢٢
الحوليات الملكية : ٢٢

(خ)

- الخلافة العباسية : ٢٣ ، ٢٩ ،
٣٢ ، ٣٤ ، ١٤٠ ، ١٥٩
الخلفاء الامويون : ٧٢
الخزر : ١٧٠

(ح)

- حامى الرومان (لقب) : ١٠٧ ،
١١٠ ، ١١٦ — ١١٨
الحجر الأسود : ٦٣
حركة الترجمة : ٢٥ ، ٣١ ، ١٤١ ،
١٦٣

الديرية البندكتية : ٢١	(د)	دار الخليفة : ١٣٥
الديرية البيزنطية : ١٧٨		الدانمارك : ١٩٢
(ز)		الدانوب (نهر) : ٥٥ ، ٥٥ ، ١١٢ ، ١١١
ذابح البلغار : ١٧١		داود : ١١٦
(ر)		دجلة : ٢١٠
		دقلديانوس : ٥١
		دمشق : ٢٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ١٣٤ ، ٢٠٩
رابانوس ماوروس : ٢٠٢		الدولة الاسلامية : ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٥٩ — ١٦٢ ، ١٧٠
الرازي : ١٦٤		الدولة الأموية : ٢٣ ، ٧١ ، ٧٣
رافنا : ١٠٨ ، ٥٢ ، ٢٦		الدولة البيزنطية : ٢٩ ، ٩ ، ٨ ، ٥ ، ٣١ — ٣٤ ، ٥٩ ، ٨٤ ، ١٠٧
الراين (نهر) : ٩٠ ، ٨٧ ، ١٧		١٠٨ ، ١٣٠ ، ١٤٣ ، ١٥٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٨٦ ، ١٨٣ ، ١٨٠ ، ١٧٣ ، ٢١٣
١٨٨ ، ١١١		الدولة الرومانية الشرقية (أنظر
رقيق الأرض : ٨٤ ، ٣٥		الدولة البيزنطية) : ٨ ، ٧ ، ٠ ، ٥ ، ١١ ، ١٤ ، ٢٥ ، ٨٣
الرسول (ﷺ) : ٦٥ ، ٦٤ ، ٤٩		الدولة العباسية : ١٤١
١٦٣ ، ١٦٢ ، ١٣٩		الدولة العربية : ٩
الروس : ٢٠٧ ، ١٧٠ ، ٣٣ ، ٣١		الدولة الفاطمية : ١٦٠
روسيا : ١٧٦ ، ١٧١ ، ١٧٠		الدولة الكارولنجية : ١١٣ ، ٢٠
٢١١ ، ١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٨٦ ، ١٨٥		١٩١ ، ١٥٠ ، ١٣٢ ، ١٣١
روما الجديدة (انظر القسطنطينية) : ١٠٠ ، ٥١		الدولة الميروفنجية : ٨١ ، ١
روما : ١٨ ، ١٦ — ١٤ ، ١٠ ، ٧		دير ستوديون : ١٤٨ ، ١٤٧
١٩ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٤٠		
٤٣ — ٤٦ ، ٥١ ، ٦١ — ٦٣		
٨٧ — ٨٩ ، ١٠٤ — ١٠٨ ، ١١٠		
١١٦ — ١١٩ ، ١٢٧ ، ١٣٠		
١٣٢ ، ١٤٦ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٧٢ —		

السكسون : ١٠٣ ، ١١٠ ، ١١١ ،
١١٦
مكسونيا : ٨٧ ، ٢١١
السلاف : ٩ ، ٣١ ، ٤٣ ، ٥٢ —
٥٩ ، ٧٨ ، ٩٩ ، ١٣٢ ، ١٥٠ ،
١٦٧ ، ١٧١ ، ١٧٦ — ١٧٩ ، ١٨٣ —
١٨٦ ، ٢٠١
سليمان بن عبد الملك : ٩
سمعان العمودي : ٩٢
السنة : ٣٩ ، ١٦٢
سوتونيوس : ١٣٠
السويد : ١٩٢
سورية : ٤٥ ، ٥٠ — ٥٤ ، ٥٧ ،
٧٠ ، ٧٤ ، ٨٦ ، ١٣٧ ، ١٦٠ ، ١٧١
السويديون (الفرانجيون) : ١٨٥
سيجبرت : ٨٠
سيمون البلغاري : ١٧٠

(ش)

شأتو برياز : ٢٢
شارل الأصلع : ١٨٨ — ١٩٠
شارل ديل : ٢٨
شارل مارتل : ٧١ ، ١٠٢ — ١٠٤ ،
١٠٩
شارلمان : ١١ ، ١٣ ، ١٧ — ١٩ ،
٢١ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٩٧ ،
١٠٩ — ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ،

١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٩ ، ٢٠٧ — ٢١١ ،
الرومان : ١٠ ، ١٩ ، ٥٠ ، ٨٣ ،
٨٩ ، ١١٢ ، ١٣٤ ، ٢٠٧ ،
رومانوس الثاني : ٣٢
رونسيغال : ١١٢
رئيس السراي (البلاط) : ١٠١ —
١٠٤
الرهينة : ١٦ ، ١٤٥ ، ١٨٦
الرهينة البندكتية : ٩١
الرهبان البندكتيين : ٨٨ ، ٩٢ ،
٩٣ ، ١٠٤ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢١٢
ريتشارد ساليغان (انظر ساليغان) :
٧٤ ، ٥
الريف البيزنطي : ١٥٢

(ز)

الزاداشت : ٧٤ ، ١٤٠

(س)

السامرة : ٣٩ ، ٤٥
ساليغان (ريتشارد) : ١٧ ، ٢٣ ،
٢٩
ستراتيجوس : ٥٨
ستيفن (بابا) : ١٠٨
ستيفن الثاني : ١٠٧
ستيفن رانسيغان : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٣

العماد بحد السيف : ١١٤

عمر بن الخطاب : ٧٠

(غ)

غالية : ١١ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢١ ،

٢٧ ، ٤٢ ، ٥٠ ، ٧٨ ، ٩٠ ، ١٠٧ ،

الغرب : ١٠ ، ٨ ، ٧ ، ٥ ، ٢٨ ،

٣١ ، ٣٥ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٥٩ ،

٦٢ ، ٧١ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٧ ،

٩٠ ، ٩٥ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٦ ،

١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ، ١١٩ ، ١٢٧ ،

١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٤٢ ، ١٥١ ،

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٦ ،

١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٢ ،

١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ،

الغزالي : ١٦٥

الغزوات الجرمانية : ٨٦ ، ٨٨

(هـ)

فارسي : ٤٥ ، ٦٣ ، ٧١ ، ٧٥ ،

١٥٨

فاطمة (بنت الرسول ﷺ) : ١٦٠

الفرات (نهر) : ٢١٠

فرائض الاسلام : ٦٨

فرجيل : ٢٠٧

فردان : ٣٤ ، ١٨٨

عثمان بن عفان : ٧٠

العذراء : ١٤ ، ١٥٣

العراق : ١٠

العرب : ٢٥ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٦٦ ،

٧٦ ، ٧٨ ، ٨٣ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٩ ،

١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٨ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،

العصر الأموي : ٢٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ،

١٣٣ ، ١٤٠

العصر العباسي الأول : ٢٥ ،

١٤٠ ، ١٥٨ ، ١٦٣

العصر العباسي : ١٣٨ ، ١٣٩

العصر الكارولنجي : ٧ ، ١٢٩ ،

١٣١

العصر الميروفنجي : ١٣١

العصر المقدوني : ١٨٠ ، ١٨٢

عصر النهضة : ٢٣ ، ٣١ ، ٣٦ ،

١٨٢

العصر الهالينسي : ٤٥

العصور الوسطى : ٥ ، ٧ ، ١٧ ،

١٨ ، ٢٢ ، ٣١ ، ٣٦ ، ٧٨ ، ٨٦ ،

١١٢ ، ١٣١ ، ١٥٧ ، ١٦١ ، ١٧٩ ،

العصور الوسطى المبكرة : ١٧ ،

٣٠ ، ٥٩ ، ٧٩ ، ٢١٢

العلوم البيزنطية : ١٨٤

العلوم الاسلامية : ١٦٤ ، ١٦٦

علم التنجيم : ١٦٤

علم اللاهوت : ٩٢ ، ١١٥

العلوم المسيحية : ١٨٠

العلوم اليونانية : ١٨٢

علي بن ابي طالب : ١٤٠ ، ١٦٢

(ق)

- الفرس : ٢٣ ، ٤٣ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٩ ، ١٠٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ٢٠٧ ، ٢٤٢
الفرنجة : ١١ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٧١ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٧ ، ٩١ ، ٩٩ — ١٠٢ ، ١٠٣ — ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٣ ، ١١٥ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٦ ، ١٤٦ — ١٤٨ ، ١٥١ ، ١٨٨ — ١٩٢ ، ٢١٢ ، فرنسا : ١٧ ، ٣٤ ، ١٨١ ، ١٩٢ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، فرنكونيا : ١٩٢ ، فريد يجونده : ٨٠ ، فريزيا : ٣٤ ، الفريزيون : ١٠٣ ، ١١١ ، الفقه والشريعة الاسلامية : ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، فكرة الجهاد : ٩ ، ٦٦ ، فلاديمير : ١٨٦ ، فلسطين : ٢٤ ، ٥٠ — ٥٧ ، ٧٠ ، ٨٦ ، ١٦٠ ، الفن البيزنطي : ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٨ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، فن الحرب : ٣٣ ، فن الكتابة التاريخية : ٢٢ ، فوتيوس : ١٧٣ — ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ٢١٢ ، فيزر : ١١١ ، الفيكنج : ١٨٩ — ١٩٣ ، ٢٠١ ، القاهرة : ١٦٠ ، ٢٠٩ ، قبرص : ٣٣ ، ١٧١ ، قبة الصخرة : ٧٥ ، قداس عيد الميلاد : ١١٦ ، ١١٧ ، القرآن الكريم : ٣٠ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ١٣٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، قرطبة : ٢٠٩ ، القرن الذهبي : ٢٠٨ ، قسطنطين الجديد (أنظر شارلمان) : ١١٥ ، قسطنطين الكبير : ٢٨ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٥١ ، ١١٨ ، قسطنطين الرابع : ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، قسطنطين الخامس : ٢٦ ، ١٤٣ — ١٤٩ ، قسطنطين السادس : ١٤٦ ، قسطنطين السابع : ٣٢ ، ٣٣ ، القسطنطينية : ٩ ، ١٥ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٤٠ ، ٤٤ — ٤٩ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٧٢ ، ٨٩ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١١٨ — ١٢٠ ، ١٢٦ ، ١٣٥ ، ١٤٥ — ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦٨ — ١٧٩ ، ١٨٢ — ١٨٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، قصر البوابة الذهبية : ١٣٥ ، القصر المقدس : ١٨٦ ، ٢٠٨ ، قصص الف ليلة وليلة : ١٣٥ ، القطيعة الدينية الكبرى : ٣٣ ، ٦٢ ، ١٧٢ ، ١٧٧ ، ١٧٨

القسوط الشرقيون : ١٠ ، ٥٠
القسوط الغربيون : ٤٢ ، ٥٠ ، ٧٨ ، ٧١
القوى البحرية في حوض البحر المتوسط (كتاب) : ١٣

(ك)

الكنيسة البلغارية : ١٧٦
الكنيسة الرومانية : ١١٤ ، ١٣٨ ، ١٧٣ — ١٧٥ ، ١٩٩
الكنيسة الغربية : ١٣ ، ١٥ ، ١٤ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٦ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ٢٥٠
الكنيسة الشرقية : ١٤ ، ١٥ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٣ ، ١٧٢
كنيسة شارلمان : ١٢٩
كونستانس الثاني : ٥٤
كير (و ب) : ١٧
كييف : ١٨٥ ، ١٩٣

(ل)

اللاتين : ١٦ ، ٢٦ ، ٣٤
اللغة اللاتينية : ١٤ ، ٤٤ ، ٩٠ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ١٠٩ ، ١١٦ ، ١٢٣ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٦ ، ١٦٤ ، ١٨٢ ، ٢٠١
اللغة البلغارية : ١٨٥
اللغة الجرمانية : ١٢٣
اللغة العربية : ١٠ ، ٢٥ ، ٧٦ ، ١٤١ ، ١٦٣ ، ١٦٥ ، ١٨٢
اللغة اليونانية : ٤٤ ، ٩٤ ، ١٤٩ ، ١٦٨ ، ١٨١
لبارديا : ٣٤
اللمبارديون : ١٨ ، ٢٥ — ٢٧ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٧ ، ٦١ ، ١٧٥ — ١٧٩ ، ١٨٤

كاتدرائية اياصوفيا : ٥١
الكارولنجيون : ١٢٣ — ١٢٥ ، ١٤٨ ، ١٨٨ — ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٣
كارلومان : ١٠٤
كاسيان : ١٦
كالابريا : ٢٧
كتاب الله (أنظر القرآن الكريم) : ٦٨ ، ٦٧
كتاب الأقاليم : ٣٣
الكتاب المقدس : ٩٠ ، ١٢٨ —
كروم : ١٤٧
كريت : ٢٤ ، ٣٣ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ، ١٧١
الكعبة : ٦٣
الكلت : ١١٢
كلوفيس : ١٠ ، ١٧ ، ٧٩
الكنائس البلغارية : ١٨٥
الكنائس الكارولنجية : ١٢٨ ، ١٢٩
الكنيسة البيزنطية : ٢٨ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٨٦ ، ١٥١ ، ١٧٣
١٧٥ — ١٧٩ ، ١٨٤

- ٧٨ ، ٨٩ — ٩١ ، ١٠٥ — ١٠٨ ، ١١٠
لندن : ٢٠٩
لوئارنجيا : ٣٤
لوثير : ٣٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩
لودو مورتيز هارتمان : ٢١ ، ٢٧
لوييس (الطفل) : ١٩٢
لوييس التقي : ٣٤ ، ٩٧ ، ١١٩ —
١٢٢ ، ١٢٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٤ ، ١٩٩ ، ٢٠٠
لوييس الثاني : ١٨٩ ، ١٩٠
اللورين : ١٨٩ ، ١٩٠
ليو الثالث (بابا) : ٢٧
ليو الثالث الايسوري : ٩ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٩ ، ١٧٣
ليو الرابع : ٢٦ ، ١٤٥ ، ١٤٦
ليو الخامس : ١٤٧
ليو السادس : ٣٣ ، ١٦٨ ، ١٨٠
- (م)
- مارتين الأول : ١٥٠
المأمون : ١٣٣ ، ١٣٦
المبشرون البيزنطيون : ١٧٩
المعموثون الملكيون : ١١٤
متسيجلان : ٥
متعبدى الايقونات : ١٤٦
- المجتمع الاسلامي : ١٠٠ ، ١٣٢ ، ١٣٨ ، ١٤٠
المجتمع الاقطاعي : ١٣ ، ١٩٦ —
١٣٠ ، ١٥٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٣
المجتمع البيزنطي : ١٤٣ — ١٤٥ ، ١٥١ — ١٥٣ ، ١٦٨ ، ١٧٣ ، ١٨٣ ، ١٨٦
المجتمع الاوروبي الغربي : ٧٧ ، ٩٤ ، ١٧٩ ، ١٩٩
المجتمع الفرنجي : ١٣١
المجتمع الكارولنجي : ٩٧ ، ١٢٢ ، ١٢٣
مجمع افسس : ١٤
مجمع القسطنطينية : ١٤ ، ٦٠
مجمع نيقية : ٢٧ ، ١٤٦
المجريون أو الهنغار : ١٩١
مجموعات الحديث : ١٦٣
المحتسب (كتاب) : ٣٣
محمد (ﷺ) : ٤٧ ، ٥٤ ، ٦٤ —
٧٤ ، ٧٦ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٩ ، ٢٠٧ ، ٧١
المحيط الاطلنطي : ٧١ ، ٢٠٧
المخطوطات الايرلندية : ٩٤
المدينة (يثرب) : ٦٥
مدينة الله (كتاب) : ١١٥
مدينة السلام (بغداد) : ١٥٩
مدرسة القصر (البلاط) : ٢٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٣٠
المذهب المونوفيزي : ٥٤
مراسم القصور : ٣٣

الملاحم الفرنسية : ١١٢	مراكش : ١٦٠
الممالك الانجليزية : ١٣١	مرثاة البابا جريجورى الكبير : ٧ ،
المملكة البلغارية : ١٧١	٤٢ ، ٣٩
الممالك الجرمانية المبكرة : ١٢٤	مسجد الرسول (ﷺ) : ٧٤
الممالك السكندنافية : ١٩٣	المسلمون : ١٨ ، ١٤٥ ، ١٤٧ ،
الممالك الكارولنجية : ١٩١	١٥٤ ، ١٦١ — ١٦٥ ، ١٧٠ ، ١٧١ ،
الممالك المسيحية : ١٦١	١٨٩ ، ١٨٢ ، ١٨٠
المملكة الميروفنجية : ١٠٢	المسيحيون : ٧٤ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ،
المنتجات الاسلامية : ١٣٧	١٦١ ، ١٦٥ ، ١٧٧
مورافيا : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٨٤ ،	المسيح (عليه السلام) : ١٤ ،
١٨٦	٤١ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦١ ،
المورافيون : ٢٠٧	٦٧ ، ١٥٣
موس : ٢٨	المسيحية : ٨ ، ٩ ، ٢٤ — ٢٦ ،
مونت كاسينو : ٩١	٣١ — ٣٤ ، ٤١ ، ٤٣ ، ٥١ ، ٦٩ ،
ميثوريوس : ١٨٤	٨٦ — ٩٣ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١١١ ،
ميخائيل الأول : ٢٦	١١٣ ، ١١٤ ، ١٢٠ ، ١٢٥ — ١٢٧ ،
ميخائيل الثانى : ١٤٧	١٧٧ — ١٨٩ ، ٢٠١ ، ٢١١
ميخائيل الثالث : ٢٧ ، ١٦٨	مصر : ٩ ، ١٠ ، ١٦ ، ٣١ ، ٤٥ ،
الميروفنجيون : ١٠١ ، ١٠٦ ، ١١٩ ،	٥٠ ، ٥٢ — ٥٤ ، ٥٧ ، ٧٠ ، ٧٥ ،
١٢٢ — ١٢٤ ، ١٩٠	٨٦ ، ١٤٢ ، ١٦٠
(ن)	معاوية بن ابي سفيان : ٧١ ، ٧٣
النار الاغريقية : ٥٥	المعاونون الخصوصيون : ١٩٤
النرويج : ١٩٢	المعتصم بالله العباسى : ١٥٨ ،
النزاع اللايقونى (أنظر الصراع	١٥٩
ايضا) : ١٨ ، ٣١ ، ١٦٧ ، ١٧٢	المقوقس : ١٨٤
النظام الاقطاعى : ٨٢ ، ١٩٣ —	مقدونية : ١٦٨
٢١٠ ، ٢٠٣ ، ١٩٨ ، ١٩٥	المقدونيون : ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٩
	مكة المكرمة : ٦٣ — ٦٨ ، ١٦٢
	الملاحم الشعرية البيزنطية : ١٨١ ،
	١٨٢

هنگمار : ٢٠٢	خظام التبعية : ١٩٤
هوراس (أنظر أليكوين) : ١١٦ ،	النظام البندكتى : ٩٢
هومير : ١٢٠	نظام الحماية : ١٢
هوميروس : ١١٦	نقفور فوكاس : ٣٢ ، ١٧٠
(و)	النهضة البيزنطية : ١٧٩ — ١٨٢
واجبات الخدمة : ٢٠	نهضة القرن الثانى عشر : ١٦٦
الوثنية : ٤١	النهضة الكارولنجية : ٢٢ ، ٢٣ ،
وسكس : ١٩٣	٢٥ ، ٣٦ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٤١ ،
الولايات الأوروبية : ١٤٥	١٤٣ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٢
الولايات الشرقية : ١٤٤	نوفجورود : ١٩٣
الولايات الغربية : ١٤٧	نورمان بينز : ٢٨
الولايات المتحدة الامريكية : ٥	نورمانديا : ١٩٣
ول ديورانت : ٣١	نويستريا : ١٠١
الوندال : ٥٠	نيقولا الأول : ١٧٣ ، ١٧٤ ، ٢٠٠
	النيل (نهر) : ٢١٠
	(ه)

(ى)	هارتمان : ٢٨
يثرىب (انظر المدينة) : ٦٥	هارون الرشيد : ٢٣ ، ٢٤ ، ١٣٣ ،
يوحنا تريمسكس : ٣٢ ، ٣٣ ، ١٧٠	١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٧ ، ٢١٢
يوحنا الثامن : ١٧٥ ، ٢٠٠	هبة بين : ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠
يوحنا الدمشقى : ١٥٢	هبة قسطنطين : ١٠٧
يوحنا سكوتوس اريجين : ٢٠٢	هرقل : ٩ ، ٥٣ — ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٩ ،
اليونان : ١٦٤	٧٠
اليونانيون : ٧٥	الهند : ١٠ ، ٤٩ ، ٧١ ، ٧٥ ،
اليهود : ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٤ ، ٧٥ ،	١٣٨ ، ١٦٢ ، ١٦٤
١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ، ١٦٥ .	هنرى بيرين : ١٣
	الهنگار : ١٧٠

فهرس المحتويات

صفحة	
٦ — ٥	تصدير الطبعة الأولى للترجمة العربية
٣٦ — ٧	مقدمة المترجم
٤٦ — ٣٧	مقدمة المؤلف
٩٦ — ٤٧	الفصل الأول

ورثة الحضارة الرومانية

التفسير الذى طرأ على الامبراطورية الرومانية الشرقية :

- الأراضى المفقودة
- اعادة تنظيم الامبراطورية من الداخل
- التغييرات الدينية

مولد الحضارة الاسلامية :

- بلاد العرب قبل الاسلام
- النبى محمد (ﷺ)
- الدين الاسلامى
- الفتوح الاسلامية
- التطور الداخلى

المجتمع الأوروبى الغربى :

- الفوضى السياسية
- التطور الاقتصادى والاجتماعى
- الحياة الدينية فى غرب اوروبى
- التطور الثقافى

صفحة

٩٧ — ١٥٤

الفصل الثاني

نهضة الغرب

قيام الأسرة الكارولنجية ، وعظمتها باعتبارها قوة عالمية (٧١٤ — ٨٤٠م):

- أصل الأسرة الكارولنجية .
- بين القصير (٧٤١ — ٧٦٨ م)
- شارلمان (٧٦٨ — ٨١٤ م)
- لويس التقى (٨١٤ — ٨٤٠ م)
- طبيعة المجتمع الكارولنجي .
- الدولة الاسلامية في ظل الخلفاء العباسيين الأوائل :
- العباسيون الأول (٧٥٠ — ٨٤٧ م) والخلافة الجديدة .
- عالمية الاسلام .
- تطور الثقافة الاسلامية .
- بيزنطة في العصر اللايقوني (٧٤١ — ٨٤٣ م) :
- الحركة اللايقونية ، والسياسة ، والدفاع .
- الحضارة البيزنطية في العصر اللايقوني .

١٥٥ — ٢٠٤

الفصل الثالث

الانقسام الداخلي في الحضارة الجديدة

- تفتت العالم الاسلامي :
- التفكك السياسي .
- القوى الموحدة .
- انتعاش الدولة البيزنطية :
- الدولة البيزنطية تستعيد نفوذها السياسي في عهد الأسرة المقدونية .

صفحة

- التطور الدينى
- النهضة الثقافية
- الدولة البيزنطية والعالم السلافى

تجزئة الامبراطورية الكارولنجية :

- نشأة ممالك الغرب الأوروبى
- نحو مجتمع اقطاعى
- الروابط العامة فى مجتمع غرب اوروبا

خاتمة	٢١٣ — ٢٠٥
جدول زمنى مركز	٢٢٠ — ٢١٤
اقتراحات لمزيد من القراءة والاطلاع	٢٢٦ — ٢٢١
فهرس أبجدى عام	٢٤٣ — ٢٢٩
فهرس المحتويات	٢٤٦ — ٢٤٤



0338006